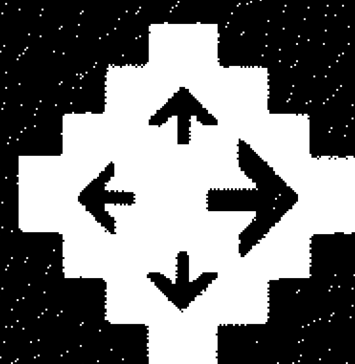
نبيل خلف

الأعمال الكاملة

الروايات

حكايات للأطفال والفتيان والفتيات



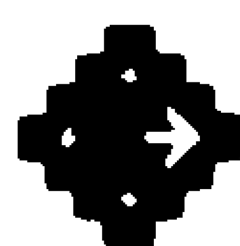
شرقيات

أهداءات ٢٠٠٤

أ / نبيل خلف

القاهرة

الأعمال الكاملة



دار شرقيات للنشر والتوزيع

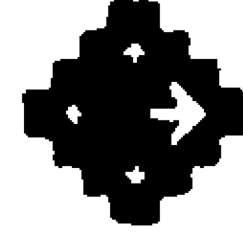
نبيل خلف

الأعمال الكاملة

الروايات

حكايات للأطفال والفتيان والفتيات

الطبعة الأولى ٢٠٠٢



دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ ش محمد صدقي، هدى شعراوي

الرقم البريدي ١١١١١

باب اللوق، القاهرة

ت ٣٩٠٢٩١٣ فاكس: ٣٩٣١٥٤٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٧٦٠٦

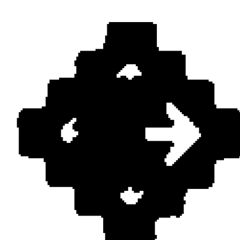
الترقيم الدولي ISBN 977-283-124-4

نبيل خلف

الأعمال الكاملة

الروايات

حكايات للأطفال والفتيان والفتيات



دار شرقيات للنشر والتوزيع

مقدمة

لا يكتب نبيل خلف للأطفال، فحسب، بل تساوره رغبة عارمة أن يكون طفلا، وهو يفضل دائما الاحتفاظ بهذه الكينونة، وأقل درجة من درجات الصدق مع النفس تمنع أي أحد أن يضيف صفة الكبير إلى هذه الوضعية التي يفضلها، إنه طفل من الأطفال وليس طفلاً كبيرا كما اعتدنا أن نقول في مثل هذه الحالات، وتنصهر وضعية الطفولة انصهارا كاملا في وضعيته ككاتب، ومن الاستحالة أن نفصل بين الكاتب والطفل في عالم نبيل خلف، فالكتكوت في أوبريت الأم الخشبية (١٩٩٩) يحدد هويته ويختار لنفسه اسما في ذات الوقت الذي يتعرف فيه على حروف الكتابة،لا قبل هذا الوقت ولا بعده، وتتزامن معرفة الذات بمعرفة الكتابة أو الرسم كما يؤثر نبيل خلف أن يطلق على الفن والأدب. ونبيل خلف ككل الأطفال شغوف بأن يكون مبهرا، ويغريه دائما أن يكون ولدا مدهشا يثير الانتباه والإعجاب، ولعل هذا ما يجعل جميع الأحكام والملاحظات حول أعماله غير نهائية، وغير قاطعة، فما إن انتهى

من كتابة "الأم الخشبية"، واعتبرناه قد توصل أخيرا - بعد التطواف على فنون الأدب المختلفة - إلى الفن الأقدر على استيعاب طاقاته الإبداعية الخلاقة وعلى بلورة رؤاه والتعبير الأتم عن جوانب وجدانياته الكثيفة المتشابكة، حتى فاجأنا بشروعه في كتابة سيناريو فيلم مازال منهمكا في معالجته.

ولد نبيل خلف في ١٩٤٧/٧/١٥ بأحد أحياء القاهرة التي تقع على حدود أعتق الأحياء الشعبية، من جهة، وعلى مشارف أرقى أحياء القاهرة، من جهة أخرى . وعلى الرغم من أنه قد تجاوز الخمسين، وأن صورته لن تختلف في الواقع اليومي المعاش عن الصورة التي قدمناه بها. فهو على موائد الاجتماعات يبدو أطول هامة من كل المجتمعين، وأعلاهم صوتا وأكثرهم ضجيجا، يعكس عنف مناقشاته كراهيته لعالم الكبار،ومقته لأوراق أي لعبة رسمية، لكنه يبدو في حلقات الأولاد بسيطا ودودا وحنونا ومتعاطفا وطبيعيا، يسايرهم في أحاديثهم بتلقائية، ويسامرهم مستمتعا باشا باسما، ويتعامل معه الأطفال الصغار بندية وألفة. ففي هذا الجمع وحده تسقط عن وجهه أقنعة الجهامة والاكتئاب، ويشع الحبور من عينيه، ضاربا عرض الحائط بجميع مشاغله واهتماماته.

أصدر أولى مجموعاته الشعرية "الولد الرسام" عام ١٩٨٥، تلتها مجموعته الشعرية الثانية " قمع السكر - ١٩٩٨. وبين المجموعتين نشر نبيل خلف عدة قصص طويلة وروايات للأطفال، من بينها " عطاء " ١٩٩٢، سمكة الشمس ١٩٩٢، والأم الخشبية " القصة " ١٩٩٣، الرجل الغراب في غابة الضباب " رواية" ١٩٩٦، فراشة الأميرة الحمراء

– "رواية " ١٩٩٨، وهناك بالإضافة إلى ذلك قصص وروايات أخرى للأطفال لم تنشر بعد، منها "ثورة الأطفال"، "جبل الصلصال"، "مدينة الرجل الغراب" و "النهر يعزف الموسيقى"، "فوشيا"، "ضى"، "كيس الفحم" . كما قام بوضع الأغاني لعدة مسلسلات تليفزيونية للأطفال الصغار كمسلسل "رحلة إلى الشمس "، وكذلك أغاني عدد من المسرحيات قدمتها أجهزة الثقافة الجماهيرية – بوزارة الثقافة. وأخيرا هناك أوبريت "حلم في علم" التي قدمتها قناة الـ A.R.T وهي عن أحلام الأطفال العلمية في الألفية الثالثة.

وفى جميع هذه الأعمال، تتبدى وحشية الواقع ودمويته، ووحشية الكبار المسئولين عن هذا الواقع، بمخازيه وشروره. وسيكون الخلاص دائما على يد الأطفال الذين لابد أن يثوروا، والذين يؤكد نبيل خلف دون كلل على مقدرتهم الفذة على إعادة أوضاع العالم إلى طبيعته الخيرة. فالأطفال، كما يرى، أكثر ذكاء مما نظن. ومن هذا المنظور يكتب للأطفال وعنهم وعن العالم حولهم، بشكل يستفز أصحاب النزوع التقليدي في كتابات الأطفال، الذين يبادلهم نبيل خلف سخطا بسخط، واعتراضا باعتراض. فهو بطبيعته يرفض النزوع إلى التعالي الذي يبديه المؤلفون عندما يحكون للأطفال عن المثل العليا، فارضين وصايتهم على عقولهم الحرة، مستخفين بعقلياتهم القاصرة وذكائهم المحدود.

تمثل النزعة الأخلاقية رافدا حيويا من روافد التجارب الإبداعية لنبيل خلف ، بل وبعدا حاسما من أبعاد شخصيته، وهنا يكمن سر

شقائه، وما إلحاحه المستمر على معزوفته الكئيبة التي تئــن بالإحســاس بالقسوة إلا صورة مرئية لترعته المثالية التي لا تسلم من المغالاة ، والــتي تترتب بدورها على إحساسه الأخلاقي الرفيع المســتوى والــذي مــن الصعب عليه التفريط فيه، هذه الترعة المثالية المغالى فيها تصــل بــه إلى أقصى درجات عدم التسامح، وهى نتيجة طبيعية من نتــائج تضخيمــه لضعف الآخرين وعدم تقبله للزلات الصغيرة التي قد تقع سهوا منــهم ، ومن منا بلا خطيئة ومن منا يسلم من الهنات ، إلا أن هذه الهنات مــهما تدنى بها الصغير تكتسب أبعادا هائلة بواقع حسه المثالي والأخلاقي المفرط تصل به إلى رفض الآخرين رفضا كاملا أحيانا، ولعل هذه المفاهيم هــي التي أعاقت تطهره النفسي من رواسب الطفولة، وحــالت بــين الأدب وممارسة تأثيره في الخلاص الذاتي المنشود من عذابات الماضي السحيق .

وبغض النظر عن السمات الرئيسية لشخصيته فإن الترعة الأخلاقية من العوامل المؤثرة تأثيرا رئيسيا في بناء شخصياته، وعاملا جوهريا مــن العوامل المحركة للأحداث، فبعيدا عن مفهوم الأمومة ســنجد رنــا في الفراشة تفضل التنازل عن أحلامها وعدم تحقيق الأهداف التي تصبــو إلى تحقيقها لتنقذ أنثى الحوت الثكلى التي تحاول الانتحار حزنا على وليدهــا الذي ابتلعه القرش الثعلب ، ففي اللحظة الحاسمة لتحقيــق حلمــها في التحول إلى فراشة لتنهل رحيق الأمومة الصافي من زهرة اللؤلــؤ الأم ، ذلك الرحيق العذب الذي حرمت منه على امتداد عمرها، تتراجع عــن الإقدام للظفر بالمصير المحبب إليها، مفضلة بسماحة نفس أن تتحــول إلى حوت وليد لتسعد قلب الأم الثكلى التي فاض بها الأســى وارتضــت الانتحار حزنا على صغيرها الفقيد، وهكذا ارتضت رنا أن تؤثر حيــاة

أنثى الحوت الشكلي على حياتها، وأن تهب عمرها لها، بالتخلي عن المصير الذي انتظرته طويلا.

وإذا احتلت النزعة الأخلاقية هامشا محدودا نسبيا في هذه الأعمال، فإن هذه الجزئية لا تدل على تأثير محدود، ولا تقلل من حيوية وأهمية تفاعلها ومحورية دورها الخلاق، وجوهريته بالنسبة للتجارب الفنية والإبداعية، ويبدو النزوع الأخلاقي في رواية " عطاء " ١٩٩٠ على أوضح وأتم صورة، سواء بالنسبة لتكوين الشخصيات وبنائها وسماتها وطبائعها أو بالنسبة لتطوير الحدث وتنامي السرد الفني، ومنذ اللحظة الأولى يبدو هذا الأثر جليا في اختيار اسم الرواية بدلالاته الأخلاقية، وتعد رواية "عطاء " شاهدا على عمق النزعة الأخلاقية وتغلغلها، عاكسة بهذا العمق والتغلغل قوة الحضور الأخلاقي الذي يعاني منه نبيل خلف، ومن الفصل الأول إلى الفصل الأخير يمثل الحس الأخلاقي العنصر الفعال والجوهري لتنامي الرواية واتساقها وتوالى أنساقها، فعطاء تلك السحابة الصغيرة تكاد أن تموت أسى عندما تتذكر صديقتها شجرة الأكاسيا تلك الوحيدة في الصحراء، لا تجد كغيرها من يرويها ليقيها مغبة الموت عطشا، ولا يساور عطاء غيرهم واحد وأمنية وحيدة في أن تهبط فوقها وتغمرها بالقبلات وترويها بدموعها قطرات المطر، وتتعاطف الأم، خصلة الشعر مع أمانيها وتبدى تفهما لرغبتها في غوث صديقتها العطشى. وتبدأ عطاء في البحث عن صديقتها وتتأمل الأرض من خلال منظارها الإلكتروني وتسأل نفسها كيف لا تجد أكاسيا قطرة ماء واحدة ترويها والأرض كرة مفلطحة يغمر الماء معظم أنحائها، وتستمر عطاء في البحث عن صديقتها، أما شجرة الصبار جارة أكاسيا فتشفق عليها

بدورها، وتقرر أن تمد جذورها كي تعانق جذور الاكاسيا - لتمنحها بعض الماء الذي تختزنه رغم أنها تخشى على ابنتها الزهرة الحمراء من الذبول إن هي فعلت، تلك الابنة الوحيدة التي لم ترزق بها إلا بعد خمسين عاما من الحرمان من الذرية، وتشجعها ابنتها الزهرة الحمراء على ما تريده فهي لن تشعر بلذة الحياة إذا ماتت أكاسيا، وتمد شجرة الصبار جذورها بعناء شديد نحو أكاسيا، إلا أن نمل الرمل يزحف سريعا نحو جذر الصبار ويلتهمه ويسحبه لجحوره بأنانية بالغة .. ونجمة الصباح والمساء حين تنفجر يمسها الجنون فتقذف أبناءها القناديل الفضية بعيدا عنها لتنقذهم من الموت بينما ترتضى لنفسها هي هذا المصير التعس، وتنحيهم بعيدا عن المجال المدمر للنجم ألفا الشرير الذي دمرها ، كما أن أحد هذه القناديل الفضية يندفع نحو النمر الصحراوي حارقا ذيله لينقذ شجرة الصبار من بين أنيابه، ويكرر تعريض نفسه للخطر بتصديه للنمر الصحراوي مرة ثانية لينقذ الكراكي البيضاء من فم الوحش المتربص بهم، والكراكى البيضاء بحس بالغ السحر تبلل فروع الأكاسيا وشجرة الصبار وأوراقهما بلعابها لتقيهما مغبة الذبول .. وهكذا تتابع فصول رواية عطاء بدافع النزعة الأخلاقية من موقف إلى موقف، ومن تضحية إلى تضحية ، ومن إنكار ذات إلى إنكار ذات ومن تسامى نفسي إلى آخر، من البداية حتى فصل الختام.

وإذا كنا قد تعلمنا الدرس نفسه الذي تعلمه كتكوت المعمل، وعرفنا معه لأول مرة معنى الأمومة الحقيقية في إنكار الذات والتضحية والتفوق على النفس، فبهذا المعيار الأخلاقي يمكننا أن نميز الحس الأمومي الحقيقي من الحس الزائف، في أوبريت الفراشة، فشخصية الأم بالأوبريت

من الشخصيات ذات البناء المركب شديد التعقيد، تمثل شخصيتها رقعتين شعوريتين متباينتين تباينا كاملا، فهي تبدو أحيانا شديدة الصرامة والقسوة ، وتبدو مرة أخرى متدفقة بمشاعر الحنان والحب، ومن تبسيط الأمور القول بأن ذلك يعكس وضعها كعالمة نباتات تتسم بالموضوعية والحياد الشعوري والجفاء العلمي وهى كأم من الأمهات تترقرق عواطفها بصفاء ونقاء نحو ابنتها، وعلى هذين المحورين المتناقضين تتسق الشخصية كنمط شائع يهمل واجباته الأولية فى رعاية الأبناء في سبيل قيمة العمل، ويستمد مشروعيته من مبرراته القوية، العمل من أجل الإنسانية والتضحية بسعادته وسعادة الآخرين حوله من أجل الخير الأسمى للمجتمع، فكل هذه المعاني القريبة ليست دقيقة الدقة الكافية لتبرير موقف الأم، وجعلها أقرب لمفاهيم الأمومة الأصيلة والحقيقية، التي تتنكر لاعتباراتها الذاتية مؤثرة الهم الإنساني الجمعي على همومها إن هذه الآراء على هذا النحو تدين في الأوبريت الصغيرة رنا وتخطئها ، وتنزع منها مبررات إحباطاتها ومشروعية أحلامها، فلا يحق لها أن تبنى عالما من الخيال يوازي قسوة الواقع الذي تعيشه ، فهذه القسوة ليست إلا مجرد وهم من الأوهام يختلقها وعى قاصر بطبيعة الواقع، يتمشى مع صغر سن رنا وتجاربها الطفولية المحدودة ، الأمر الذي يناقض الخطوط الرئيسية العامة لرؤى نبيل خلف في تأكيدها الدائم على صحة الصغار، وسلامة رؤيتهم، وعلى إدانته المستمرة لعالم الكبار.

وتعكس ثورة الأطفال على الواقع في قصص وروايات وأشعار نبيل خلف القيمة الوجدانية الأساسية التي تضع كافة هذه الإبداعات في نسق عاطفي واحد، الغضب، ذلك لأن الولد الرسام يدرك تماما أن الفن

والأدب ليسا بديلا عن الحياة، وإن كانا موازيين لها، وأن عشق النهر في كراسة الرسم لا يغني عن الانخراط في الحياة، فلن يقلل من جمال النهر وانسيابه البراق نتوءات الصخور الجرداء وصلابة الأرض وقسوتها . ويدرك الولد الرسام أيضا أن القبح تشويه وافد ودخيل، وليس صفة أصيلة للوجود، فمفهوم الجميل يرتبط من وجهة نظره بسريان القوانين الطبيعية للأشياء، إنه حركة عباد الشمس المتجهة دوما إلى قرص الشمس . ولا ينتج عن توقف هذه القوانين عن العمل إلا الدمامة والقبح. إن التشوه والزيف وافتقاد الأمان تبدأ منذ اللحظة التي تتوقف فيها زهرة عباد الشمس عن حركتها الطبيعية لتدور في عكس اتجاهها الصحيح. والجمال من هذا المنظور ليس مستحيلا، إنه قيمة مثلى تكتمل في صورة المطر في حال الهطول أو الشمس في حال الشروق، أو الشجرة في حال النمو، أو أي صورة كانت في حال الاكتمال. إنها الصورة المثلى التي ينشدها الوعي ويسعى إلى تحقيقها ومعايشتها، وإقامتها على أنقاض العالم المرفوض. ولا يحجم نبيل خلف عن إدانة الولد الرسام الذي يكتفي بالعشق المحبوس في إطار الصورة، في إطار الأدب الذي لا يكتمل بالحركة والفاعلية ولا يهتم بالتأثير والتغيير. ويصر نبيل خلف على أن يكون واحدا من هؤلاء الصغار يتطلع مثلهم إلى مستقبل بعيد يختلف في نقائه عن الحاضر الذي أفسدناه .

رضا الطويل

أعمال نبيل خلف

قائمة ببليوجرافية

(أكتوبر ٢٠٠٢)

مسرحيات وأوبريتات للأطفال

ـ الأم الخشبية : أوبريت للأطفال. — القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٠. — ٩٦ ص.

ـ فراشة الأميرة الحمراء : أوبريت للأطفال. — القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٠. — ١١٨ ص : رسوم.

ـ أرنب وعقرب وفيل : أوبريت للأطفال. — الفاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٢. — ١٦٧ ص : رسوم.

حكايات وروايات للأطفال

ـ عطاء : رواية للأطفال. — القاهرة: دار العروبة، ١٩٩٠. — ٦٣ ص : رسوم.

ـ الأم الخشبية : حكايات للأطفال. — القاهرة: دار العروبة،

١٩٩٣. — ٢١ ص : رسوم.

ـــ سمكة الشمس : حكايات للأطفال. — القاهرة: [مطبعة العروبة]، ١٩٩٣. — ٢٠ ص : رسوم.

ـــ الرجل الغراب في غابة الضباب : رواية للفتيان والفتيات. — القاهرة : دار الشروق، ١٩٩٦. — ٧٤ ص : رسوم.

ـــ زهرة اللوتس والضفدع الثور. — الفاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١. — [١٦] ص : رسوم.

ـــ فراشة الأميرة الحمراء : رواية علمية للفتيان والفتيات. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨. — ٥٤ ص : رسوم.

ـــ ثورة الأطفال: القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢.

مجموعات شعرية للأطفال

ـــ الولد الرسام. — باريس: درويش برس.

ـــ قمع السكر. — القاهرة: دار شرقيات، ١٩٩٨. — ٩٣ ص.

ـــ الأمير الصغير. — باريس: درويش برس، ٢٠٠١. — ٨١ ص.

ـــ بهلوان عشق وحنان : ثنائيات بالعامية المصرية. — القاهرة: روانا للإنتاج الفني، ٢٠٠١. — [٥٦] ص : رسوم.

ـــ الحب زي الجوع : ثنائيات بالعامية المصرية. — القـــاهرة : روانا للإنتاج الفني، ٢٠٠١ ص : رسوم.

ـــ امتى الكون يبرد ويموت : ثنائيـــات بالعاميـــة المصريـــة. — القاهرة : روانا للإنتاج الفني، ٢٠٠١. — [٥٢] ص : رسوم.

ـــ حلم النملة : ثنائيات بالعامية المصرية. — القاهرة : روانـــا للإنتاج الفني، ٢٠٠١. — [٥٢] ص : رسوم.

ـــ ثلاثيات : أشعار بالعامية المصرية. — القاهرة : روانا للإنتاج الفني، ٢٠٠١. — [٥٢] ص : رسوم.

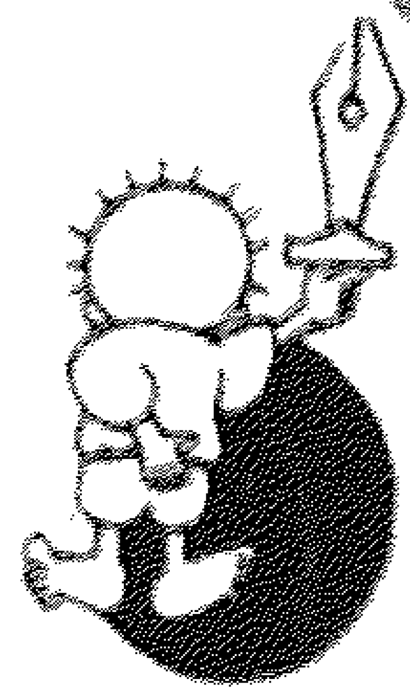
الدراسات

ـــ طفل الأحلام أم طفل الكوابيس : صياغة جديدة لســـيناريو العنف. — القاهرة : دار شرقيات، ٢٠٠٢. — ٨٥ ص.

نبيل خلـف







رسوم

يوسف شاكر

عطاء

عطاء

رواية للأطفال

نبيل خلف

رسوم: يوسف شاكر

الطبعة الأولى ١٩٩٠

دار العروبة للطباعة والنشر، القاهرة

رقم الإيداع: ١٩٩٠/٩٣٩٤

(١)

قالت السحابة "عروسة الثلوج"، المزهـــوة بردائـــها المزركش وبالريش الذي يتدلى من خصرها، لأختها الصغـــرى "عطاء" التي ترتدي فستانا بسيطا وتجدل شعرها بخيوط مـــن الكتان:

ـــ لا تبتعدي كثيراً عن عيني.. فلقد سئمت حماقتك.. إنك تطوفين في الفضاء كثيراً وتقتربين من الشمس وتحملقـــين في قرصها المتوهج، وأخشى أن يمتص الضوء عينيك وتفقـــدي الإبصار.

لم تلتفت لها "عطاء" وظلت تحملق في الفضاء بذهول، ثم قالت لها وهي تنتفض:

ـ أرجوك أن تتوقف يا قمر.. وأن تعود من حيث أتيت.. أنظري.. إنه يلتهم قرص الشمس، وكأنه قطعة جبن!!

قالت لها "عروسة الثلوج":

ـ لقد أصابك الخبل.. إن ما يحدث الآن تعرفينه تماما، وشاهدتيه عندما يمر القمر أمام الشمس، فيحجب قرصها تماما.

تأملت"عطاء" بحسرة الهالةَ اللؤلؤية التي تحيط بقرص الشمس، ثم ارتجفت حينما رأت سحب النار العملاقة التي تقذفها الشمس بعيدة عن سطحها، وانهمرت دموعها مطرا، حينما تشكلت تلك السحب على هيئة شجيرة قصيرة شوكية ذات وريقات ريشية صفراء وأزهار بيضاء، وظلت تتباعد حتى التهمتها سحب النار من جديد.

قالت لها "عروسة الثلج" بدهشة:

ـ لم تبكين؟!

أجابتها "عطاء" بحزن:



ـ لقد تذكرت صديقتي شجرة "الأكاسيا" فهي وحيدة في الصحراء، لا تجد رفيقا يؤنسها، أو يدا تمتد إليها بجرعة ماء. أريد أن أهبط فوقها واحتضنها، وأغمرها بالقبلات، وأرويها بدموعي.. فأنا لم أرها منذ زمن طويل، ومن المؤكد أنها تكاد تموت من العطش.

(٢)

قالت ورقة شجر لأمها شجرة "الأكاسيا":

ــ إن لساني تشقق من العطش يا أمي، وإن استمر الحال كذلك.. سوف أذبل وأموت.

بكت الشجرة وارتجفت فروعها وحاولت أن تمد جذورها تحت الرمال لعدة أمتار بحثا عن الماء، ولكنها اصطدمت بجحور "نمل الرمل" التي كانت تتفيأ من الحر.

التف النمل حول الجذور وقال لشجرة " الأكاسيا":

ــ إنك لا تكفين عن مد جذورك بحثا عن قطرة ماء منذ عدة أيام.. ولا تيأسين من المحاولة .. وإن لم تكفي عن ذاك ؛ فسوف نلتهم جذورك لأنها تثير الفوضى في جحورنا.

انكمشت الجذور وتراجعت حينما سمعت ذلك.

وحاولت "أكاسيا" أن تمدها من جديد في الجهة الأخرى، ولكنها كادت أن تتقصف من فرط استطالتها



وجفافها.

احتضرت ورقة الشجرة التي كانت تستغيث بأمها منذ لحظات وسقطت على الأرض وفتتها الرياح. خرج "يربوع" صغير من جحره (الفأر الصحراوي)، وأخذ يقفز مثل الكنغر؛ حتى استطاع أن يلتقط بعض القطع الصغيرة المتناثرة لورقة الشجرة، واتجه بها إلى جحره ورصها مع بقية الأوراق الجافة فوق فوهته ؛ لتكون طبقة عازلة ضد حرارة الشمس.

ولْوَلَتْ "أكاسيا" على ابنتها التي ماتت عطشا، فأصبحت غطاء لجحر الفأر. ارتجفت جارتها "شجرة الصبار" وارتعشت ساقها الطويلة التي تحمل ابنتها الوحيدة "الزهرة الحمراء" ؛ وقالت لها بصوت متهدج:

ـــ الصبر يا أختاه.. فقد تأتِ صديقتنا السحابة "عطاء" وتحتضن أوراقنا وجذورنا بيدها التي تذوب مطرا.

(٣)

مدت "عروسة الثلوج" ذراعيها الطويلتين، وأمسكت أختها الصغرى "عطاء" من خصرها والتي كانت تطوف في قبة السماء المظلمة، وقالت لها مهددة:

ـ إن لم تكفي عن الطواف سوف ألقي بك في الفضاء العريض ؛ حتى يبتلعك النجم "ألفا" العجوز، ويشوى جسدك الرقيق في ناره المستعرة.

صرخت "عطاء" مستنجدة بأمها "خصلة الشعر" والتي كانت تطوف فوقهما بعباءتها الرمادية والتي تتخللها خطوط زرقاء ؛ فأسرعت نحوهما وقالت لابنتها الكبرى "عروسة الثلوج" لائمة:

ـ إنك قاسية.. متحجرة القلب.. لقد مزقت فستان أختك الصغيرة، وأحدثت جروحا في جسدها النحيل.. ولقد حذرتك من قبل ألا تمسيها بسوء.

قالت لها "عروسة الثلوج" وهي تبكي:

ـ إنك تحبينها أكثر مني.. ومنذ أن ولدت، وأنت تفضلينها عني.. وتشتري لها الثياب الجديدة واللعب وحينما طلبت منك حصانا خشبيا ذات يوم كي ألهو به، قلت لي إنني قد كبرت على ذلك.

قالت لها الأم بصوت متلعثم:

ـ أنت ابنتي الكبرى.. ولقد أردت أن أحملك المسئولية كي تخففي العبء عني، ولقد ولدت "عطا" بعد رحيل أبيك.. فهل تشعرين بما أشعر به نحو ابنة لم تر أباها !

قالت لها "عروسة الثلوج" بغضب:

ـ أنا ما زلت طفلة يا أماه، فلم تحمليني أكثر من طاقتي.. ولا أخفي عليك أن إحساسي بالظلم يتزايد يوم بعد يوم.. ألا تذكرين حينما رحلت عنا في ليلة مظلمة كي تنهمري مطرا على حقل لفلاح عجوز كان يبكي على محصوله الذي كاد يجف، وحينما عدت إلينا بعد غيبة طويلة وكنا نكاد نجن اشتياقا إليك ؛ اتجهت بلهفة إلى أختي "عطاء".. واحتضنتها وقبلتها في جبهتها ووجنتها، ولم تشعري بي وأنا أطوف حولك وأتمسح في ذيل فستانك وأبكي.. وحين

انتبهت لوجودي، ضممتني إلى صدرك ببرود، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أعطيت "عطاء" المنظار الإلكتروني الذي أهداه لك عالم الفلك، ولم تعطني شيئا ؛ فانسحبت بهدوء، وظللت أطوف في الفضاء باكية، لساعات متواصلة، وأحسست أنني أتعس مخلوقة في هذا الكون!!

جنت الأم حينما سمعت ذلك، وضمت ابنتها بقوة وغمرت جسدها بالقبلات والدموع، وقالت لها:

ـــ لا أعرف ماذا أقول لك.. فأنا أحس بالخزي، ولقد أخطأت في حقك خطأ جسيما من دون أن أدري، ولا أستطيع أن أدافع عن نفسي.. ولا تكفي كل لغات العالم أن تفسر لك مدى حزني.

انفجرت "خصلة الشعر" في بكاء مرير، ولم تستطع "عروسة الثلوج" أن تتمالك نفسها ؛ فارتمت في ذراعيها وقالت لها بصوت يختنق بالبكاء:

ـــ لا تبكي يا أماه.. ويكفي ما سمعته منك، ولقد نسيت كل ما حدث حينما أحسست دفء ذراعيك.



(٤)

حملقت "عروسة الثلوج" في النجم "ألفا" بقلق، وحين رأته وهو يتمطى ويصدر بريقا يكاد يخطف الأبصار ؛ قالت بفزع لأمها:

ــ أين ذهبت أختي "عطاء"؟

فتشت الأم بأعينها عن ابنتها التي لا تكف عن الطواف في الفضاء، وكادت أن تصاب بالدوار ؛ حينما رأت ألسنة النيران تخرج من قلب النجم "ألفا" العجوز، ويرتفع بعضها عاليا، ويعود البعض مرة أخرى على سطحه المشتعل.

قالت "عروسة الثلوج" لأمها القلقة:

ــ لقد عادت أختي يا أماه.

احتضنت "خصلة الشعر" ابنتها، وهي تنتفض فزعا عليهما ؛ حينما تشكلت ألسنة النيران على هيئة الديناصور والأخطبوط والتنين، وزأرت في الفضاء زئيرا مخيفا ؛ ثم قالت

لابنتيها:

ـــ لا تبرحا مكانكما ولو لخطوة واحدة ؛ حتى تهـــدأ ثورة هذا النجم الشرير.

أخرجت "عطاء" من جيبها منظارهـــا الإلكـــتروني، وحملقت في قلب النجم وقالت لأمها:

ـــ إن قلب النجم "ألفا" أخضر يا أماه!!

طلبت "عروسة الثلوج" المنظار من أختها، فتباطأت في إعطائه لها.

قالت لها أمها بغضب:

ـــ أعطه لها.

نظرت "عروسة الثلوج" في المنظار، وقالت لأمها:

ـــ إن قلب النجم "ألفا" يمتلئ ، يا أمـــي، بالأشـــجار الخضراء التي يبدو أنها تورق وتزهر.

قالت "عطاء" لها:

ـــ نعم يا أختاه.. إنها غابات من الأشجار العملاقـــة التي لا تعرف الذبول.. كما أتمنى أن أحمل صديقتي الشـــجرة "أكاسيا" من الصحراء الجرداء إلى هذه الجنة الخضراء.

قالت لهما "خصلة الشعر" بغضب:

ــ لا تستغرقا في أحلامكما المجنونة. إن النجم "ألفا" لا قلب له، وهذه الخطوط الخضراء ما هي إلا الجحيم بعينـــــه ؛ فهي فرن تنفجر فيه آلاف القنابل الذرية.

ثم توجهت بحديثها لابنتها "عطاء":

ــ وإن أردت أن تقدمي عونا لصديقتك العطشـــى في الصحراء ؛ فأنا لا أستطيع أن أمنعك برغم خوفي عليك.

قالت لها " عروسة الثلوج" بفزع:

ــ كيف تتركينها ترحل يا أماه.. فقد لا نراها مـــــرة أخرى؟

قالت لها " خصلة الشعر" :

ــ لقد خُلقنا يا ابنتي لكي ننـــزف مطراً.. فهذا قدرنا ومصرينا المحتوم.. والذنب ذنبي وذنب أبيك الذي رحل لأننـــا من شدة حرصنا عليك لم نجعلك تخوضين تجربة المطر.. فلقـــد كنت ابنتنا البكر، وكنا صغاراً لا نفهم من حقائق الحيـــاة إلا قليلاً.

(٥)

ظلت "عطاء" تتأمل الأرض التي تتأرجح وهي تـــدور حول الشمس، وكأنها تركب أرجوحة تجذبها يد الشمس مــن ناحية ويد القمر من الناحية الأخرى.

أحست بالدوار – وهي تبحث عن "أكاســـيا" مــن خلال منظارها الإلكتروني – من جراء الحركة المخروطية الـتي تنجم عن تأرجح الأرض. اقتربت منها صديقتـــها "البلـــورة الصافية" والتي كانت ترتدي فستاناً لبنياً ونظارة زرقاء.

اتكأت على صدرها "عطاء" وأجهشـــت بالبكـــاء، وقالت لها:

ــ كيف لا تجد صديقتي "أكاسيا" قطرة ماء واحـــدة ترويها والأرض كرة مفلطحة يغمر الماء معظم أنحائها؟

ربتت "البلورة الصافية" على كتفها وقالت:

ــ لا تبكي يا أختاه .. ولنفكر سوياً كيف ننقذها.



قالت لها "عطاء" وهي تمسح دموعها بمنديلها القطني:

ـــ إن كسوف الشمس جعل الظلام يســـود الأرض، فكيف أستطيع أن أتبين مكانها؟

قالت لها "البلورة الصافية" :

ـــ الشمس نجم، وكل النجوم شموس. فلنلجأ إلى شمس أخرى تضيء لنا الكون.

نظرت "عطاء" في منظارها وقالت:

ـــ لمن ألجأ يا صديقتي.. إلى النجوم الزرقاء أم الحمراء، أم البيضاء التي تشوبها الصفرة؟ كمـــا أن الشـــمس أقـــرب النجوم للأرض.

سمعت الصديقتان ضجة صوتية مخيفة تشـــبه الرعـــد، وشاهدنا بريق ضوء شديد يبهر العيون، وحينما أفاقتـــا مـــن الصدمة وجدتا الغلاف الذي يحمـــي الأرض مـــن غضـــب الشموس، يفتت نيزكاً كبيراً، وتتناثر في الفضـــاء أشـــلاؤه المعدنية ؛ بعضها بحجم حبة الرمل والبعض الآخر بحجم كـــرة القدم.

وأضاءت السماء والأرض عاصفة من الشهب، ولم تبق بقعة في السماء بدونها. صرخت "عطاء" حينما لمحـــت كـــرة

معدنية متوهجة تندفع بالقرب من حجر الفأر الصحـــراوي، وأحدثت حفرة عميقة ؛ وأشعلت قطع النباتات الجافة الـــتي تغطي فوهة الجحر. خرج الفأر مذعوراً من جحره وتحســـس بلسانه فراءه الحريري الملمس والذي سقط بعضه مشتعلاً.

اقترب منه قوقع الصحراء الذي لا ينشـــط إلا عنـــد سقوط الأمطار وقال له مواسياً:

ـــ سوف أحاول الذهاب إلى الينبوع، كي أحضر مـــا يرطب جسدك.

قال له الفأر ساخراً:

ـــ لقد ظللت ساكناً لمدة عام داخل صدفتك خشـــية الحر.. ولقد خرجت الآن لكي تقدم لي حلاً غبيـــاً.. فـــإنك حينما تصل إلى الينبوع ببطئك المعهود أكون أنا قـــد مـــت وشبعت موتاً. ألا ترى أيها الغبي أمـــامك مباشـــرة شـــجرة "الأكاسيا" التي سوف تموت بين لحظة وأخرى.. فلتتجه لهـــا فوراً قبل أن تموت، وتمزق أوراقها وساقها وتأتي لي ببعض الماء الذي تختزنه ؛ كي أرطب جسدي الملتهب، وأروي ظمـــأي.. ويمكنك أيضاً أن تشرب القليل من مائها ولا تسرف ؛ حتى لا تؤذي معدتك.

قال له القوقع باستياء:

ـــ لو فعلت ذلك فسوف تموت فوراً.

أجابه الفأر الصحراوي ببرود:

ـــ أعرف ذلك ؛ فأنا أقصد أن أريحها من عذاب الموت.

قال له القوقع غاضباً، وهو ينثر الرمال في وجهه:

ـــ لن أفعل ذلك ما دمت حياً.. فقد تأتي صديقتها السحابة "عطاء" تسقيها وتسقينا، وتنقذ حياتها وحياتنا.

تقدم منه الفأر مغتاظاً، وحاول أن يعضه، لكنه دخل صدفته مرة أخرى وهو يقول:

ـــ إنك فأر أناني، لا تفكر إلا في نفسك.


(٦)

دحرجت الرياح الكرة النيزكية المتوهجة ؛ فاشتعلت النيران في الأوراق الجافة المتناثرة على الرمال والقريبة من شجرة "الأكاسيا". أحرق الوهج بعض الشعيرات الممتلئة بالهواء والتي تغطي الأوراق والسيقان وتحميها من حرارة الشمس.

تصببت "أكاسيا" عرقا ولفح الوهج بشرها الجلدية السميكة وحاولت أن تسد مسامها التي اتسعت ببقايا الصمغ الذي يتكون عند قواعد الأوراق دون جدوى، وظلت تفقد مزيدا من الماء الذي تختزنه في أوراقها.

أصدرت "أكاسيا" أنينا خافتا، وارتجفت أوراقها الريشية ارتجافة خفيفة، وقالت لشجرة الصبار:

ــ سوف أموت – يا أختاه – أنا وأسرتي من الأوراق والسيقان والجذور، فلم يتبق من عمرنا إلا القليل، ولن أعيش حتى أرى ذريتي من الأزهار البيضاء.



قالت شجرة الصبار لابنتها الوحيدة "الزهرة الحمراء:

ــ لا يمكنني أن أرى رفيقة عمري تموت دون أن أفعل شيئا، وأريد أن أمد جذوري كي تعانق جذورها وتمنحها بعض الماء الممزوج بالسكر.. لكنني أخشى عليك من الذبول .. فأنا لم أرزق بك إلا بعد خمسين عاماً من الحرمان من الذرية المزهرة.

قالت لها "الزهرة الحمراء" بعينين دامعتين:

ــ لك ما تشائين يا أماه.. فأنا لن أستطيع أن أحس بطعم الحياة، حينما أرى العمة "أكاسيا" تموت وأضن عليها ببعض الماء.

مدت شجرة الصبار أحد جذورها وهي تئن من الألم.

قال لها "الجذر" الذي كاد أن ينكسر:

ــ أحس أن ضلوعي تكاد أن تتحطم – يا أماه – فلنتوقف عند ذلك الحد.. فليس من الحكمة أن نموت جميعاً دون جدوى.

صرخت شجرة "الصبار " قائلة:


ــ أية حكمة تتحدث عنها؟ إنها حكمة الجبناء. فلتكن

رجلاً، ولتستمر في زحفك دون إبطاء.

دفن "الجذر" رأسه في الرمل خجلا، واستمر في زحفه نحو "أكاسيا"، التي كانت تحاول في نفس الوقت أن تمد نحوه أحد جذورها ؛ كي توفر عليه بعض العناء. مد يديه التي برزت منها عروقه، وحاول أن يتشبث بجذر "أكاسيا" الممتد نحوه والذي تهللت أساريره فرحاً، حينما لمح بعض قطرات الماء تتساقط أمامه، مد لسانه المتشقق من العطش كي يروي ظمأه، لكنه أصيب بالإحباط ؛ حينما رأى الرمال تمتص قطرات الماء بسرعة البرق. وانكمش من الرعب ؛ حينما شاهد أسراب "نمل الرمل" تزحف نحو جذر "الصبار" الذي تحطمت ضلوعه وتحشرج صوته وهو يقول لأمه:

ـــ ابعدي النمل عن جسدي – يا أماه – فإن وخزه يؤلمني ..

ثم مات، وسحبته جيوش النمل لجحورها، وأضافته إلى مخزونها من الغذاء.



(٧)

اختفت عاصفة الشهب ، وظلت "عطاء" تطــوف في القضاء حيرى ؛ لا تدري ماذا تفعل ، بعد أن عاد الظلام مــن جديد يلف كل شيء . نامت أختها "عروسة الثلوج" علــى صدر أمها، واستغرقت السحابات الأخرى الــتي حولهــا في النوم، وأصدرت غطيطاً مزعجا جعلها تسد أذنيها. اتكــأت "البلورة الصافية" على صدرها وغالبها النعاس.

ربتت "عطاء" على خدها ؛ كي توقظها، وقالت لهــا وهي تفرك عينيها:

ـــ أرجوك ألا تنامي.. حتى لا يهزمني النعاس ؛ فكيف أنام بدون أن أرى "أكاسيا"؟!

قالت لها "البلورة الصافية" وهي تتمطى:

ـــ لابد من أن ننال قسطا من الراحة ؛ حتى نســتطيع أن نواصل بحثنا عن صديقتنا بعد أن تنهي الشمس كسوفها.

قالت لها "عطاء" بغضب:

ـــ لن أعرف طعم الراحة إلا إذا عثرت عليها.

ثم تطلعت من خلال منظارها الإلكتروني إلى الفضـــــاء الكوني، وأحست ببريق من الأمل حينما رأت ثلاثة كواكـــب يشكلون مثلثا لامعا يشع بعض الضياء الخافت ؛ لكنه لم يكـــن كافيا لإضاءة الأرض.

أخرجت منديلها القطني كي تجفف العدسة الزجاجيـــة للمنظار والتي بللتها دموعها.

اقتربت منها أختها "عروسة الثلوج" التي اســـــتيقظت منذ لحظات ؛ إذ داهمها كابوس رأت فيه نجماً شريراً يبتلـــــع "عطاء" حينما جرؤت على الاقتراب من مجاله المغناطيســـــي. قالت لها "عطاء" بدهشة:

- هل ينتابك الأرق يا أختاه ؟

أجابتها بلهفة :

ـــ لقد أتيت إليك بمعطف ثقيل يقيك شر البرد.

أجابتها "عطاء" ضاحكت ؛وهي ترتديه:

ـــ أريد معطفا ضد المطر .

جلجلت ضحكات البنات الثلاث في الفضاء العريض، فتأففت السحابات النائمة، وتقلبت في مضاجعها. فتحت "خصلة الشعر" عيونها وتأملت ابنتها "عروسة الثلوج" وهي تتأبط ذراع أختها الصغرى، ويتبادلان حديثاً مرحاً لم تعهده من قبل ؛ فابتسمت لهما، ثم نامت في سلام .

نظرت "عروسة الثلوج" في المنظار، ثم شهقت حينما رأت نجمة فوق الكواكب الثلاثة اللامعة ، تتمدد وتكبر ، حتى فاق حجمها حجم الشمس بمئات المرات، ثم اصطبغت باللون الأحمر ، وأصدرت بريقا أرجوانيا ، انتشر في الفضاء الكوني بأسره وامتد لكوكب الأرض .

قالت "البلورة الصافية" وهي تنظر للنجمة الحمراء العملاقة بأسى :

ـ إن هذه النجمة تنفجر .. وبعد فترة قصيرة سوف تحتضر .

قالت لها "عروسة الثلوج " بحزن :

ـ كيف تموت ، وهو تشع هذا الضياء الجميل ؟!

التقطت "عطاء" المنظار من أختها بلهفة، وتأملت النجمة المسكينة وهي تحاول أن تقذف أبناءها "القناديل

الفضية" يمنة ويسرة، ثم قالت بدهشة :

ــ لقد أصابها مس من الجنون.. إنها تلقى بأبنائـــها في الفضاء .

قالت لها "البلورة الصافية" وهي تمسح دموعها :

ــ إنها تحاول إنقاذهم من الموت .

صرخت "عروسة الثلوج" في وجهها قائلة :

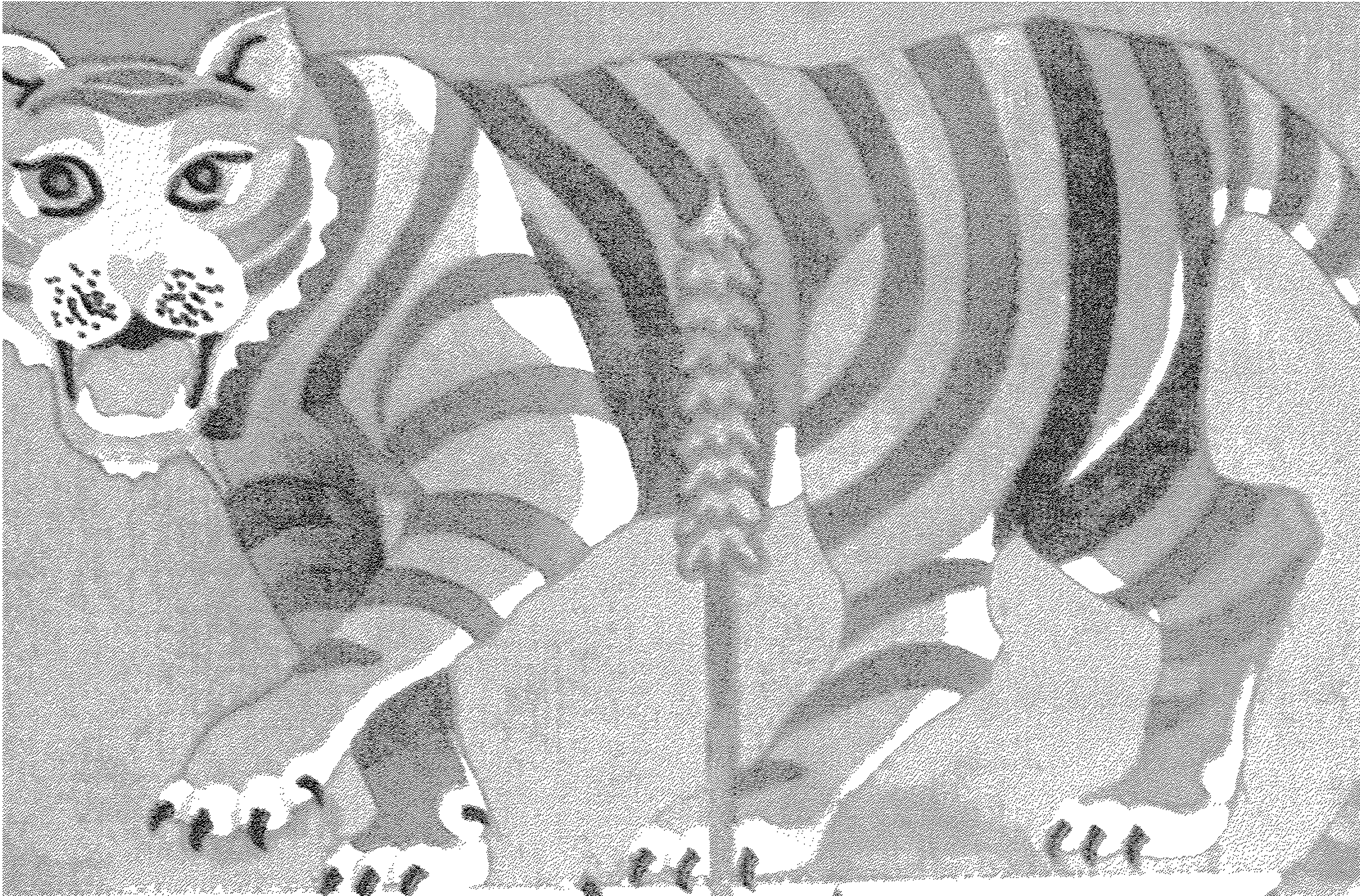
ــ إنها أم فظة القلب.. تقتل أبناءها بيدهـــا، فكيـــف تقولين ذلك؟!

قالت لهما "البلورة الصافية" وهي ترتجف :

ــ إنها تبعدهم عن المجال المدمر للنجم "ألفا" الشـــرير وبعد أن بدأ في تدميرها, لأنه يغار منها، منذ أن قررت أن تنثر أبناءها "القناديل الفضية" في الفضاء ليلاً ونهاراً، كلما دخلـت الشمس مرحلة الكسوف حـــتى لا يســـود الظـــلام الأرض والسماء .

اغرورقت عينا "عروسة الثلوج" بـــالدموع، وقـــالت لهما:

ــ أريد أن أخوض معكما تجربة المطر.



حملقت "عطاء" في منظارها فرأت الوريقات الرئيسية الصغيرة لشجرة "الأكاسيا" التي تشربت باللون الأحمر تنبض وترتجف وكأنها قطعة من قلب النجمة المحتضرة، التي ما زالت تنـزف في الفضاء وتتلاشى أشلاؤها في الكون.

انقبض صدرها وسرت البرودة في جسدها، فاحتضنت أختها وصديقاتها وانفجرن في بكاء مرير.

(٨)

أطل "قوقع الصحراء" برأسه من صدفتـــه، وأصيـــب بدهشة بالغة ؛ حينما رأى الكثبـــان الرمليـــة، والأحجـــار الصغيرة، والحصي، والعقارب، والعناكب، والسحالي، تتلـــون باللون الأحمر، ولم يصدق عينيه ؛ حينما رأى "قنديلا فضيـــاً" صغيرا يسقط من السماء، وينفض الرماد الذي تكدس علـــى جسده، وينظر حوله بذهول، ثم يستغرق في النوم.

ثم جن جنونه حينما رأى الرقبة الحليبية البيضاء للنمـــو الصحراوي "الوشق" تتفجر باللون الأحمر. وحينما قرر القوقع أن يظل في صدفته مدة أعوام متصلة حتى يفهم ما يجري حوله من ظواهر غير مألوفة ؛ اتجه النمر الصحراوي الذي تهـــدل لسانه من العطش نحو الضفدعة المقرنة "سحلية الصحـــراء" ؛ كي يفترسها ويروي ظمأه بدمائها.

انتصبت الأشواك التي تغطي جسدها كي تدافع عـــن نفسها، وحينما اقترب منها النمر عبرت عن انـــزعاجها بـــأن

أطلقت من عينيها نافورة من الدم لطخت جسده ؛ فتراجع إلى الوراء فزعاً، وتناثرت بقع الدماء على وجه القوقع فدخل صدفته وقرر ألا يخرج منها حتى الموت.

ظل "النمر الصحراوي" يلعق بقع الدم المتناثرة على فرائه بغيظ، وسال لعابه حينما رأى أوراق الصبار السميكة والمنتفخة نتيجة امتلائها بالماء. وحينما مشى نحوها انبثق من الرمل أحد جذورها والتف حول قدميه ؛ فكاد أن يقع.

مزق النمر الجذر بوحشية، ثم امتص ماءه قبل أن تشربه الرمال، واتجه غاضباً إلى شجرة "الصبار" التي تكورت كالقنفذ، وأبرزت أشواكها كي تذود عن نفسها. ازداد هياجه وظل يطوف حولها كالمجنون ؛ كي يتحين أية فرصة للانقضاض عليها.

استيقظ "القنديل الفضي" من نومه، ومشى نحو "النمر الصحراوي" ببطء ؛ وهو ينظر بأسى لشجرة "الصبار" التي تبكي على جذرها الذي فقد حياته دفاعاً عنها.

أحس النمر بالوهج الذي ينبعث من جسد "القنديل الفضي" ويكاد أن يحرق ذيله، فالتفت نحوه غاضباً إلا أنه لاذ بالفرار حينما رأى خيوط الدخان تتصاعد من فرائه الرقيق، وأخذ يتقلب على الرمال وهو يصرخ من الألم.

(٩)

قالت "شجرة الصبار" "للقنديل الفضي" بدهشة:

ــ كيف يكون لقنديل من الفضة مثل هذه المشاعر؟!

قال لها "القنديل" وهو يحملق في السماء بحزن:


ــ لقد احترقت أمي "نجمة الصباح والمساء" أمام عيني، ولم أستطع أن أفعل شيئاً..

قالت له "شجرة الصبار" بهلع:

ــ من فعل بها ذلك؟

قال لها "القنديل" باكياً:

ــ إنه النجم "ألفا" العجوز .. فلقد تمردت أمي عليه ورفضت أن تدور حوله طوال العمر كخادم ذليل. وحينما تجولت في الكون كي تتعرف على جاراتها من الكواكب والنجوم ؛ أحس أنها سوف تحثهم أيضاً على التمرد ضده فاشتعل قلبه غيظاً وأطلق عليها ألسنته النارية ؛ فانتفشت كحبة الذرة التي توضع في الفرن المتوهج، لكنها – قبل أن



تموت – استطاعت أن تقذفني أنا وإخوتي بعيداً عن مجاله المدمر فسقطت على كوكبكم، وحينما رأيت هذا الكائن المتوحش يحاول أن يقضي على حياتك ؛ تذكرت أمي التي كانت نجمة جميلة ولامعة وماتت في ريعان شبابها ؛ حيث لم يتجاوز عمرها مئتي مليون سنة.

شهقت "الصبار" وقالت له:

ــ شابة عمرها مئتا مليون سنة؟!

قال لها "القنديل" مستدركاً:

ــ ليس من السهل على أذهانكم – في كوكب الأرض – تصور أعمار الكواكب والنجوم، فالشمس – مثلا – ما زالت شابة لم يتجاوز عمرها خمسة آلاف مليون سنة.

لم يستطع "قوقع الصحراء" الذي كان منصتاً لهذا الحديث الغريب أن يتحمل أكثر من ذلك ؛ فأخذ يضرب رأسه في صدفته حتى سالت دماؤه وخرج يهذي كالمجنون، ولم ير – لسوء حظه – "النمر الصحراوي" الذي كان رابضا على أحد الكثبان الرملية ؛ فقبض عليه بعضلاته القوية والتهمه في لمح البصر.

(١٠)

بدأ "الكركي الأبيض" هجرته السنوية من بلاد الثلج إلى بلاد الدفء مهتدياً بالشمس والنجوم. وحينما أحس أنه قد بدأ يضل طريقه، أطلق نداءه الذي يشبه صوت البوق ؛ كي يستدعي الأسراب التي تتبعه، ثم حلق في السماء كي يبحث عن صديقته الحميمة "نجمة الصباح والمساء" ؛ فلم يعثر لها على أثر.

حاول أن يتذكر - دون جدوى - الطريق المختصر الذي تعلمه منها في العام الماضي حينما خشيت عليه من الطريق التقليدي المحفوف بالمخاطر. هلل فرحاً حينما رأى الجبلين الصغيرين واللذين يشبهان "الشمعدان" وعرف أنه يسير في طريقه الصحيح. إلا أنه حينما لمح صديقتيه شجرة "الأكاسيا" و "الصبار" تحيط بهما الرمال الحمراء ؛ أصابه الارتباك وأحس أنه قد فقد ذاكرته.

لمحه "القنديل الفضي" بين الجبلين فقال بفرح للشجرتين:



ـ إنه "الكركي الأبيض" صديق أمي "نجمة الصباح والمساء"، وفي العام الماضي أنقذته من موت محقق حينما ضل طريقه في الظلام الحالك، حيث كان القمر محاقاً، فنشرتني في الفضاء أنا وإخوتي " القناديل الفضية" ، وأضاءت له الأرض والسماء ؛ فاستكمل رحلته في أمان.. ومنذ تلك اللحظة أحبتها الكواكب والنجوم، وكافة الكائنات الفضائية، ورقصت حولها حتى الصباح فنهشت الغيرة قلب النجم "ألفا" العجوز وأضمر لها الشر.

صرخ "القنديل الفضي" حينما رأى "النمر الصحراوي" والذي كان مختبئاً فوق كثب رملي ؛ ينهض ببطء ، ويتجه نحو الكراكي التي هبطت بين الجبلين تلتقط أنفاسها.

قالت له "أكاسيا" وهي ترتجف:

ـ أرجوك أن تمنعه.

قال لها القنديل متردداً:

ـ أخشى أن تغوص أقدامي في الرمال ؛ فأنا لم أتعود أن أسير على مثل هذه التربة.

لكنه حينما رأى النمر ينقض بشراسة على أسراب

الكراكي التي طار بعضها وعجز البعض الآخر عن الحركة من شدة الرعب ووقع المفاجأة ؛ تدحرج في الرمل نحوه، وأخذ يئن من الأحجار الصغيرة المدببة التي كانت تخدش جسده، ثم نظر بحدة للنمر الذي هم بافتراس كركي صغير. إلا أنه التقط أنفاسه حينما تصدى للنمر "الكركي الأبيض" قائد السرب بشجاعة، وأخذ يطير فوقه ويحاول أن يدميه بمنقاره ؛ وهو يصدر نداءه النفيري كي تهرب الكراكي وتنجو من قبضته.

كاد "النمر الصحراوي" أن يفتك "بالكركي الأبيض"، فطارت الكراكي فوقه، وهي تصدر نفيرا مخيفا، وانقضت عليه بمناقيرها غير مبالية بمخالبه وعضلاته القوية، فترك قائدهم في اللحظة المناسبة، لكنه استطاع أن ينال من الكركي الصغير الذي كان في مقدمة الكراكي التي تهاجمه ؛ فأمسكه من جناحيه والتهمه بوحشية ناظراً للكراكي التي تطير فوقه بتحفز وغيظ.

بكى "القنديل الفضي" حينما رأى الريش المخضب بالدم يتناثر حوله ؛ فاندفع نحو النمر الهائج الذي تراجع مذعوراً من عينيه الحمراوين ؛ حتى أصبح محصوراً بين الجبلين الصغيرين اللذين انحنيا فوقه وأطبقا عليه واعتصرا جسده، ثم اعتدلت قامتهما من جديد.

(١١)

توقف قلب "نجمة الصباح والمساء" بعد أن تكدست جبال الرماد فوقه، وتسللت البرودة إلى جسدها، وخفت لمعانها وأصبح لونها مثل لون اللبن المتخثر.

اغتاظ النجم "ألفا" العجوز حينما رآها وهي تموت والابتسامة لا تفارق شفتيها، وقالت له:

ـ الموت ليس نهايتي يا "ألفا" .. ومن كانت له ذرية صالحة فهو لا يموت.. ويكفي أنني استطعت أن أنقذ أبنائي القناديل الفضية من قبضتك المدمرة، وهم ينشرون الآن نورهم في كل مكان، ولهم في كل بقعة صديق.

طعنت هذه الكلمات النجم "ألفا" العجوز في قلبه لأن زوجته "نجمة الضباب" كانت عاقراً، وكانت الكائن الوحيد في الفضاء الذي يعشق الظلام.. فأخذ يطلق ألسنته النارية وغيومه المحرقة بشكل عشوائي ؛ حتى يشفي غليله ؛ دون جدوى.

بكت "عطاء" على النجمة التي احتضرت، وقالت

لصديقتها "البلورة الصافية":

ـــ عدنا مرة أخرى إلى الظلام الحالك.

قالت لها صديقتها وهي تتطلع إلى السماء:

ـــ لقد مر القمر من أمام وجه الشمس وبدأت تنتهي كسوفها.

قالت لهما "عروسة الثلوج":

ـــ يبقى أمامنا مشكلة أخرى، فالهواء ساخن، فكيف يمكننا أن ننهمر مطراً؟

قالت لها "عطاء" بصوت عذب يشبه صوت الكمان:

ـــ سوف أضمك إلى صدري، فقد تتسرب البرودة في جسدينا وننزف مطراً.

ارتجفت "عروسة الثلوج" حينما سمعت هذه الكلمات، وأحست بالخوف من تجربة المطر التي لم تمر بها من قبل، لكنها حينما فكرت في التراجع ؛ تذكرت الكابوس الذي مرت به منذ فترة قصيرة، وخشيت على مصير أختها الصغيرة، فاحتضنتها وأجهشت في البكاء.

قالت لها "عطاء" وهي تقبل وجنتيها:



ـــ هل تخشين الموت يا أختي!

أجابتها بعينين دامعتين وصوت خفيض:

ـــ ومَنْ مِن الكائنات حولنا لا يخشى الموت؟!

قالت لها "عطاء" بحسم:

ـــ لك الخيار يا أختاه.. فلا تفعلي ذلك من أجلي فقط، فأنا اخترت مصيري بإرادتي وليس من أجل أحد.

مصت "عروسة الثلوج" أصابعها خجلاً وقالت:

ـــ لقد اخترت أن أكون معك، ولن أتراجع مطلقاً..

وحين همّا بتوديع أمهما قبل الرحيل ؛ اكتشفا أنها على بعد خطوات قليلة منهما ؛ فجريا نحو يديها الممتدة لهما ؛ فاحتضنتهما وقالت لهما:

ـــ في البداية أردت أن تخوض "عروسة الثلوج" تجربتها الأولى في المطر معك يا "عطاء" .. وبدوني، لكنني الآن قررت أن أرحل معكما ؛ فما شهدته الآن جعلني أعود شابة من جديد.

ضمت "خصلة الشعر" ابنتيها وصديقتهما "البلورة الصافية" بقوة، وصدر عن التحام أجسادهن ومضات متتالية

تسمى برقاً، وتمدد الهواء المجاور لأجسادهن المتوهجة، وتقلص ثم تمدد وتقلص، وأحدثت تلك العملية أمواجا صوتية عظيمة هي الرعد.

وحين بدأن في الانصهار شاهدن قطرات المطر التي تذوب منهن تتلقفها الأيدي الساخنة "للضباب" وتتبخر في الحال.

وجلجلت في الفضاء القهقهة الساخرة "لنجمة الضباب" الزوجة العاقر للنجم "ألفا" العجوز وقالت لهن:

ـ إن "الضباب" صديقي منذ الطفولة، ولن يسمح بقطرة مطر واحدة أن تمر عبر حزامه الساخن الطويل دون أن تتبخر.

قالت "عطاء" وهي تبكي:

ـ ستضيع حياتنا هباء - يا أماه !! لقد تحالفت "نجمة الضباب" مع صديقها الذي لا يرحم؛ وسوف يبتلعنا دون رحمة، كما ابتلع الكثير من أحبائنا من قبل ؛ كي تتضخم يداه، ويحجب الرؤية عن عيون البشر وكافة الكائنات الحية.

(١٢)

نظرت "أكاسيا" بحسرة للفئران والسحالي والعقارب والعناكب التي خرجت من جحورها وكأنها جنت من الحر، وارتاعت حينما رأت اللسان المتهدل المشقوق لسحلية تشبه الثعبان تقترب منها ببطء. وحينما لفحت الشمس وجوههم وزادت من عطشهم وجنونهم ؛ اتجهوا نحوها وهم يصدرون خليطا غريباً من الأصوات المبهمة. أيقنت أن الموت سوف يأتي بين لحظة وأخرى، فاستسلمت لمصيرها وسرى في عروقها اليأس.

أخذت الكراكي تطوف حولها وتحثها على المقاومة، وتهدد هذه الحيوانات المجنونة بمناقيرها ؛ فتراجعت ببطء وتكاسل ، ثم عادت من جديد وهي تحمل رائحة الموت.

صعد "الكركي الأبيض" على أحد الفروع فأصدر أنيناً خافتا وسمع صوت طقطقته ؛ فانتقل إلى فرع آخر وأصدر نداءه النفيري وأمر كل الكراكي أن تفعل مثله.

انطلق النفير في رحاب الصحراء وحملته الريح إلى الجبال التي أمرت أحجارها أن تضخم الصدى ثم تنحني ليمو الصوت خلفها، وإلى غابات "البامبو" التي تحولت عيدانها إلى آلاف النايات التي تردد استغاثة الكراكي، وإلى البحار حيث صعدت الأسماك على سطحها كي تحذر الأسراب التي تمر فوقها، وإلى المدن حيث فتح الناس المذياع وحركوا المؤشر من محطة إلى أخرى فلم يجدوا إلا النفير الحزين. لبت الكراكي في شتى أنحاء الأرض دعوة "الكركي الأبيض" وامتلأت السماء بآلاف الكراكي البيضاء والرمادية والسوداء ذات التاج الأصفر.

ذعرت الفئران والعقارب والسحالي والعناكب وعادت إلى جحورها. اتجهت الكراكي نحو "أكاسيا" وقبلتها قبلة الحياة، وبللت فروعها وأوراقها بلعابها، وكررت نفس الفعل مع "الصبار". انتعشت الشجرتان قليلاً إلا أنهما عادتا من جديد إلى حالة الذبول والاصفرار. أخذ "القنديل الفضي" يطوف حولهما وهو يبكي بكاء مراً، ثم قال للكراكي:

ــ لا بديل أمامكم إلا الصعود إلى السماء وجلب السحابة "عطاء".

قال له كركي أسود عجوز:



ـ لا شك أنك مجنون.. فالنسور والصقور لا تقـــوى على الصعود إلى هذا الارتفاع الشاهق.

قال الكركي الرمادي بهدوء يبعث على الملل:

ـ فلنذهب إلى الغابة، ونرجو صديقتنا الغوريـــلا أن تجدل لنا دلواً من ألياف الشجر، ثم نحمل الدلـــو لصديقتنـــا النساجة العجوز، ونطلب إليها أن تغزل لنا على نولها قماشـــاً لا يتسرب منه الماء، ونبطن به الدلو ثم نملأه بالمـــاء ونســـقي الشجرتين ثم..

صرخ "الكركي الأبيض" في وجهه قائلاً:

ـ لو تركتك تستمر في ثرثرتك ولغـــوك الفـــارغ؛ فسوف تموت الشجرتان، قبل أن تنهي حديثك، ولقد قـــررت أن نصعد إلى السماء، ومن لا يستطيع الاحتمال فليبق هنـــا لحراسة الشجرتين.

(١٣)

أحدث رفيف أجنحة الكراكي الصاعدة إلى السماء صوتا يشبه عزف آلاف من الآلات النحاسية.


منعت الريح دوامة هوائية كادت أن تعترض طريقهم وتعرضهم للهلاك، وقالت لها:

ـ دعيهم يمرون بسلام، فإنهم صاعدون إلى صديقتنا.

وحينما اقتربت الكراكي من "الضباب" شاهدوا آلافاً من القناديل الفضية تشكل عدداً من الدوائر المتداخلة وتنشر في الفضاء ضوءها الذي يشبه ضوء النيون، وقال أحدهم "للكركي الأبيض":

ـ إن الضباب يأسر صديقتنا "عطاء" وأمها "خصلة الشعر" وأختها "عروسة الثلوج" وصديقتهم "البلورة الصافية" ؛ ويمنع هطولهم.

فوجئ "الضباب" بآلاف المناقير تندفع نحوه ؛ فلوتعب



وارتجفت أوصاله وحاول أن يستغيث "بنجمة الضبـــاب" ، إلا أن الكراكي لم تعطه الفرصة، وأطبقت عليه ومزقت حزامــــه العريض الساخن ؛ فانهمرت قطرات المطر التي كانت أســـيرة لديه. تهللت السحابات الأربع من الفرحة، حينمـــا شـــاهدن ذلك، ثم التحمن مرة أخرى وأصبحن جسداً واحداً، وصـــدر عنهن برقا أضاء قبة السماء ورعداً أيقظ النجوم والكواكـــب من سباتها ، ونـــزفن مطراً مدراراً.

مدت الشجرتان أكفهما وشربتا بنـــــهم مـــن المطـــر المنهمر، ودبت فيهما الحياة من جديد. ومع كل ومضة بـــرق وزخة مطر نبتت زهرة بيضاء عند قواعد أوراق "أكاسيا" حتى امتلأت بعشرات من الزهور البيضاء، فقالت لشجرة الصبـــار وهي تتمايل فرحاً:

ـــ لقد عشت يا أختاه حتى أرى ذريتي المزهرة، لكنني لا أخفي عليك أنني لا أعرف كيف أدبر لهذا العدد الكبير من الزهور الماء والغذاء.

قالت لها "الصبار" وهي تنظر بزهو لزهورها الحمـــراء التي نبتت مع هطول المطر:

ـــ لقد أصبحت مثلك ؛ أرعى عائلة كبيرة من الزهور ، لكننا نستطيع أن نختزن من أجلهم الماء؛ حتى لا يعانون مثل

ما عانينا، ولنغلق مسامنا حتى لا يتبخر.

قال لهما "القنديل الفضي" بغضب:

ــ إنكم بذلك تحكمون علــى الســحابات الأربــع بالموت، وتأسروهم في أوراقكم وجذوركم، وتفعلون مثلمــا يفعل "الضباب".

قالت له "أكاسيا" بحدة:

ــ لا تصرخ في وجهنا .. فلقد رأيت بنفســك أننــا كدنا نموت من العطش .. ولابد من أن نتعلم من هذه التجربة المريرة.

قالت "زهرة بيضاء" وليدة لأمها:

ــ لو أسرنا - يا أماه - كل السحابات التي تنهمر مطراً علينا فسوف يختفي المطر، ولن نجد قطرة ماء واحــدة تروينا.

وقالت "زهرة حمراء" لأمها شجرة "الصبار":

ــ لقد أعطتنا السحابات الأربع أرواحــها، فكيــف نحبسهم لدينا لأنانيتنا، وخوفنا من المستقبل؟!

تهدلت فروع الشجرتين خجلاً، وأجهشتا في البكاء، ثم

قررتا أن تفتحا مسام أوراقهما كي تتحرر قطرات الماء الزائدة عن حاجتهما وتصعد إلى السماء مرة أخرى.

(١٤)

لفحت الشمس الشجرتين فتبخرت قطـــرات المـاء وحملتها الريح إلى أعلى. تطلعت الشجرتان إلى السماء، وهي تكاد تجن من الفرح حينما رأت "عطاء" تتشكل من جديد ويبرز وجهها ضاحكا ثم ذراعاها ملوحاً لهما، ثم اتجهت إلى صديقتها "البلورة الصافية" التي تشكلت معها في نفس الوقت، وطارت نحو أمها "خصلة الشعر" التي فتحت ذراعيها لاستقبالها، وأختها "عروسة الثلوج" التي أحست بفرح لم تعهده من قبل، فهذه تجربتها الأولى في الانهمار مطراً.

بدأت الشمس في الغروب، وتحركت النجوم الزرقاء والحمراء والبيضاء والصفراء من الشرق إلى الغرب، وأشاحوا بوجوههم حتى لا يرون النجم "ألفا العجوز" الذي مات غيظاً وكمداً، وأصبح ثقباً أسود يمتص أي ضوء يجرؤ على الاقتراب منه، ثم نثرت في الفضاء قناديلها الملونة، حتى لا تضل السحابات الأربعة طريقها وتعود إلى وطنها في سلام.

الأم الخشبية

حكايات

نبيل خلف

للأطفال

رسوم يوسف شاكر



الأم الخشبية

الأم الخشبية

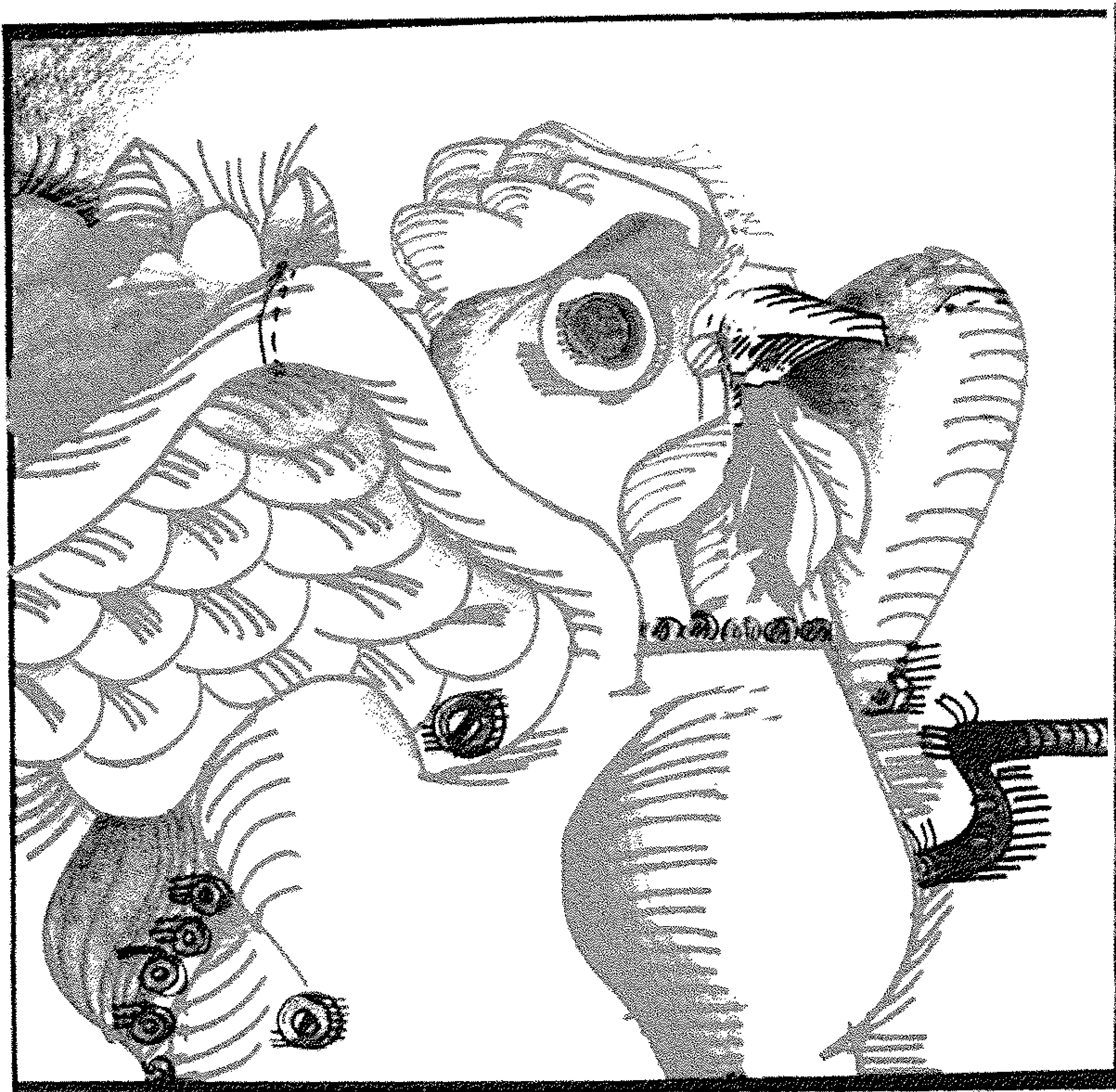
نبيل خلف

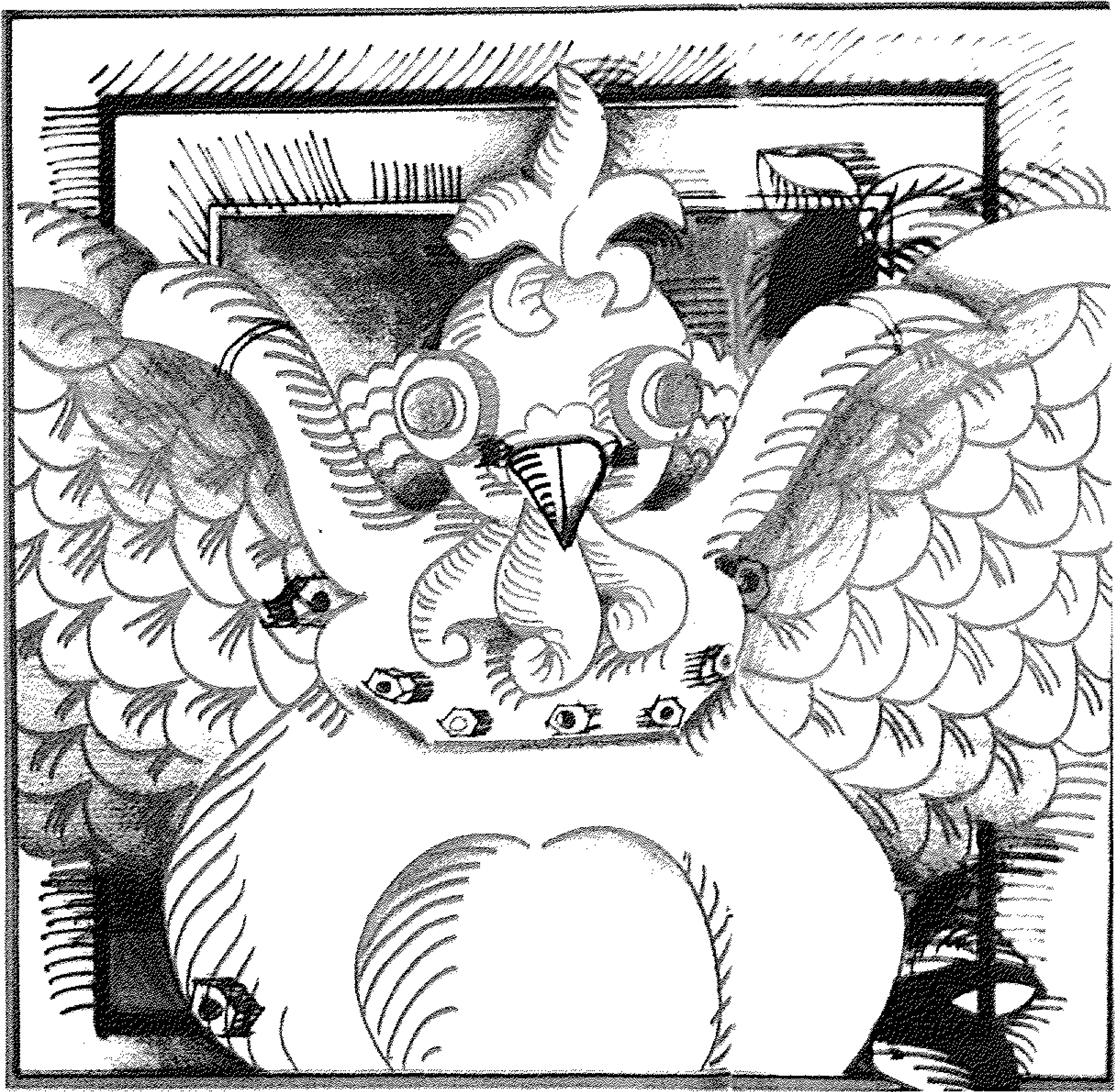
رسوم: يوسف شاكر

الطبعة الأولى ١٩٩٣

دار العروبة للطباعة والنشر، القاهرة

رقم الإيداع: ١٩٩٣/٨٥٨٢



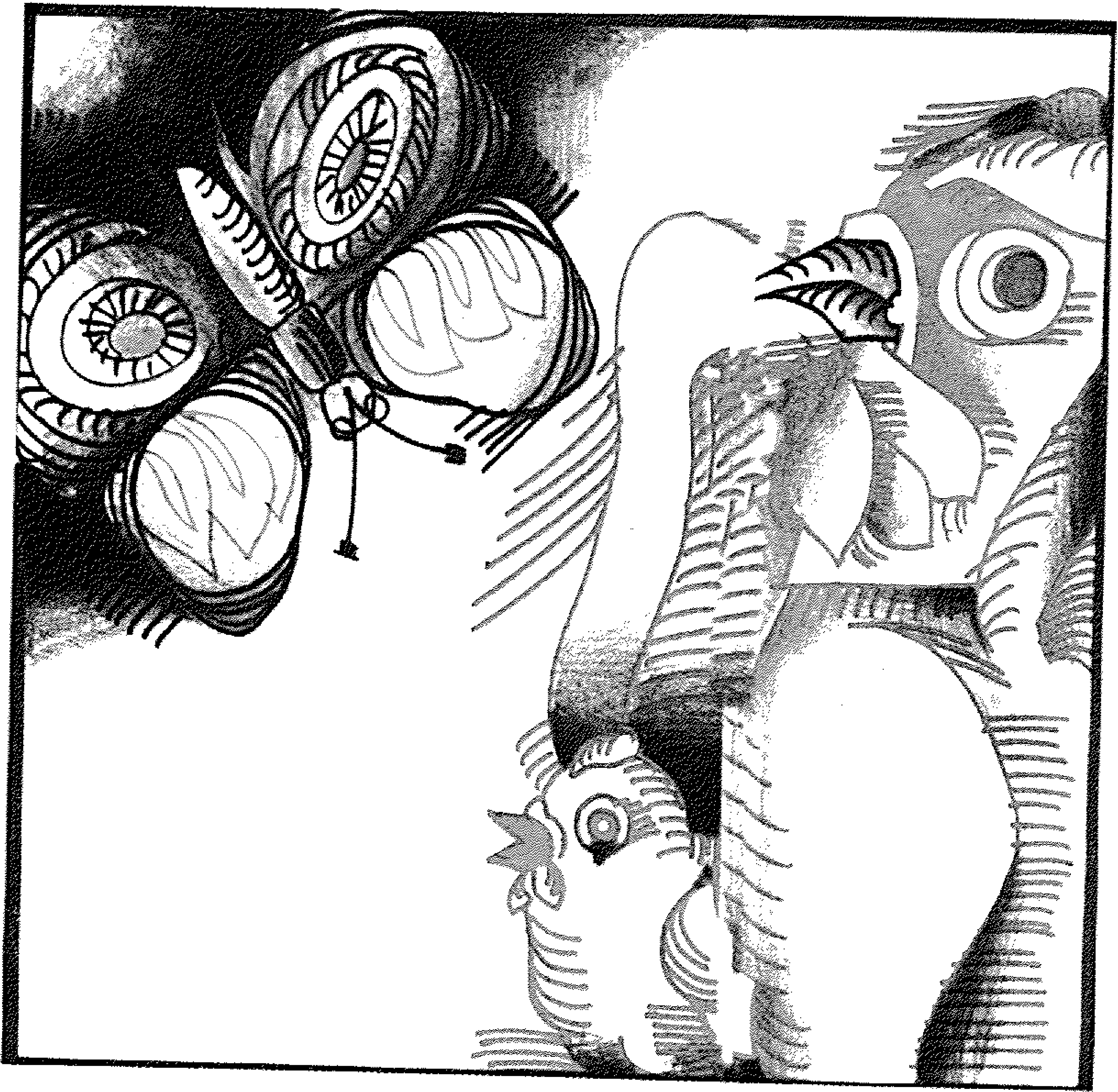


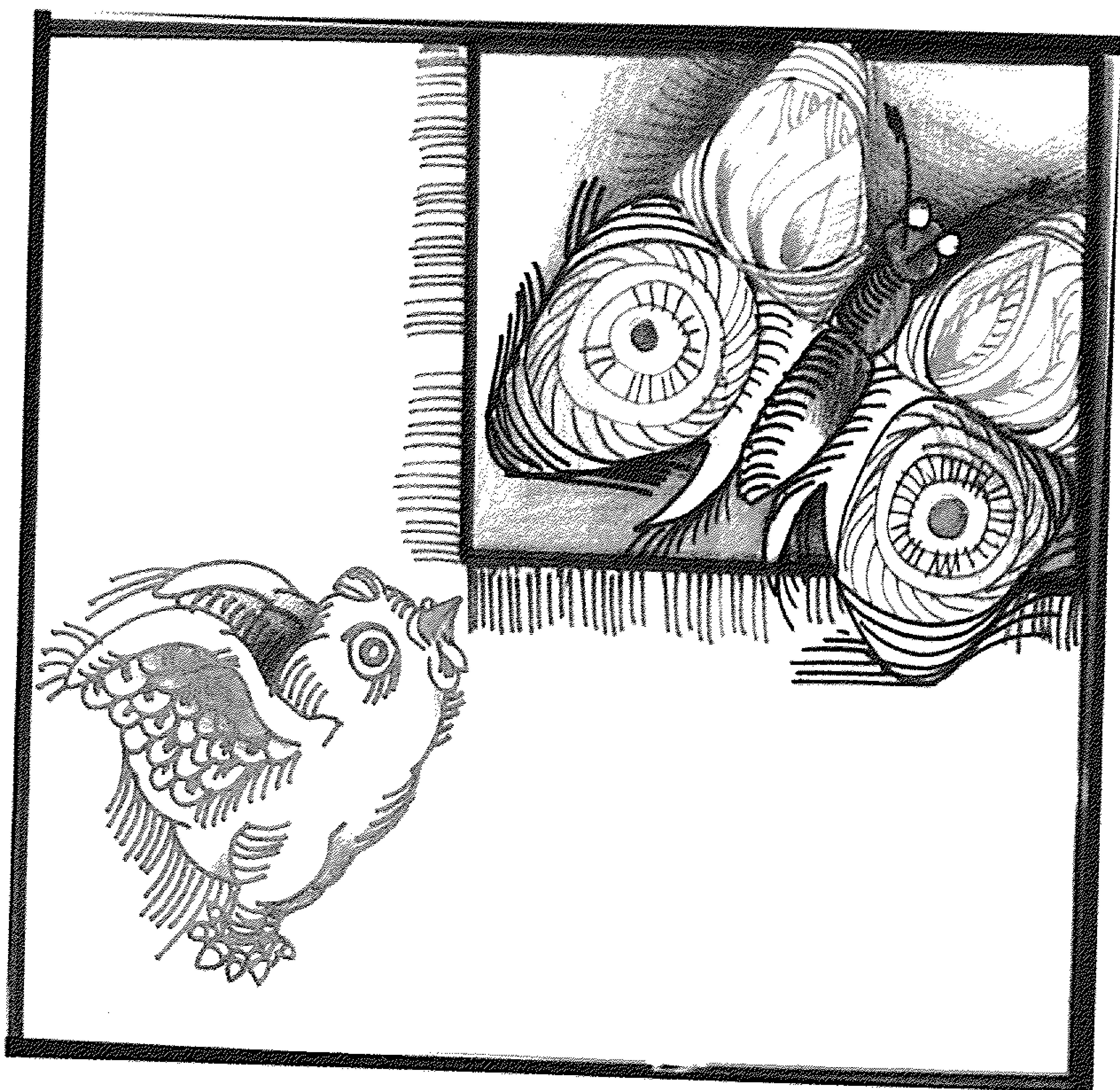
لم يعرف "فرخ الدجاج" أن الصبح هو أول النـــهار، وأن الغسق هو أول الليل، وأن الزغب هو ريشه الذي ينتشـر على جناحيه، ولم يعرف أيضا حفيف الشجر مــن جلجلــة الرعد، وشقشقة العصفور من نعيق الغربان، ولم يسمع من قبل نقنقة الدجاجات التي تنتظر أفراخها بلهفة حينما يخرجون مـن البيض وتحتضنهم بأجنحتها الدافئة، رغم أنه قد ولد في أحـد المختبرات العلمية التي تقع في قلب الغابة الخضراء، ويمكننا أن نلتمس له العذر حينما نعلم أنه عندما استطاع أن ينقر بيضته،

لم يجد أمامه إلا دمية خشبية حمراء تشبه أمه "دجاجة الغابة" التي لم يرها من قبل، ويبدو أن أحدا كان يتحكم في حركتها "بالريموت كنترول" بحيث جعلها تتدحرج حوله أحيانا، وتطير فوقه أحيانا أخرى..

تعلق فرخ الدجاج بتلك الدمية، وتبعها أينما ذهبت وكأنها أمه الحقيقية، إلا أنه ارتجف من الخوف حينما حركت الريح مصراعي النافذة؛ فأصدرت صريرا مزعجا، وتسللت إلى الغرفة فراشة مبرقشة بألوان شتى، أرادت أن تداعبه فرفت حول وجهه، ولكنه تقهقر إلى الخلف مذعورا وجرى نحو أمه الخشبية الحمراء التي احتضنته بجناحيها، فكادت أن تعتصر جسده النحيل، وبعد قليل كفت عن ذلك وفردت جناحيها وراحت تطير في الغرفة بشكل دائري بسرعة فائقة وكأنها طائرة نفاثة لا يتحكم بها أحد..

أسرع الفرخ بالاختباء خلف أحد المقاعد الخشبية وانهمرت دمعتان من مقلتيه، وعرف البكاء لأول مرة، وحين كفت الدجاجة الخشبية عن طيرانها المجنون، خرج الفرخ من مخبئه، وفوجئ بالفراشة المبرقشة تربت على جناحيه المرتجفين، فسمح لها أن تمسح دموعه بخرطومها، وطارت نحو النافذة وأومأت له بأن يتبعها إلى الغابة الخضراء. انتابته رغبة عارمة





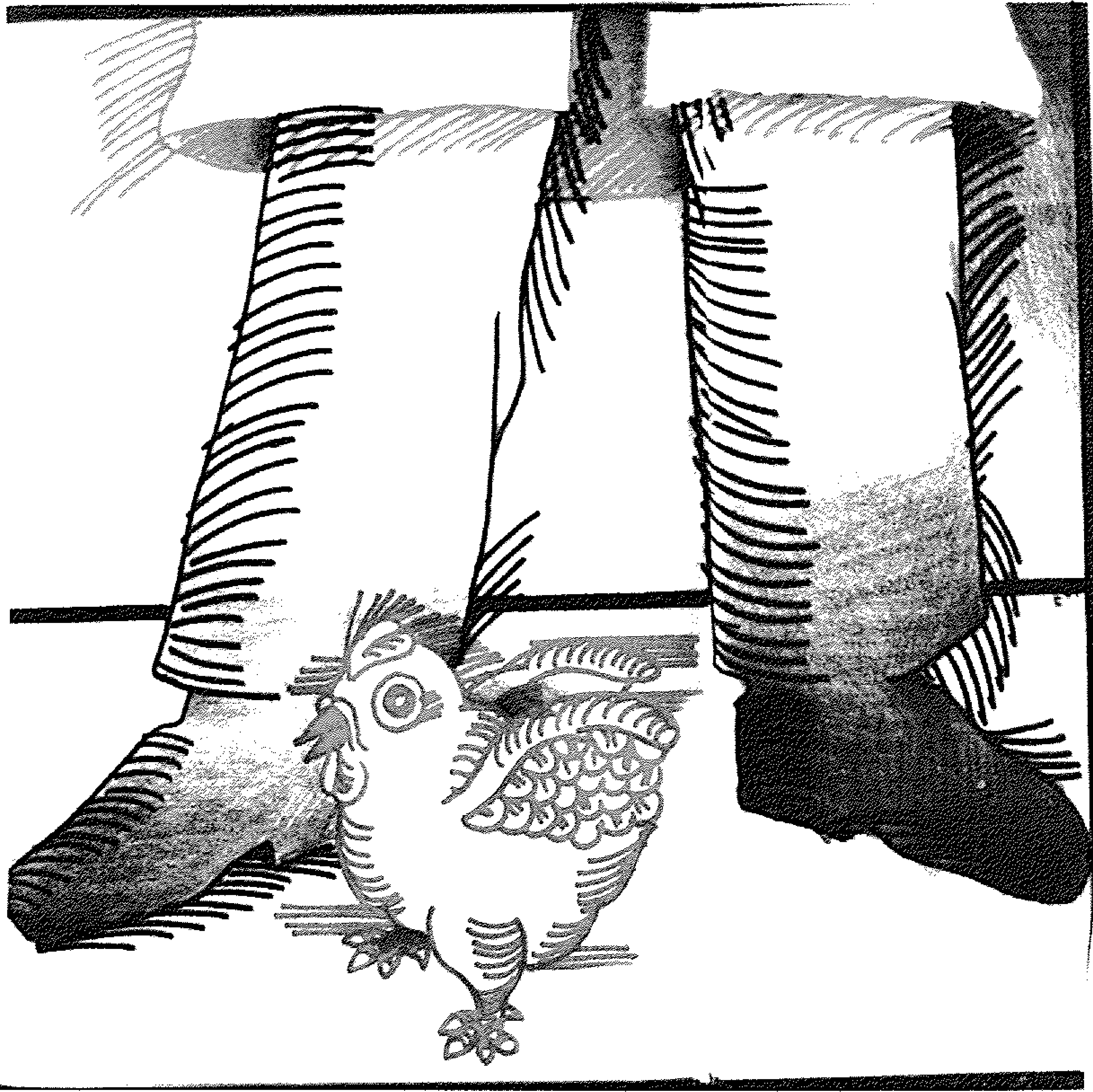
في الطيران، وأراد أن يختبر جناحيه فحركهما ببطء، وارتفع قليلا عن الأرض، وعرف لأول مرة معنى الفرح. لكن فرحته لم تكتمل ؛ لأن الدجاجة الخشبية الحمراء طارت نحو النافذة ووقفت عليها وفردت جناحيها الخشبيين ــ الكبيرين كي تحول بينه وبين الغابة.

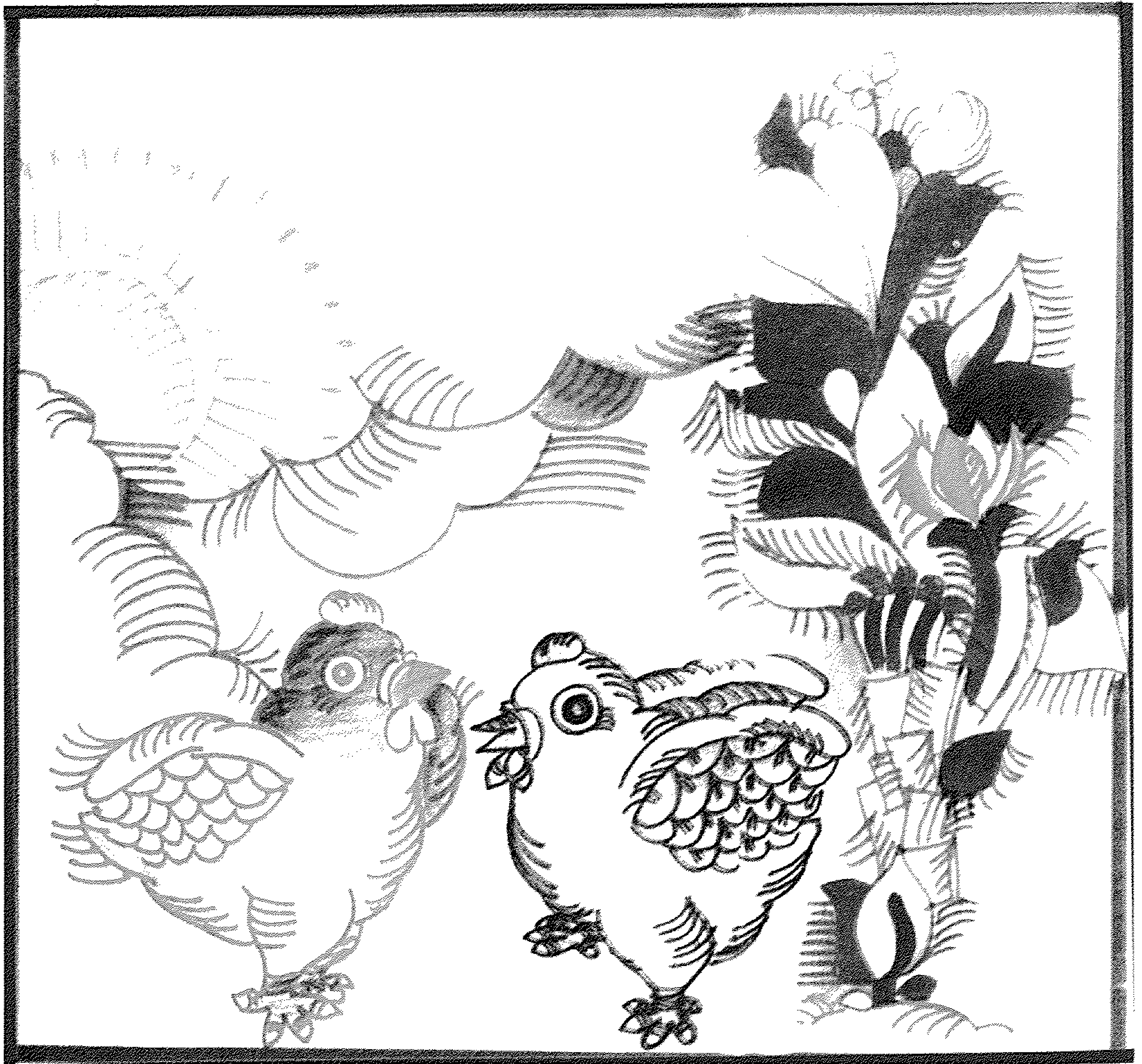
حدقت نحوه بعينيها الزجاجيتين الباردتين وكأنها تحذره من التفكير في الهروب. لم يستطع "فرخ الدجاج" أن يطيل النظر إلى عينيها وراح يجوب الغرفة يمنة ويسرة كي يبحث عن مخرج يفلت منه دون جدوى، وعرف الإحباط لأول مرة.

لم يشعر بالخوف حينما سمع صرير الباب، دخل "العالم" الذي يجري أبحاثه حول سلوك الطيور لصالح إحدى الشركات التي تنتج الدجاج المعلب، نظر "الفرخ" بدهشة لقدميه الكبيرتين وكرشه المتهدل، وعرف لأول مرة معنى الدهشة، لكنه تعلم الغيظ ؛ حين رأى العالم يحمل الدجاجة الخشبية الحمراء ويقلبها ويقول متهللا:

ــ لقد نجحت التجربة.. ويمكننا الآن أن نحرم الأفراخ من أمهاتها، ونربيها في الأسر دون عناء، وبذا يزداد إنتاج الشركة وتتضاعف أرباحها، ويمكنني أن أطالبها بزيادة أتعابي..

أسرع "فرخ الدجاج" بالهروب من البـــاب المفتــوح منتهزا فرصة انشغال "العالم" بحساب أرباحه، في البدء مشـــى بوجل وحذر لكنه حملق في وجه الشمس واحتضنته أجنحـــة الضوء الخضراء والحمراء والزرقاء والأرجوانية، التي انسربت من بين قمم الأشجار العملاقة والأشجار القزمة، أحــس لأول مرة بمعنى الأمان، رفرف بجناحيه وطار، لكنه سقط بعد قليـــل في حفرة على شكل قمع مغطاة بأوراق الشـــجر، وفوجـــئ ببيضة تتدحرج حوله، ورأى فرخا وليدا يكسر قشرها بمنقاره الصغير، ويتجه نحوه وهو يصوص، احتضنه بجناحيه الصغيرين، وقرر أن يبقى معه حتى يتعلما سويا حفيف الأشجار، وشقشقة العصافير، ونقنقة الدجاج، ويتعلما أيضا الرفيـــف والرفرفـــة ويطيرا سويا في الفضاء الفسيح حين ينبت ريشهما. وتعلمـــا لأول مرة مهنى الأمومة.






نبيل خلف

سمكة الشمس

سمكة الشمس


نبيل خلف

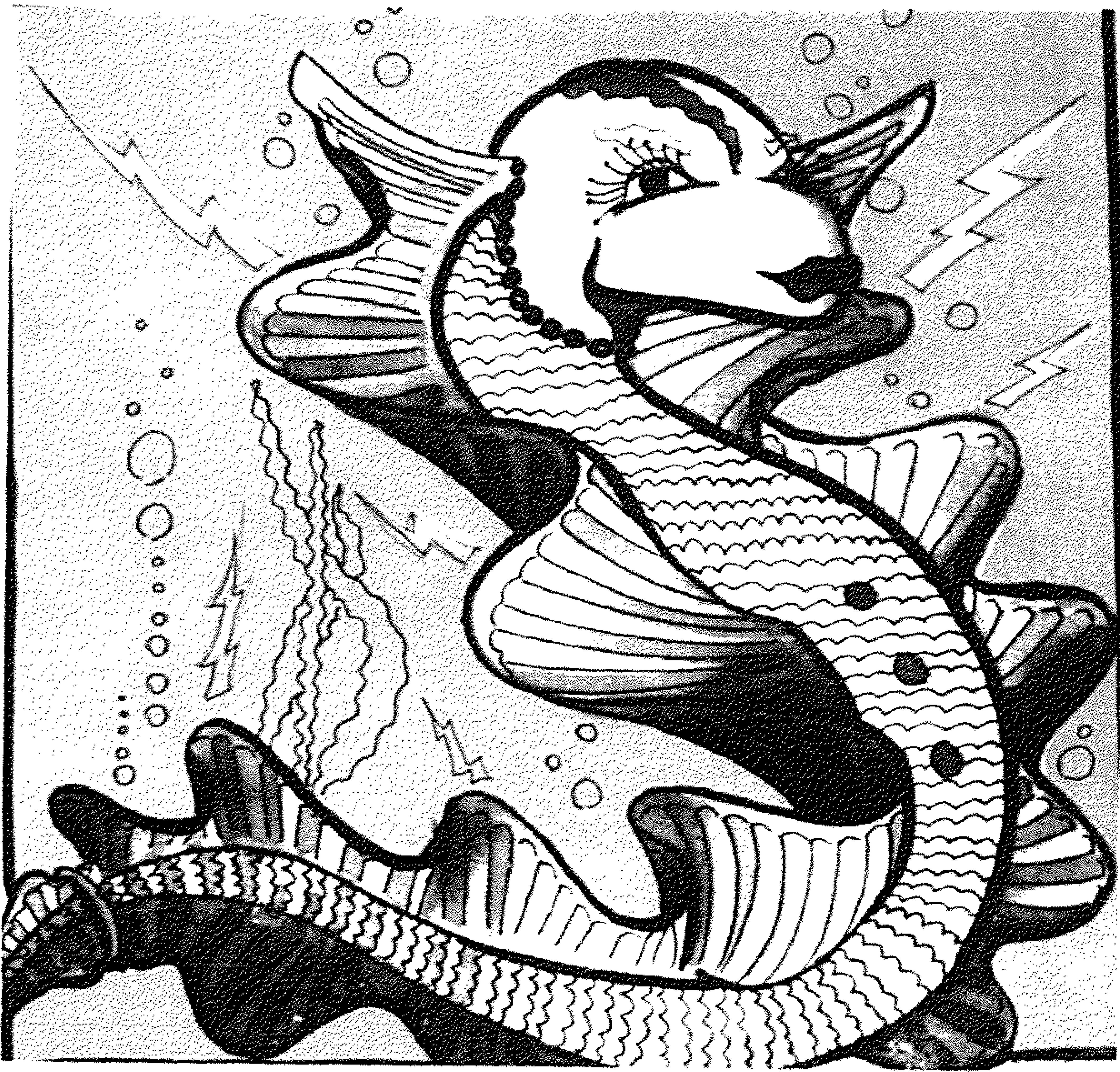
رسوم: يوسف شاكر

الطبعة الأولى ١٩٩٣

مطبعة العروبة، القاهرة

رقم الإيداع: ١٩٩٣/٣٠٨٠





... "البحر براح، والكــون فسـيح، والشـمس لا تتسرب إلى أعماق النهر المظلم لأن أشعتها تتكســر علــى الطحالب البنية اللزجة وعلى صفحة الماء الآمن. والسـمكات الضريرات، اللاتي ينبشن في طين القاع بحثا عن الديـدان، لا يعلمن ذلك"..

همست بذلك "حية السمك" وهي تتأهب للرحيـل إلى البحر ومع أنها ترحل كل عام في مثل هذا الوقت إلا أنها تعلم أنها سوف تبيض لآخر مرة، وأن هذا هو رحيلـها الأخـير.

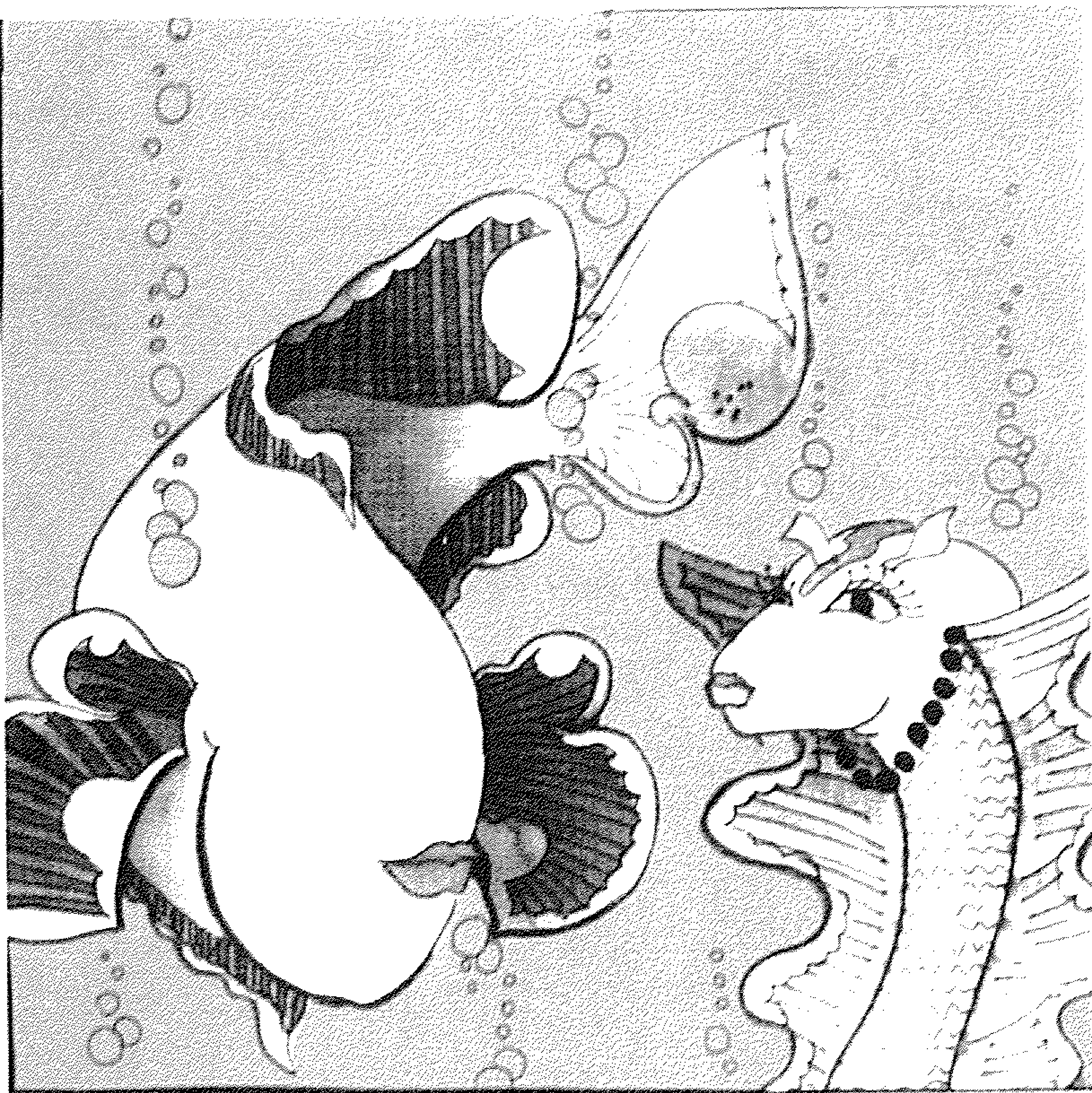
وتعلم أيضا أن يرقاها التي تولد عمياء سوف يفترسها "ذئب الماء" بعد أن تتفتح عيونها حينما تبصر الشمس، وهي في طريقها إلى النهر ؛ لأنه لا يسمح لأي سمكة مبصرة بالهبوط إلى القاع.

فكيف تموت بدون ذرية. بدون حفيد أو ولد. فكيف تموت وهي آخر "حية سمك" بقيت على قيد الحياة، ويندثر جنسها إلى الأبد. وكيف تموت قبل أن توقف هذه المأساة.

ارتجف جسدها المشحون بالكهرباء حينما رأت "ذئب الماء" يلتهم بعض السمكات الضريرات التي كانت تغط في النوم، ويكوّم حراشفهن في سلال من المطاط ويسلقها في الينبوع الساخن المنبثق من قاع النهر، ثم يصنع من مرقها "صبغة اللؤلؤ" ليطلي بها كهفه الصخري حتى يشع بالألوان السبعة لقوس قزح. وأرادت أن تباغته حينما رأته مسترخيا على أريكته التي تشبه زورق الشمس وهو زورق أثري سرقه من إحدى السفن الفرعونية الغارقة.

إلا أنها تراجعت في اللحظة الأخيرة عندما رأت حراسة من "أسماك الشيطان" و "أسماك الضواري" تكشر عن أنيابها وتستعد لافتراس أي دخيل تسول له نفسه الاقتراب من الكهف ...





امتقع لونها من الغيظ والكمد .. وكادت أن تعدل عن الرحيل. فهل ترحل لتنجب أفراخا لن تراها، مقدر لها الموت قبل أن تولد.. ولم هذا العبث.. فلتبق هنا في موطنها ولتمت هنا، وعليها قبل أن تموت أن تجد وسيلة تقضي بها على "ذئب الماء" الذي جعل قاع النهر جحيما لا يطاق وحبس الضوء في كهفه كي تبقى السمكات ضريرات إلى الأبد.

وبينما كانت مستغرقة في همومها اصطدمت بها " السمكة الرادارية" العمياء فكادت أن تصعق من الفزع ومن الكهرباء التي يبثها جسدها. قالت لها وهي تصطنع المرح:

ـ مرحى.. أيتها السمكة المشاكسة.. ما الذي يفزعك هكذا وكيف اصطدمت بي.. هل انتزع أحد من جسدك رادارك العجيب؟

قالت لها "السمكة الرادارية" العمياء بهلع:

ـ لقد افترس " ذئب الماء" بعضنا وأفلت من أنيابه في اللحظة الأخيرة.

قالت لها "حية السمك" بأسى:

ـ لقد رأيت ما حدث ولم أستطع أن أفعل شيئا..

قالت لها "السمكة الرادارية" بقلق:

ــ لقد آن موعد رحيلك إلى البحر .. فلم لم ترحلي؟

اغرورقت عيناها بالدموع ولم تجد ما تقوله لها، فلقد وعدتها بالرحيل معها للبحر، حيث تحلم بالإبصار حينما ترى الشمس، وتتوق لرؤية زنابق الماء وطيور النورس البيضاء التي تحلق فوق السفن.. وهذه هي فرصتها الأخيرة للرحيل فكيف تخذلها..

قالت لها "السمكة الرادارية" بعد أن لاحظت ارتباكها:

ــ لقد علمت أن "ذئب الماء" قد سرق الشمس وحبسها في كهفه وسد كل المنافذ التي تؤدي إلى البحر، وأنك سوف تصبحين ضريرةً مثلنا..

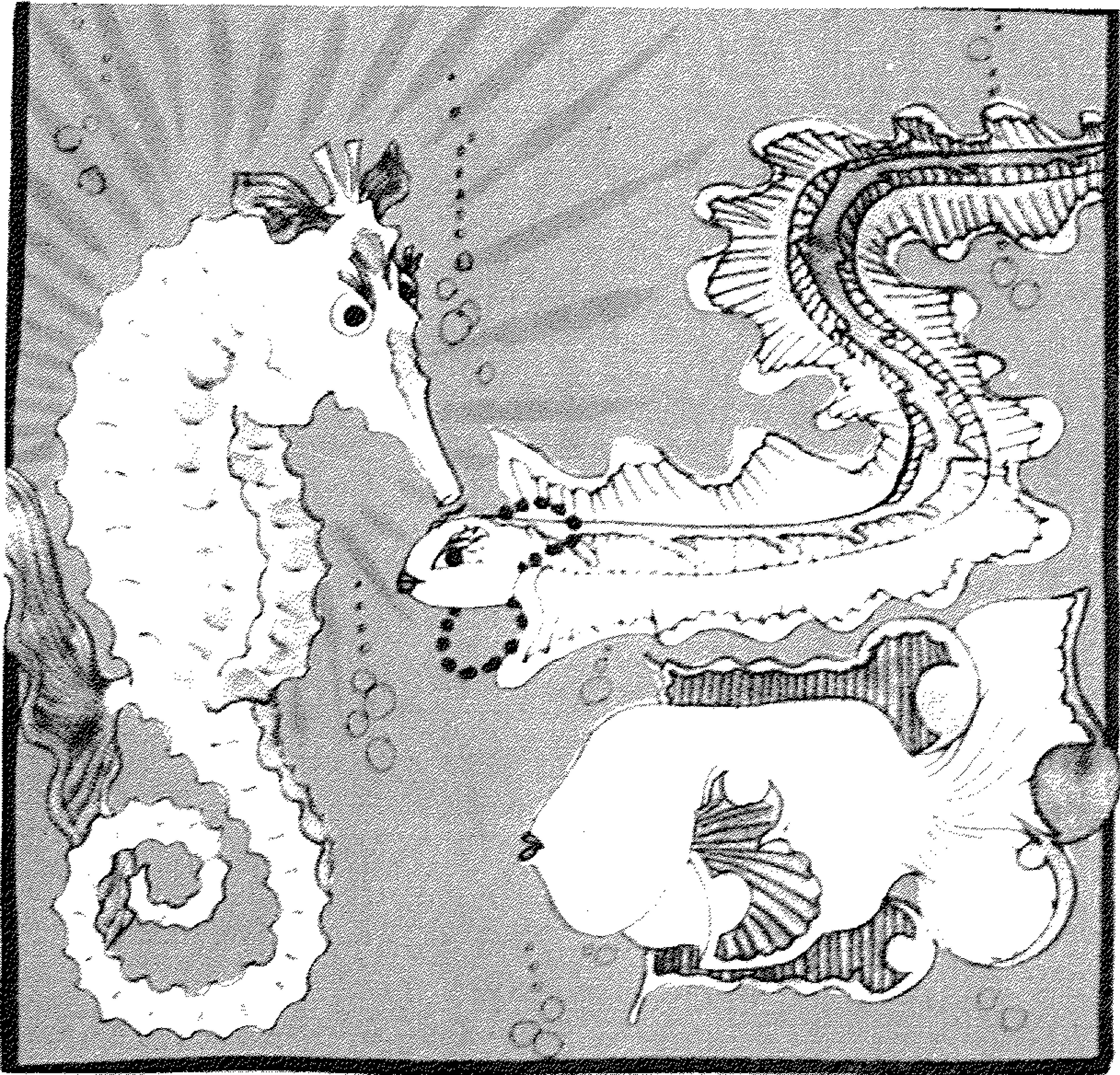
قالت لها "حية السمك" بغضب:

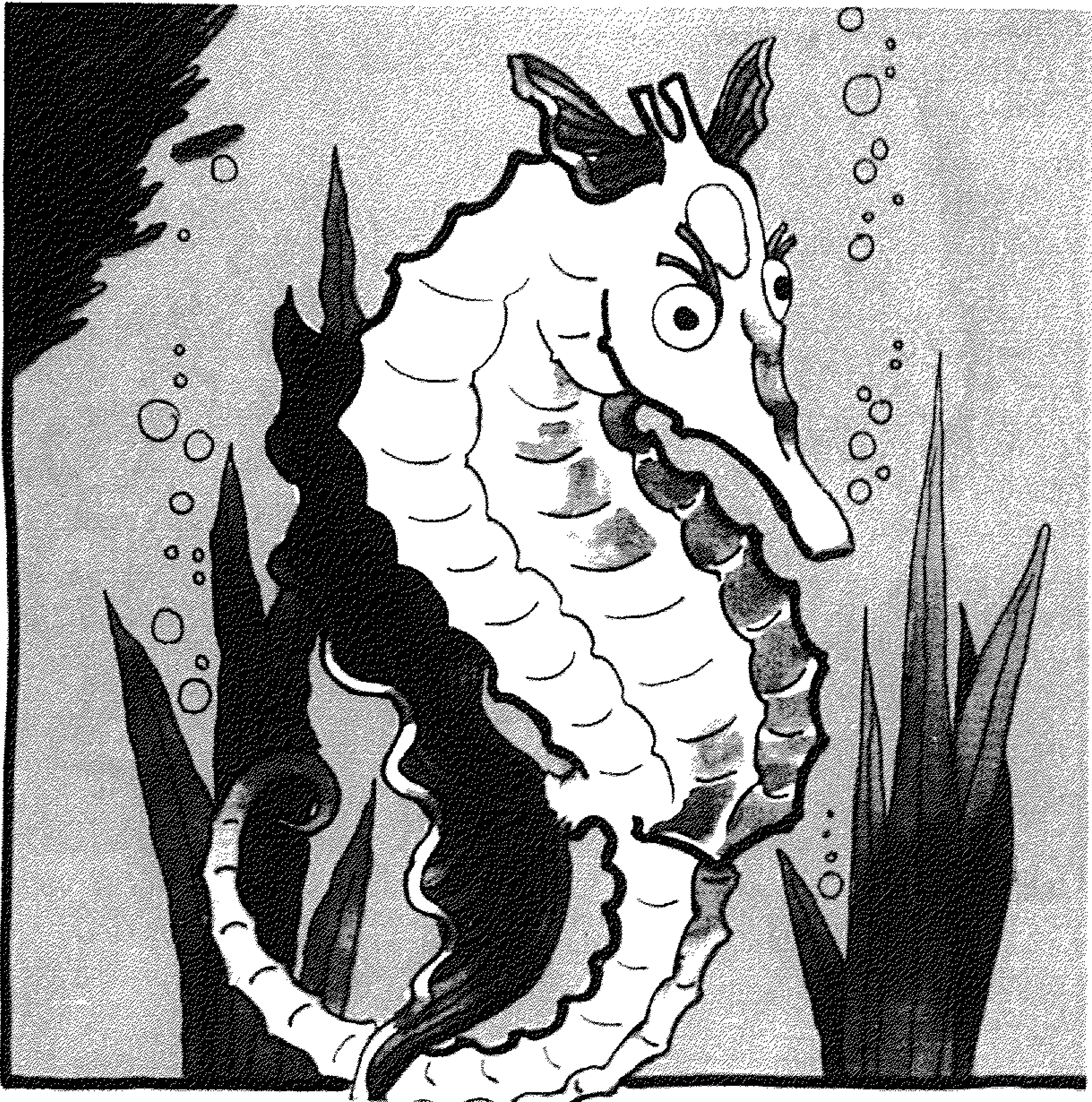
لا تصدقي مثل هذه الخرافات فلقد أشاع جواسيسه ذلك حتى يدب اليأس في قلوبكم..

قالت لها "السمكة الرادارية" بتوسل:

ــ هل ستصحبينني معك إلى البحر..

صمتت برهة ثم ومضت في ذهنها فكرة جعلتها تقول





في خشوع:

ــ سوف ترحلين معي بالطبع.. وسأمنحك مـــيراث أجدادي الذي خبأته في "منفذ النسيم"، وستكونين في مسيس الحاجة إليه حينما تعودين إلى النهر.

قالت لها "السمكة الرادارية" بحسم:

ــ إن أفراخك أولى بهذا الميراث مني..

قالت لها "حية السمك" بصوت متهدج:

ــ سيقسَّم بينكم بالعدل .. وأنــت الــتي ســتتولين ذلك..

سألتها "السمكة الرادارية" بصوت يشوبه القلق:

ــ ألن تعودي معنا إلى النهر؟

وفي عرض البحر انتابت "حية الســمك" قشــعريرة وقالت "للسمكة العمياء" بصوت مرتجف:

ــ هنا بدء الحياة، وهنا منتهاها.

قالت لها "السمكة العمياء" بقلق:

ــ لم يرتجف جسدك هكذا.

قالت لها "حية السمك" وهي تحملق في السماء:

ــ سوف تشرق الشمسُ بعد قليل ويتحقق حلمه في الإبصار.

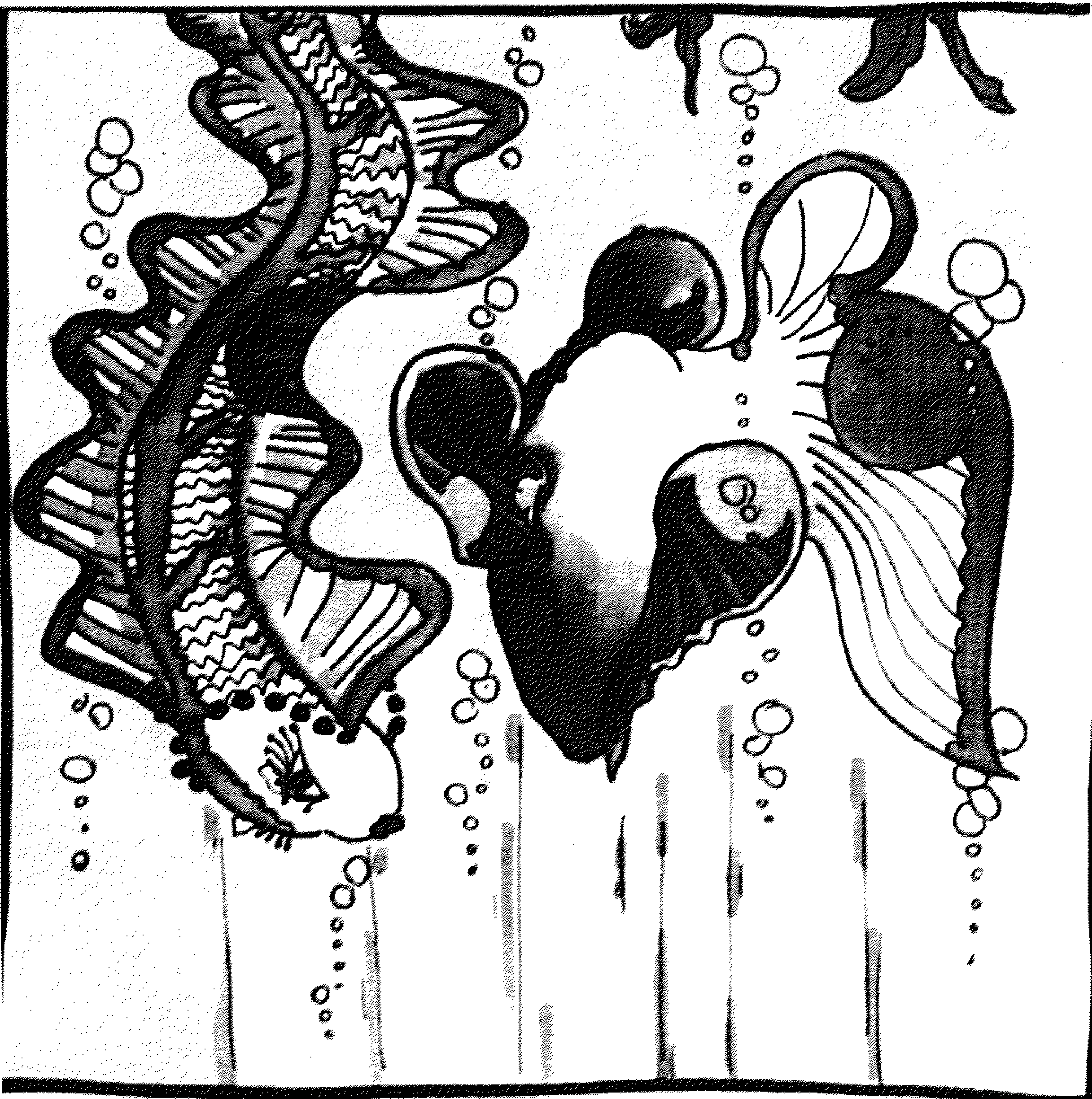
ثم عدّلت جبهتها نحو الشمس وقالت لها:


ــ لا تحركي جبهتك يا صغيرتي.. وإن شعرت ببعض الألم فلا تقلقي..

ران الصمت عليهما حتى أشرقت الشمس على وجه "السمكة العمياء" فأحست برجفة غريبة تسري في جبينها وبألم يعتصر جبهتها. حاولت أن تسترخي قليلا، لكن "حية السمك" عدلت جبهتها بزعانفها الصدرية وصرخت محذرة:

ــ إياك أن تكرري ذلك.

ظلت "السمكة العمياء" تئن أنينا خافتا ثم صرخت صرخة مخيفة وأغشي عليها، حملتها "حية السمك" على صدرها وعندما أفاقت فوجئت بفتحتين صغيرتين تنبضان بالحياة وتنبتان في جبهتها، ثم رأت شيئا يبرق ويبتسم بقدر ما يزيل السواد من البياض، ويومض وينطفئ بقدر ما يزيد العتمة من النور، ثم يلمع ويتألق مثل اللؤلؤ في الأصداف، حينئذ رأت الزعانف الصدرية المتلألئة والتي تقع خلف رأس





"حية السمك" والحراشف الفضيـــة المنتشـــرة في جســـدها، وتجسدت أمامها كاملة، ثم راحت تحملق في عينيها اللتين تشع بالطيبة وترتوي من بريقها وقبلتها في جبينها وقالت لها بعينـين دامعتين:

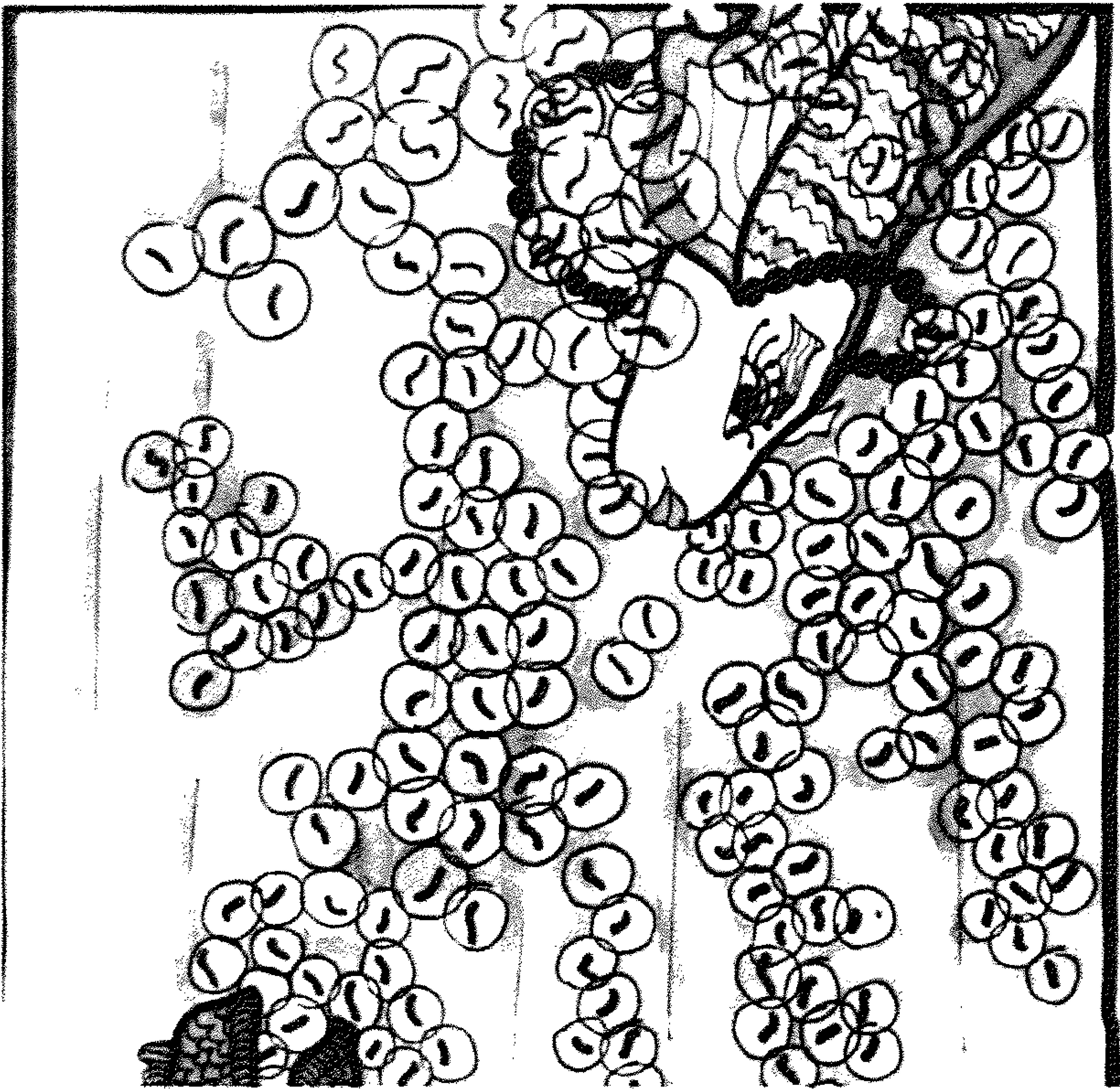
ـــ لقد تحقق الحلم أخيرا يا أماه.. وأول شيء تمنيـــت أن أراه هو أنت ..

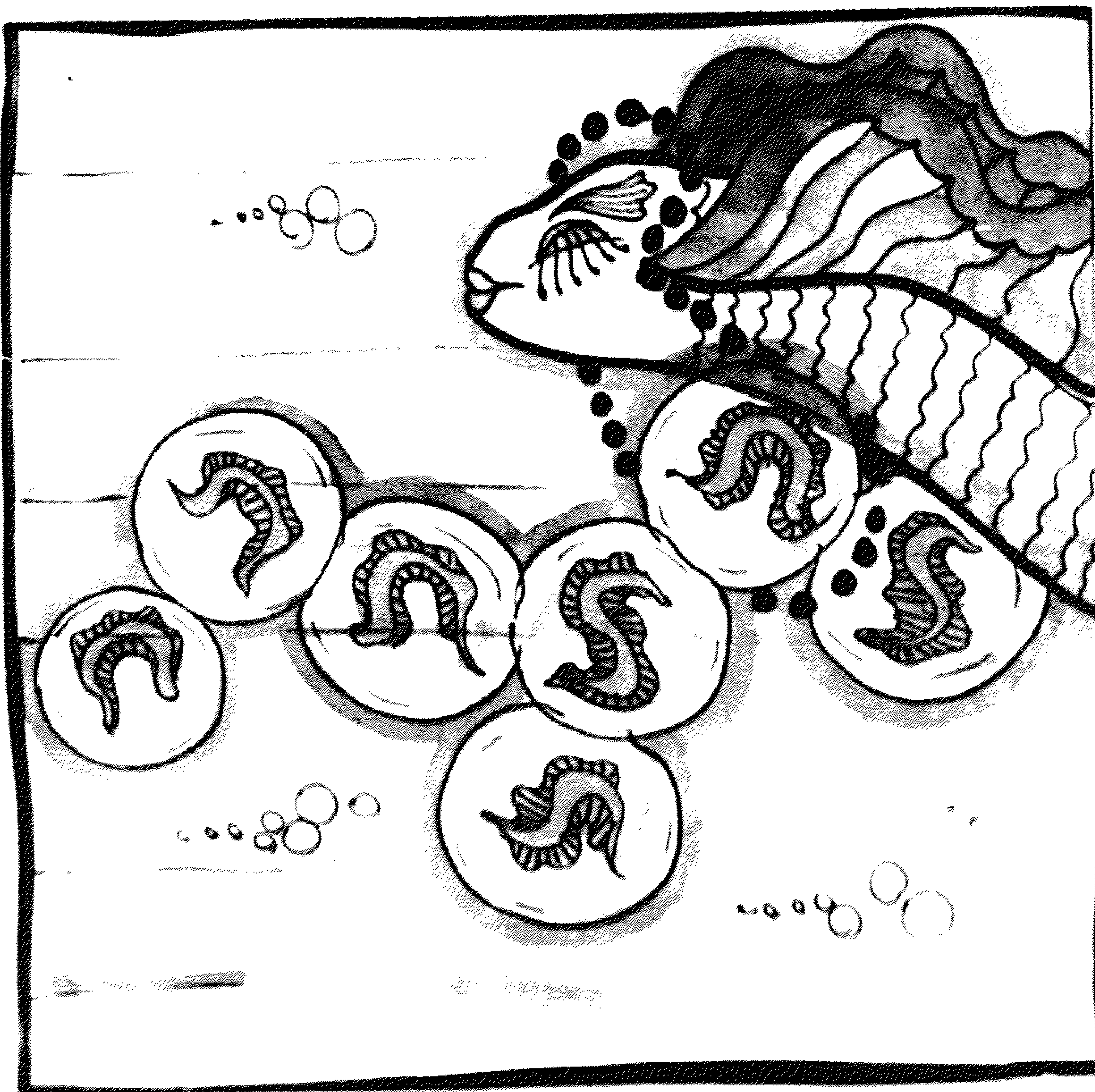
وحينما سمعت "حية السمك" هذه الكلمات صفقـــت بزعانفها تصفيقا مهيبا ورقصت رقصا محموما علـــى أشـــعة الشمس التي تلألأت على وجه "سمكة الشمس"، وخرجـــت من زبد البحر عرائس الماء تدق على دفوفها وترقص حولهـــا، واستمرت "حية السمك" في رقصتها حتى تساقطت حراشـفها الفضية على سطح الماء، فلملمتها عرائس المـــاء في ســـلالها وأطلقت زغاريدها التي تشبه النحيب وهبطت بهـــا إلى قـــاع البحر البارد لتهب الحياة ليرقاتها ثم تموت.

تعلمت "سمكة الشمس" من "حيـــة الســـمك" لغـــة جديدة، فالشمس في الغسق ـــ غزالة حمراء ترمح نحو الغرب، وحركة الهواء ـــ ريح وحركة الماء ـــ موج وحركـــة الأرض ـــ زلزلة، لكنها لم تتعلم أن تشرب من ريق المطر حين يجـــف حلقها، وأن تكفكف دموعها حين تبكي، وأن تتريث قليـــلا

حتى تقف اليرقات وتصعد على سطح الماء، فغاصت في قـاع البحر البارد كي تبحث عن "حية السمك" وعـن يرقاتها، فسمعت هسهسة لم تعرها اهتماما ثم لفظا وصياحا وصـهيلا وحمحمة ونعيقا وشقشقة وهديرا وصريرا. ثم حينما سمعـت نباحا ومواء وجلجلة فقدت توازنها وكادت تهوى في منحـدر عميق فرفرفت بزعانفها حتى استطاعت أن تصعد إلى سـطح الماء بعد أن تعلمت أن كل شيء تؤدي عاقبته إلى الهلاك فـهو تهلكه. وأن أول النوم النعاس وآخره الهجوع ، لذا فهي قـد أسندت رأسها على الطحالب الخضراء واستسـلمت لنـوم عميق.

انتفضت "سمكة الشمس" من نومها حينما سمعت عويل اليرقات وصراخها حينئذ رأت "حية السمك" تصعد في نافورة من مح البيض وزلاله بوجه شاحب وعينـين متقدتـين مـن الغضب، وتندفع نحو "سمكة العقرب" التي كانت تلتهم يرقاتها وتبث في خطمها آخر شحنة من الكهرباء تبقت في جسـدها الهزيل، ثم راحت تغوص ببطء في قاع البحر البارد، وهـب الحزن الجليل "سمكة الشمس" شجاعة فائقة جعلتـها تمتطـي ظهر "سمكة العقرب" وتضربها بزعانفها وتعضـها بأسـنانها، وتروغ من أشواكها السامة، ولم تتركها إلا حينمـا فـارقت





الحياة.

تلفتت " سمكة الشمس" حولها فلم تجد من آلاف اليرقات التي خضبت دماؤها سطح البحر إلا سبع يرقات يشكلن معا فرعا من الصفصاف ويسبحن بعزيمة واضحة نحو النهر، فانضمت لهذا الفرع الأخضر الغض لتكون له جذعا راسخا يصد عنه الريح وجذرا يعطيه الغذاء الشهي ويقطر له من ماء البحر الأجاج السلسبيل.

أرخى "حصان البحر" ذيله المتشبث بالنباتات البحرية واشرأب بعنقه الطويل حين رأى شجرة الصفصاف قادمة نحوه وحينما اقتربت من منفذ النسيم خرجت من شجرة اليرقات سبع حيات فضية فتية.

حينئذ أشار "حصان البحر" لقنينات سبعة تتمايل على زنابق الماء البيضاء وقال "لسمكة الشمس" بصوت متهدج:

ــ هذه القنينات تحتوي على مسحوق المعادن المقدسة ولقد اختزنت طاقة الشمس منذ آلاف السنين وعليك أن تقسّمي هذا الميراث بين بنات "حية السمك" بالعدل..

أعطت "سمكة الشمس" لكل حية قنينة، وحينما فرغت من ذلك، قالت لها إحدى "حيات السمك" التي تشبه أمها تماما:

ـــ خذي قنينتي يا أختاه..

وعرضت عليها الحيات الأخريات نفس العـــرض، إلا أهّا رفضت بإصرار وقالت لهن:

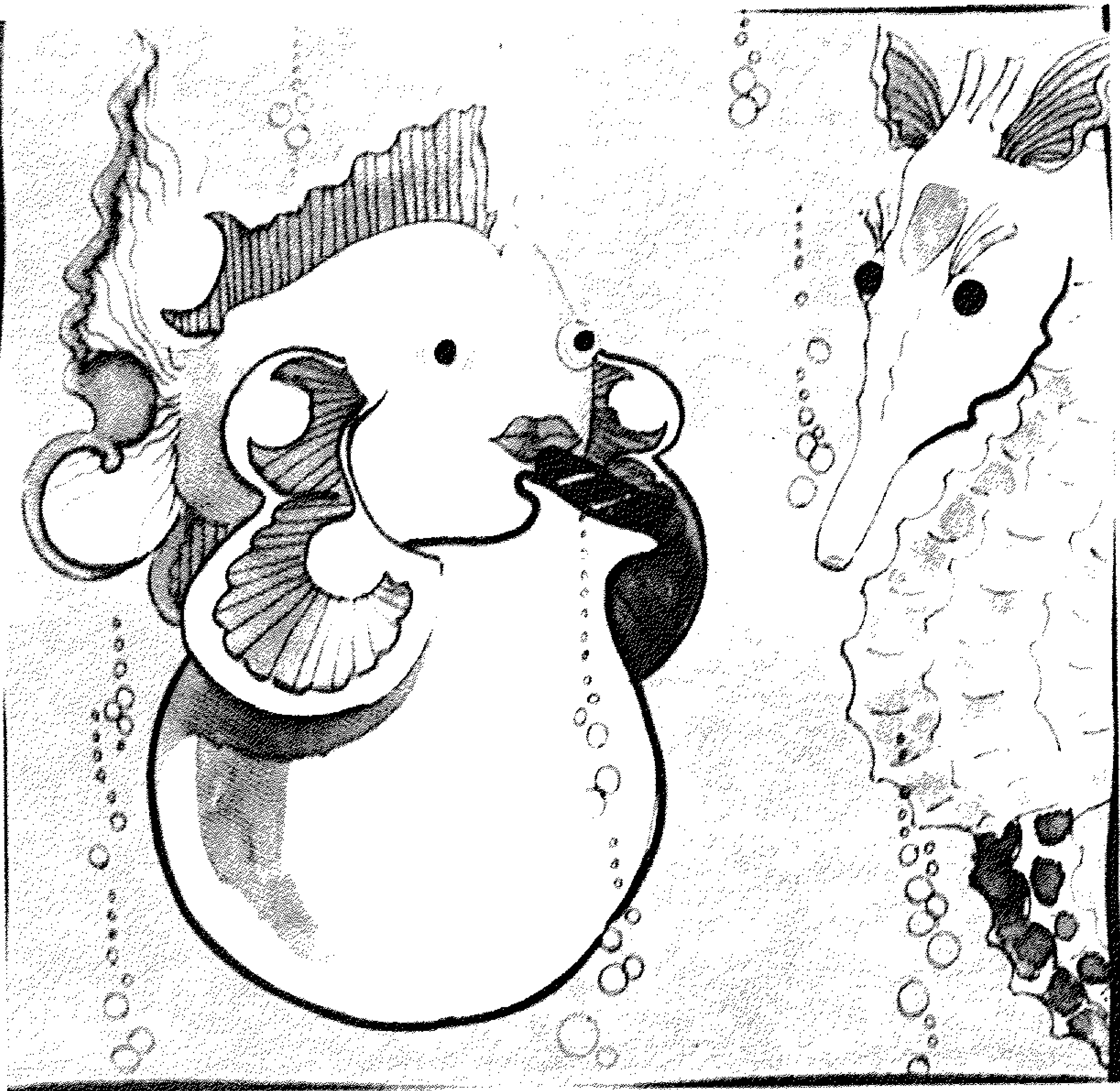
ـــ هذه القنينات ليست ملكا لأحد. فلقد وهبتها لنـــا أمنا "حية السمك" لكي نضيء بها قاع النهر المظلم.


عندئذ أخرج "حصان البحر" قنينة كبيرة مخبـــأة بـــين النباتات البحرية وأعطاها "لسمكة الشمس" وقال لها:

ـــ في هذه القنينة ترقد "شمس الشموس" الباهرة والتي ستدور في فلكها كل الشموس والنجوم الأخرى.

سبحت الحيات الفضيات السبعة نحو المداخل الســـبعة لقاع النهر، فاتجهت إحداهن إلى مدخل "الظلام الســـرمدي" وأخرى نحو "الينبوع الساخن"، وثالثة نحو مدخل "الزمهرير"، أما "سمكة الشمس" فقد شاركت الحية التي دلفت من المدخـل السري "لذئب الماء" والذي تحرسه "أسماك المنشار".

وبناءً على الإشارة المتفق عليها وهي صفير متقطـــع، وفي ساعة الصفر المحددة، نزعت الحيات الســـبعة ســـدادات القنينات وسكبتها على قاع النهر المظلم فاشـــتعل بـــآلاف الشموس والنجوم الصغيرة، فلاذت بالفرار "أسماك الشـــيطان"




و"أسماك الضواري" التي لم تحتمل عيونها البريق الفوسفوري المتوهج الذي كاد يغشى أبصارها. وكلما شكلت ذرة من المسحوق المقدس شمسا أو نجما أبصرت سمكة عمياء، ولم تعد هناك سمكة واحدة عمياء في قاع النهر الذي أصبح كسماء تشع بالضياء مرصعة بالنجوم.

وعندما سكبت "سمكة الشمس" قنينتها أمام المدخل السري "لذئب الماء" تشكلت "شمس الشموس" الباهرة ودارت في فلكها كافة الشموس والنجوم الأخرى في دوامات متتابعة، فتقلصت عيون "أسماك المنشار" التي كانت تحرس المدخل حتى أصبحت في حجم رأس الدبوس وأصدرت أزيزا مخيفا وراح يلتهم بعضها البعض.

أما "ذئب الماء" الذي كان لا يزال مسترخيا على أريكته رغم كل هذه الجلبة والضوضاء، فقد تململ في مضجعه حينما سمع صياح آلاف السمكات المبصرات التي حاصرت كهفه، ثم انتفض غاضبا واندفع نحوهن بغية افتراسهن، إلا أنه أطلق صرخة هائلة حينما امتصت "شمس الشموس" الباهرة بريق عينيه، وراح يلعق في الطحالب اللزجة والفطريات، وينبش في الطين بحثا عن الديدان، ثم مشى مترنحا على حافة الينبوع الساخن ولم يشعر بالوهج الذي يلفح

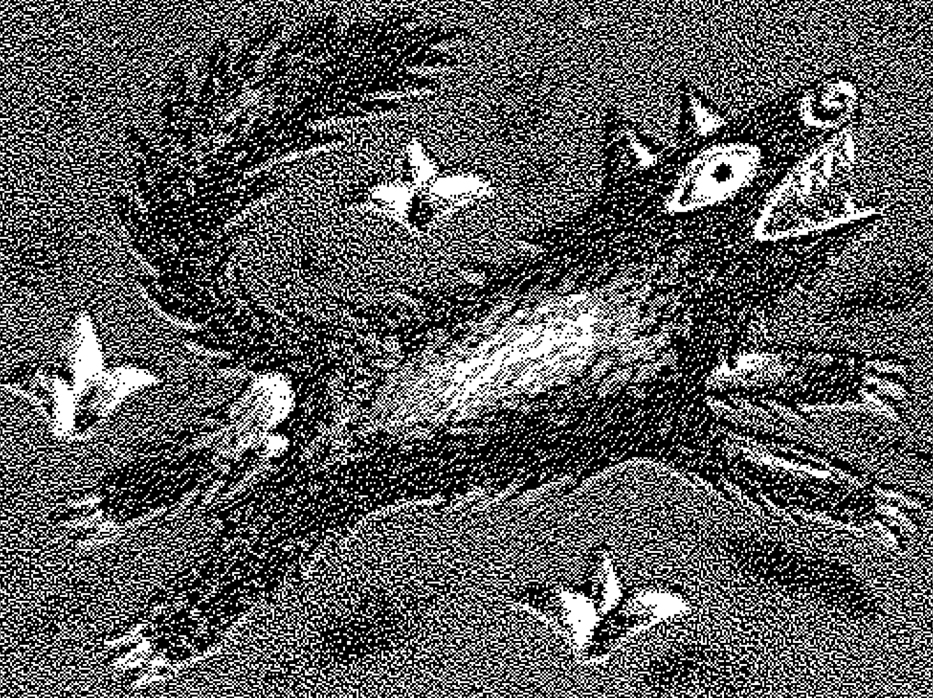
وجهه إلا حينما هوى فيه مثل ذبابة عمياء.



الرُّجُل الغُرابْ فى غابة الضبابْ

تأليف : نبيل خَلف

رسم : حلمى التونى



دار الشروق

الرجل
الغراب في غابة الضباب

الرجل الغراب في غابة الضباب

نبيل خلف

رسوم: حلمي التوني

الطبعة الأولى ١٩٩٦

دار الشروق، القاهرة

رقم الإيداع:١١٩٠٢/١٩٩٦

الترقيم الدولي: ISBN 977-09-0361-2

كان شادي منهمكا في رسم شجرة ، وما إن انتهى من رسم جذعها وفروعها وأوراقها حتى أحس بـــــالقلق، فقــد اكتشف أنها متشابهة تماما. نظر إلى أصابعه الصغيرة، وقال:

" إن أوراق الشجرة لا يمكن أن يشبه بعضها بعضا تمام الشبه " ، وعندئذ قرر أن يرسم الأوراق كالخنصر والبنصــــر والسبابة والإبهام والإصبع الوسطى.

جرى الأطفال نحو مقاعدهم حينمـــا لمحـــوا مـــدرس المعارف العامة والأنشطة قادما نحوهم ، وأخرجوا كتبهم.

اختطف طفل مشاكس كُرَاسَة الرسم من شـــادي ، ونظر إلى الشجرة في سخرية ، ثم مزقها. لَملم شـــادي بقايـــا شجرته المقطوعة وهو يبكي. وضـــع الوريقـــات والفـــروع المقطوعة على راحة يده ، وأخـــذ ينظـــر إليـــها في حســـرة. اقترب منه المدرس ، ثم قال غاضبا :

" انتبه لما أقول !"

قال له شادي والدموع تترقرق في عينيه:

" كيف نعيش لو قُطِعَت كل الأشجار في العالم ؟ ".

امتص هذا السؤال المفاجئ غضب المدرس ، فقال له:

" تحدث كارثة كبرَى يا بني . فأنت تعلم أن النبـــات يصنع غذاءه مستخدما ضوء الشمس ، وأنه يخرج من مســـام أوراقه الأكسيجين، ويمتص من الهواء ثاني أكسيد الكربـــون ، فيساهم بدرجة كبيرة في إمدادنا بالأكسجين النقـــي، الـــذي نتنفسه ، كما أن الماء الذي يفقده النبات وتبخـــره الشـــمس يتجمع في الفضاء على شكل سحب مع مصادر الماء الأخرى، ويعود إلينا أمطارًا ".

علّق شادي متسائلا :

" أي أننا معرضون للموت اختناقـــاً عندمـــا تمـــوت

الأشجار ، وتكف عن التنفس ، ونستنشق من الهواء قليلا من الأكسيجين وكثيرا من ثاني أكسيد الكربون وبقية الغازات السامة ".

قال له زميله المشاكس ساخرا بعد أن ابتعد المدرس قليلا:

" إنك تتحدث عن الشجرة وكأنها بشر – مثلي ومثلك – إنها صماء بكماء عمياء ، إنها جماد لا تشعر بما يحدث لها ".

نظر شادي في كراسة الرسم. وجد أوراق الشجرة تنتفض من الغضب ، ويهتز جذعها بعنف ، وتكاد فروعها تنكسر من فرط سخطها، ثم فوجئ بكلب الصيد الأسود ينبح بشدة منطلقا نحو الشجرة وخلفه تماما رجل له وجه أرنب وكرش منتفخة كالمنطاد ، وعامل يحمل منشارا ، وبعض الحراس.

تأمل شادي الرجل الأرنب جيدا ، وأحس بأنه يعرفه. .. من المؤكد أنه رأى من قبل هذه الكرش المتهدلة ، وهذه الأصابع القصيرة المكتنزة والقدم المفلطحة ، وتأكد من حدسه ، فقد استطاع شعاع نحيل أن يخترق تيجان الأشجار العملاقة ، وينير جبهة الرجل العريضة ، فصرخ شادي قائلا :

" إنه الرجل الغراب !!".

بدأ العمال في قطع الشجرة. دقت طبول الحرب ، وتقدمت جيوش النمل الأبيض نحو الشجرة المقطوعة ، حيث طوق الذكور ذوو الرءوس الكبيرة والفكوك القوية الشجرة المسكينة ، من أجل حماية الشغالات التي بدأت في التهامها بشراهة.

حاول شادي أن يبعد النمل بيديه الصغيرتين فلم يفلح. اتجهت نحوه عدة آلاف من جنود النمل الأبيض ، وانتشرت على جسده الصغيرة ، واستطاعت ان تجعله يترنح بعنف ، فكاد يسقط على الأرض.

أخذ شادي ينفض عن جسده بقايا النمل الميت ، وتأمل البقع الحمراء المنتشرة في يديه وقدميه من آثار لدغ النمل. أحس بدغدغة خفيفة على ذراعه اليسرى ، ولمح نملة شغالة تحاول الهرب. وقبل أن يمسك بها قالت له بصوت خفيض حاد:

" أرجوك ألا تقتلني ! فلا ذنب لنا فيما حدث. نحن قوم مسالمون ، لم نستطع الدفاع عن عشنا أمام هجوم النمل الأبيض ذي الفكوك القوية الذي قتل منا الكثيرين ، واستولى على اليرقات التي تبقت في العش ، لكي يستخدم أبناءنا خدمة



– فيما بعد – لبناء مستعمراته والعناية بصغاره والبحث عن الغذاء وتخزينه ".

قال لها شادي برفق :

" وأين تذهبينَ الآن بعد أن استولى النمل الأبيض على عشك وشرد أسرتك ؟ ".

ردت النملة الشغالة :

" سوف أبحث عن رفاقي لكي نبني عُشّاً في مكان جديد ، ونحاول استرداد اليرقات التي استولى عليها النمل الأبيض بعد أن نسترد قوانا ، ولن أنسى لك هذا المعروف ".
ثم رحلت النملة الشغالة وهي تنظر إلى شادي بامتنان.

اشتم شادي رائحة صمغية خفيفة منبعثة من شجرة الأجْبَا العملاقة المطلة على النهر الفضي الذي يخترق غابة الضباب ، خرج أخوه أمير من خلف الشجرة ضاحكاً .

قال شادي مندهشاً :

" متى أتيت ؟ ".

وأجاب أمير :

" لقد كنتُ معك منذ البداية ".

سمع الأخوان صوتاً يقلد صوت المطر الذي ينهمر فوق الأشجار المنتشرة على جانبي النهر الفضي، وسمعا طقطقة الفروع التي تتكسر، والضجة الناتجة من ضربات الفأس واستخدام المِنشار وحفيف الريش وضربات الأجنحة وخَشْخَشَة أوراق الأشجار التي ترتطم بها الأمطار طوال العام من دون توقف. ويبدو أن هذا الصوت كان يحاول تحذير الحيوانات والطيور والأشجار في غابة الضباب من خطر قريب!

كان الطائر القِيثَاريُّ المعروف بقدرته الفائقة على تقليد الأصوات هو الذي فعل ذلك . ولم يتوقف عند هذا الحد بل قام بزجر الشِّمْبَانْزِي الذي كان يلهو فوق شجرة قريبة ، وطلب إليه أن يساعد الطيور في حمل أفراخها وبيضها، فأخذ الشمبانزي يتنقل بخفة بين شجرة وأخرى، لكي يؤدي دوره.

هبط الطائر القِيثَاريُّ من شجرة الأَجْبَا ، واقترب من الأخوين وهو يغني أغنية حزينة مصحوبة بتغريد طيور الغابة وحفيف أوراق الشجر وخرير المياه في النهر الفضي، وقال لهما :

" إنهم يقطعون الأشجار الكبيرة والصغيرة – على حد سواء – من دون شفقة، ويلوثون النهر الفضي بالنُّفَايَات ".

قال له أمير :

" لم حذّرتَ الطيورَ والحيوانات ؟ إن الرجل الأرنب لم يَمْسَسْهُم بسوء ! " .

صاح الطائر القيثاري غاضبًا :

" إن وجهه الحقيقي وَجْه غراب لكنه يرتدي قناعاً ، ثم إن الغابة بطيورها وحيواناتها وأشجارها وأسماكها جسد واحد لا يتجزأ ، مصيرهم واحد ".

أحس أمير بالخجل ، واعتذر إليه بإيماءة من رأسه.

لمح شادي الرجل الغراب قادما ، وعاملا يحمل مِنشارا، وبعض الحراس متجهين نحو شجرة الأَجْبَا. وصفر الطائر القِيثاري للأخوين محاكياً صفارة الإنذار ، وأشار إليهما برفيف جَنَاحَيْه ، كي يختبئا خلف إحدى الأشجار. وإذ بدأ العامل في تقطيع الشجرة المسكينة ، فوجئ بطائر أبو قرن يطير كالمجنون نحو العُشِّ الذي وضعت زوجته بيضها فيه داخل تجويف في جذع الشجرة ، وأغلقت على نفسها بجدار من الطين.

همَّ أبو قرن بفتح الجدار الطيني بمنقاره الطويل ، وبزائدته الإضافية التي تشبه الخَوْذَة ، لينقذ زوجته وصغاره ، لكن الحراس أطلقوا عليه الرصاص. طار نحوهم بشجاعة

فائقة، وحاول أن يدميهم بمنقاره. وحينما لمح بقع الدماء الصغيرة تنثال على الشجرة، وأشلاء صغاره تتساقط على الأرض، والريش المخضب بالدم يتطاير حوله، هجم على الرجل الأرنب ونقره في وجهه، فتمزق القناع الذي يرتديه، وظهر وجهه الحقيقي: وجه غراب كئيب بشع المنظر. لكنه، أمسك الطائر المسكين من رقبته، وأخذ ينزع ريش الطيوان من جناحيه وهو يضحك ساخرا. انقض الشمبانزي عليه وعضه في يده، فصرخ الرجل الغراب من الألم، وجرى حارس نحو الشمبانزي ففر هاربا.

وعندما بدأ الرجل الغراب في خنق الطائر اقتربت منه النملة الشغالة التي كانت ترقب ما حدث، وقررت أن تفي بوعدها، وترد المعروف ألى شادي الذي شاهدته يبكي للطائر المسكين، فلسعت الرجل الغراب في إحدى يديه، ونفثت عليها الحامض لكي يشتد ألمه، حتى افلت أبو قرن من يديه.

طار أبو قرن هاربا في الاتجاه الذي سلكته زوجته، وأخذ الرجل الغراب يلعق يده بلسانه، ليخفف الألم، ثم أمسك بالنملة الشغالة وعصرها بيده، وأشار للعمال بالاستمرار في قطع الأشجار.

خرج شادي من مخبئه باكيا على النملة التي ضحت



بنفسها لتفي بوعدها حاملا حجرا مدببا نحو الرجل الغـــراب. رفرف الطائر القيثاري محاولا منعه؛ فقال له شادي :

" لابد من أن ننتقم من هذا الرجل الفظ القلب ".

قال الطائر القيثاري :

" لا تكن متهورا يجب أن نعد خطـــة لإنقـــاذ غابـــة الضباب من الرجل الغراب. ولك أن تعلم أنه لم يســـتطع أن يخدع كل الحيوانات بقناع الأرنب، لكنه نجح في خداع بعض الفيلة التي تحمل له كتل الأخشاب إلى النهر الفضي. ولكـــي نعد خطتنا، أرى من الضروري أن نلتقي بحكمـــاء الغابـــة : القرد العجوز والفيل العجوز والزرافة، حتى نقرر ماذا نفعـــل. ولا يوجد أمامنا إلا الطريق الموازي للنهر الفضي. فلنســـرع قبل أن يصحو الحراس !".

قالت أنثى فرس النهر لصديقتها :

" سوف أترك صغيري في رعايتك، وسأصعد إلى البر، لاقتلاع بعض الحشائش من اجل هذا الصغير الذي يبكي مـــن الجوع ".

همت بالصعود إلى البر فإذا بزنبق الماء الأبيض الـــذي يطفو فوق صفحة النهر الفضي يمد فروعه حـــول أرجلـــها

القصيرة القوية ، حتى كادت تتعثر . التفتت نحـــوه غاضبـــة، فبادرها قائلا :

" أرجوك ألا تغضبي ! فأنا أردت أن أقـــول لـــك إن الفيلة التي تحمل الأخشاب قد أكلـــــت معظـــم الحشـــائش والأعشاب ، ولم يتبق لك إلا القليل ".

فتحت أنثى فرس النهر فمها الواسع ، واقتربت مـــــن زنبق الماء الذي انتفض من الذعر ، وانكمشت أوراقه ، وحاول أن يغطس تحت الماء . لكنها أمسكت بفروعه ، وقالت :

" من يقدم النصيحة لابد من أن يضحـــي . وأنـــت لا تمانع – بالطبع – في أن أقدمك غذاء شهيا لصغيري الجائع ".

قال زنبق الماء باستكانة :

" إن وريقاتي مغطاة بالشمع وأخشى أن تؤذي معدته".

–فلتكف عن نصح الآخرين ، وعن هذا المزاح الثقيل ، ولتتركني لحالي ، فلابد لي من الحصول على بعض الحشـــــائش لصغيري الذي يكاد يموت جوعا. "

صعدت إلى البر، لكنها أحست ببعـــــض الشـــعيرات تدغدغ جسدها الممتلئ الأملس ، واكتشـــفت أن القرمـــوط يداعبها بشواربه ، فانفجرت من الضحك وحملته من زعنفتـــه

الظهرية ، وقالت له بغضب :

" لم صعدت على ظهري ؟ إن شواربك حينما تمرّ على جسدي تجعلني لا أستطيع أن أتوقف عن الضحك !".

– لقد أردت أن أصاحبك إلى البر ؛ لأني أحس بأن الهواء ملوث في النهر وأنت تعلمين أنني أستطيع أن أستنشق أكسيجين الهواء النقي بخياشيمي. كما أنني أحس بالجوع ، وسأبحث في الأرض عن بعض النباتات بعد أن تغير مذاقها في النهر الفضي نتيجة لما يلقونه فيه من مخلفات ونُفَايات مصنع الأخشاب.

– لكنني أخشى أن تدهمك الفيلة التي ستخرج بعد قليل عند طلوع النهار ، لنقل كتل الأخشاب.

قال القُرْمُوط ممتناً :

" سألتزم الحذر ، وسأعود إلى الماء قبل طلوع الشمس".

ضحكت أنثى فرس النهر حينما رأت القُرموط يترلق بعيدا خوفا من القَاوَنْد صائد السمك الذي كاد يمسك به ، إلا أنه أفلت منه في الوقت المناسب. واصطدم المِنقار الطويل لطائر القَاوَند الذي يشبه الخِنْجَر بالأرض ، فاخذ يئن ، وتابع

القرموط الهارب سيره مُغْتَاظا.

ظلت أنثى فرس النهر تطوف طَوَال الليل باحثة عـــن الغذاء من دون جدوى، لم تجد إلا بعض الحشائش والأعشاب المتناثرة المختلطة بنشارة الخشب، أصابها اليأس، وسال مـــن مسامها العرق الأحمر الوردي بغزارة، وتمتمت وهي تنـــدب حظها العاثر :

" من أين أحصل لك على الطعام يا صغيري ؟ ".

أحسَّت بيد صغيرة تهدهد رأسها، فانتفضت غاضبـة، وقالت :

" ألا تكفّ عن المُزاح أيها القُرْمُوط ؟ ". التَفَتَتْ أنثى فرس النهر فوجدت أميراً أمامها يتبسم ابتسامة وديعـــة، ثم يخاطبها قائلاً :

" لقد أردت أن أخفف عنك ".

نظرت إليه وإلى شادي والشـــمبانزي في دهشـــة، وتساءلت :

" من أنتم ؟ وماذا تفعلون في هذا المكان ؟".

قال شادي :

" نحن نبحث عن حكماء الغابة ، لنعد خطة لإنقاذ غابة الضباب من الرجل الغراب ".

نظرت أنثى فرس النهر إلى شجرة نخيـــل السُّـــكَّر في حزن، وقالت لهم :

" لقد رأيت هذا الرجل – ذات ليلة – وهو يحصـــــل على السُّكَّر من العصارة التي تسيل من أزهار هذه النخلـــة ، وكان مضطرا لخلع قناعه كي يشرب السكر ، ورأيت وجهـــه القبيح، وجه الغراب ".

قال أمير في دهشة :

" هل صحيح أن هذه النخلة تثمر سُكرًا ؟ " .

نظر الشمبانزي إلى النخلة فسال لعابه ، وقال :

" إنها صادقة فيما تقول ".

قالت أنثى فرس النهر لأمير وهي تتفرس الشمبانزي في خبث :

" دع الشِّمْبَانزي يتسلقها ، ويحضر لك بعضا من ثمارها وأزهارها ، لتتذوقها بنفسك " .

عقب الشمبانزي مستنكراً :

" إنها لا يكفيها طن من ثمرات هذه النخلة. أتجعلونـــني أصعد هذه النخلة عدة مرات حتى أوفر طعاما لها بـــدون أن أحظى بنصيبي من السكر. ثم إن الشمس تبخر ماء المطـــر، وتشبع الجو بالرطوبة، مما يجعل الصعود إلى النخلة أمرا شاقا، وقد يعرضني للاختناق ".

قال شادي ضاحكا :

" لا تكن أنانيا. إنها تبحث عن طعام لصغيرها، ولا بـد من أن نساعدها. وأنت الوحيد القادر على تسلق النخلــــة. وسأقوم أنا بإرشادها إلى بقعة ارض تكثر فيها الحشائش.

مصَّ الشمبانزي إصبعه خجلاً! وحينما همّ بصعـــــود النخلة سَرَت في جسده قُشعريرة، فقد مرّ القُرمـــوط علـــى قدميه، وعضّه برفق، مما جعله ينتفض مذعوراً.

– " لا تنسَ نصيبي من السكر ". قالها القُرموط متأدبًا.

حاول الشمبانزي أن يمسك به لكنه انزلق بعيدا، بينما أخذ هو يهذي قائلاً:

"عجبا ! هل تأكل الأسماك السكر ؟! ".

انفجر الجميع ضاحكين، وقالت أنثى فرس النهر :



" لا تتعجب، لقد اختلط الحابل بالنابل. فمنذ أن دخل الرجل الغراب الغابة تغيرت طبيعة الأشياء، الحيوانات آكلة اللحوم قد تأكل الأعشاب عند الضرورة، وآكلات الأعشاب قد تفترس الحيوانات الصغيرة أحيانا، والأسماك قد تأكل السكر إذا وجدت النهر ملوثا ".

لم يقتنع الشمبانزي بهذا الكلام، وأخذ يتفرس وجوههم، وينظر إليهم في بلاهة، ثم صعد النخلة وهو يتمتم بكلام غير مفهوم.

تمايلت شجرة الماهوجني طربا لدغدغة نقار الخشب الذي تعلق بجذعها وارتكز عليه بذيله المتصلب، وأخذ يلتقط الحشرات من نقر حفرها، عن طريق ضربات متلاحقة من مِنْقَاره الإزْمِيليّ مستخدما لسانه في سحبها للخارج. ضَرَبته الشجرة بأحد فروعها على ذيله، حتى يَكُفّ عن ذلك .

ثم قالت للغوريلا التي كانت تجمع أغصاناً كثيرة من الأرض :

" ماذا تفعلين أيتها الحمقاء ؟."

أجابتها الغُورِيلا :

" لقد اقترب الليل، وهاأنا أصنع محفّة من الأغصان

عند فروعك السفلية، كي أنام عليها أنا وأسرتي " .

ردت الشجرة بغضب :

" لن اسمح لك بذلك " .

علقت الغُورِيلا مندهشة :

" لم هذا التحول المفاجئ منذ سنوات طوال وأنا أنام على فروعك، فكيف تحرمينني هذا الحق ؟ " .

واقتربت الغُورِيلا من الشجرة لتعد المخفّة فلطمتها الشجرة بأحد فروعها على رأسها المدبب . دقت الغُورِيلا صدرها بيدها من الغضب، وأخذت تضرب جذع الشجرة بكلتا يديها. حملتها الشجرة بفرعين توءمين، وألقت بها على الأرض الطينية قائلة:

" عن أي حقّ تتحدثين؟ أتنامين مُرْتاحة البال والرجل الغراب يقطع الشجرة تلو الأخرى، ويلوث بالنُفايات النهر الفضي الذي ترتوين منه، وغابة الضباب معرضة للدمار، وأنت لا تفعلين شيئا ؟ "

طأطأت الغوريلا رأسها خجلا، وقالت:

" سوف أذهب في الحال إلى القرد العجوز والفيل العجوز والزرافة، وأحضرهم، لنعقد اجتماعا نقرر فيه ماذا

نفعل، وسأترك صغاري في رعايتك " .

ثم تحولت إلى ذكر اللقْلَق قائلة " هل تأتيّ معـــي ؟ "، بينما كان يتبادل وزوجته التحية عند مدخل العُشّ – برفـــع الرأسين وطقطقة المنقارين – قبل أن يبدأ نوبتـــه في حضانـــة البيض وحراسة العُش .

وأجاب اللقلق :

"لقد عدت توا لأبدأ نوبتي في الحراسة " .

سوف أسبقك إلى هناك، وحاول أن تلحق بي.

قالت أنثى اللقلق لزوجها :

" اذهب معها لتؤدي دورك في إنقاذ الغابة، وســـأقوم بدلا منك بحراسة العُش".

اقترب شادي وأمير والشمبانزي من شجرة المـلهوجني وقلد الطائر القيثاري النداء الشهير لطائر الوقواق : " كـــو.. كو "، إذ لمحه يقترب من عش اللقلق ليسطو عليه، ويطـــرد صغاره .

وحينما همّ الوقواق بإحضار بيضه الـــذي يخفيـــه في تجويف الشجرة، ليضعه في عش اللقلق تاركا إياه في حضانـــة أبوين آخرين – جريا على عادته الرذيلة – سمع ذكر اللقلق

صفارة الإنذار التي أطلقها الطائر القيثاري، وانقض على الوقواق اللص مدافعا عن عشه، ودارت بينهما معركة دامية، استطاع خلالها الوقواق أن يدمي اللقلق بمنقاره .

طارت أنثى اللقلق بعيدا وهي تحمل صغارها.

غضبت شجرة الماهوجني لما حدث، وحاصرت الوقواق اللص بفروعها المتشابكة، وقالت له بغضب :

" إن لم تكف عن السطو على الأعشاش الأخرى فسوف أحطم رأسك، وألقنك درسا لن تنساه " .

قال لها الوقواق اللص مستعطفا، بعد أن كادت فروعها تعصره عصرا :

" أرجوك أن تبعدي تلك الفروع القوية عن جسدي النحيل ! أكاد أموت اختناقا ! " .

قالت له الشجرة :

" لن تجد عشا يأويك بعد أن يدمر الرجل الغراب غابة الضباب، ولا بد من أن نتحد سويا لمواجهة هذا الخطر " .

أحس الوقواق بأن الأغصان الملتفة حول جسده بدأت ترتخي قليلا، ورأى ثعبان المامبا الأخضر يزحف نحوه بسرعته القصوى، فأسرع بالفرار، وقال للشجرة مغتاظا :



" سوف اذهب إلى الرجل الغراب، وأطلب إليـــه أن يمزقك إربا " .

ثم طار بعيدا، وهو يردد نداءه البغيض : كو ..كو" .

رأى الأخوان اللقلق الجريح من جراء معركته الداميـة مع الوقواق اللص متعلقا بأحد الفـــروع الســـفلية لشـــجرة الماهوجني، وهو يئن من جروحه – حاول أمـــير أن يتســـلق جذع الشجرة ليصعد إليه، لكنه تعثر عدة مرات بسبب قصر قامته. مدت الشجرة فرعا من فروعها وجذبت أمـــيرا مـــن جذعه وبينما هو يقترب من اللقلق كان الشمبانزي يتســـلق فرعا آخر محاولا إنقاذ اللقلق .

سقط اللقلق المسكين على الأرض قبل أن تمتد يد أمـير أو الشمبانزي إليه أخذ ينبش في الطين، كي يخفـــي بيضـــة سقطت من عُشه على كومة من القش المبتل فلم تتكسر، عـلّ الجنين الذي بداخلها يجد فرصة في الحياة. ثم مات !

بكى الأخوان . وجرف شادي ماء المطر الذي امتلأت به الحفرة، ثم وضع بيضة اللقلق فيها، وغطاها بكومـــة مـــن القش.

أطلق الطائر القيثاري صفارة الإنذار، فاختبأ شـــادي

وأمير والشمبانزي خلف كومة من الخشب. ومـــن مخبئـــهم شاهدوا الرجل الغراب والحراس والعامل الذي يحمل المنشـــار مقبلين نحو شجرة الماهوجني .

أخرج الرجل الغراب بيضة اللقلـــق مـــن الحفـــرة، وكسرها، ثم شرب محها. وضع قدميه على جثـــة اللقلـــق، وقال للوقواق اللص ضاحكا:

" أخذت بثأرك ! "

رفرف الوقواق حوله، وأخذ يدور حول الشـــجرة في دورات متتالية وهو يردد نداءه البغيض :كو... كو ".

انتفضت شجرة الماهوجني غضبا، واهتز جذعها بعنف، وتأرجحت غصونها كأن عاصفة هوجاء تكـــاد تقتلعـــها، أو بركانا هائجا يفور تحت جذورها.

ارتعشت يد العامل الذي يحمل المنشار، وقال للرجـــل الغراب :

" إنها تحس بما سوف يحدث لها " .

زجره الرجل الغراب قائلا :

" إنها صماء بكماء عمياء، مجرد قطعة مـــن الخشـــب الميت . فلا تنطق بالخرافات " .

اغتاظت شجرة الماهوجني لهذا الوصف، ولطمت الرجل الغراب بكتلة من فروعها الصلبة تشبه قبضة اليد، فسقط على الأرض غير مصدق لما يراه، ابتلت ملابسه واتسخت من الطين، وصاح قائلا :

" فلنبدأ فورا في قطع هذه الشجرة المجنونة " .

التقط أمير حجرا مدببا وجهز مقلاعه وقذف الحجر نحو العامل، فسقط منه المنشار. ولما حاول التقاطه انثنت شجرة الماهوجني فوقه وفوق الرجل الغراب، حتى كادت تلامس الأرض بفروعها. صرخ الرجل الغراب من الرعب وهو يحاول أن يبعد الشجرة عن صدره بكلتا يديه بدون جدوى.

عادت الشجرة إلى وضعها الطبيعي بعد أن لمحت نقار الخشب متجها نحو العامل، حيث وجه إلى جسده ضربات متلاحقة بمنقاره الإزميلي، وزحف ثعبان المامبا الأخضر نحو الرجل الغراب، فنهض مذعورا ولاذ بالفرار خوفا من عضته القاتلة، وتبعه الحراس والعامل الذي أثخنته الجروح.

أسرع شادي وأمير واحتضنا الشجرة التي دافعت عن نفسها ببسالة. ورقص الشمبانزي على فروعها فرحا. وقالت الشجرة بانفعال :

" لابد من أن تلتقوا بالفيل العجوز والقرد العجوز والزرافة، فهم حكماء الغابة. ولقد أرسلت الغوريلا تستدعيهم، حتى تقرروا معهم ماذا تفعلون لإنقاذ غابة الضباب ".

ثم قطعت ثلاثة فروع من فروعها الصلبة، وأعطت كل واحد فرعا، حتى يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم إذا قابلهم الحراس.

قالت الترسة النهرية التي تسمى بالسلحفاة المائية لأنثى فرس النهر :

" انظري، إن سمكة الشمس قد صعدت إلى سطح الماء.. يبدو أن النهار قد طلع، فهي لا تنشط إلا في ضوء الشمس ".

قالت أنثى فرس النهر وهي تتفرس الجسد العريض المفلطح للسمكة وزعنفتها الظهرية الطويلة:

" إن لونها فقد نضارته، وزعنفتها الظهرية بدأت ترتخي، لقد صعدت إلى السطح لكي تموت. أظن أنها التهمت طعاما ملوثا بنفايات مصنع الأخشاب. تبا للرجل الغراب فله في كل يوم ضحية !".

احتضن زنبق الماء الأبيض السمكة المحتضرة، وانثـــال من ثماره الحمراء التي تشبه البرقوق دموع تشـــــبه الزيـــت، وزيت يشبه الدموع، ورفعها عاليا بأحد فروعه الطويلة، علّها تعيش عندما تمتص دفء الشمس.

هبطت من السماء ظلال حمراء وخضــــراء وصفــراء وبيضاء، واخترقت تيجان الأشجار العملاقة، والتفّت حـــول سمكة الشمس كأنها تابوت فرعـــوني، واحتضنـــت الظـــلال البنفسجية والبرتقالية والزرقاء زنبق الماء الأبيض، لتكفكـــف دموعه وتجمعت الظلال، واكتملت بنت الشمس ضَيّ، كـــان وجهها شاحبا، ويطغى على فستانها اللون الأصفر الباهت .

تنهدت أنثى فرس النهر وقالت :

" ياله من صباح كئيب ! " .

سبح القرموط مسرعا نحو الترسة النهرية، وصعد فوق جسدها المغطى بصندوق زيتوني رخو، وصرخ قائلا :

" لقد داست الفيلة على بيضك الذي دفنتـــه جـــوار الشاطئ، وكسّرت معظمه " .

صرخت الترسة النهرية، وأجهشت بالبكـــــاء علـــى أولادها الذين ماتوا قبل أن يولدوا، وأخذت تلطم سطح المـاء

بأطرافها الأربعة المتحورة إلى عوامات .

غضب النهر الفضي لهذه اللطمات، وأخذ يفور كـأن بركانا قد سخّن ماءه إلى درجة الغليان، وتزلزل قاع النـهر، وفقدت الاسماك والحيوانات النهرية توازنها، وطار بعضـها في الهواء، وغاص البعض الآخر في القاع كمن يهوي من قمـة الجبل إلى بطن الوادي .

صاح النهر الفضي في وجه الترسة النهرية التي كـانت تحاول أن تسبح مسرعة نحو الشاطئ، واكتشفت أنها تـدور في دوامة، فأصيبت بالدوار :

" هل امتلكت الجرأة حتى تكيلي إليّ اللطمات ؟ " .

قالت الترسة النهرية باستحياء :

" لقد دهمت الأفيال بيضي، ففقدت رشدي . كيـف أعيش بدون ذرية، وبدون أبناء أرعاهم حتى يشبوا ويرعـوني حين أشيخ ؟ " .

قال لها النهر الفضي بعد أن هدأت ثورته :

" البكاء لن يعيدهم ! " .

قالت الترسة النهرية بأسى :



" سوف أشكو الفيلة لسيدها الرجل الأرنب إنه لن يرضى بما حدث، ولا بد من أنه سوف يعاقبها " .

صرخ النهر الفضي صرخة هائلة أفزعت الأسماك والحيوانات النهرية، وقال :

" إنه الرجل الغراب – أيتها الحمقاء – وهو سبب كل هذه المصائب " .

سبحت الترسة النهرية نحو الشاطئ كأنها لم تسمع صرخة النهر الفضي، أو أصابها الصمم من شدة حزنها، وفي أدبارها سبحت أنثى فرس النهر، لتردها عن عزمها فلم تستطع اللحاق بها، لأن الترسة النهرية تستطيع السباحة بسرعة فائقة في الماء . وقد وصلت إلى الشاطئ، وأخذت تنبش باحثة عن بيضها فلم تجد إلا القشور والمح الذي امتزج بالطين، فتوجهت – من الفور – إلى القلعة الخشبية، كي تشكو الفيلة إلى الرجل الأرنب .

لمح أمير الذيل الفضي للطائر القيثاري يرتعش كالمروحة محدثا خشخشة في أوراق الشجرة التي يقف عليها ليرقب الطريق، ثم استدار نحوهم وقلد جؤار الفيلة ونباح كلب الصيد الأسود .

اختبأ الجميع خلف إحدى الأشجار العملاقة حال سماعهم صفارة الإنذار . وبعد قليل رأوا قطيع الفيلة وهي تحمل كتل الأخشاب وتمشي نحو النهر بتثاقل، وقد بدا عليها الإرهاق الشديد . حملقت بعض الفيلة في البقعة التي كانت ملأى بالعشب والتهمته أنثى فرس النهر، وأصدرت هديرا مخيفا، ثم ألقت بحمولتها من الأخشاب، واندفعت كأنما أصابها مس من الجنون، واقتلعت عدة أشجار صغيرة، والتهمت أوراقها وثمارها بنهم شديد .

اختبأت الترسة النهرية خلف شجرة الماهوجني، لكيلا تدهمها الفيلة. واتجه فيل صغير جائع إلى الشجرة نفسها، ولف خرطومه حولها محاولا اقتلاعها بدون جدوى . أخذ يصرخ ويغرس أنيابه في جذعها. وحينئذ اندفعت أنثى الغوريلا وصغارها نحو الفيل الهائج، وصنعت سدا يحمي الشجرة من جنونه وعدوانه، فتراجع الفيل الصغير يائسا، وقالت له شجرة الماهوجني في حزن :

" لقد تغير حال الدنيا – أيها الفيل الناكر للجميل – هل نسيت حينما كنت وليدا وكاد الضبع يفتك بك، لولا أن ضربته أنا بأحد فروعي القوية ففر هاربا ؟ " .

انتهزت الترسة النهرية الفرصة لتشفي غليلها، وقالت

للشجرة :

" لابد من أن نضع حدا لجنون الفيلة وهمها، أنها تلتهم كل شيء في الغابة، ولا تأبه بأحد، لقد كسرت بيضي، وقتلت أولادي . سأقدم تظلما إلى الرجل الأرنب، وسأحكي له ما فعله الفيل الصغير معك، حتى يعاقبه " .

قالت الشجرة بغضب :

" إنه الرجل الغراب – أيتها الغبية – ولن اسمح لك بالذهاب إليه، حتى لا يغتنم الفرصة ويؤذي الفيلة " .

قالت الترسة النهرية مندهشة :

" أتدافعين عنهم بعد كل ما حدث ؟ " .

ـ إنهم ضحايا الرجل الغراب. ومن الضروري أن نتحد سويا حتى نطرده من الغابة .

طأطأ الفيل الصغير رأسه خجلا، ودمعت عيناه، ومد خرطومه نحو جذع الشجرة وقبلها، وقال :

" لقد تعلمت اليوم درسا لن أنساه "

مضى الفيل الصغير في طريقه، وانضم إلى رفاقه الذين يحملون كتل الأخشاب، وحكى لهم ما حدث مع شجرة

الماهوجني . أما الترسة النهرية فقد أصــرت علــى موقفــها، وقالت للشجرة وهي تهم بالذهاب إلى القلعة الخشبية لتشــكو الفيلة إلى الرجل الأرنب :

" إنك شجرة بلهاء " .

وإذ لمحت فرعا يمتد نحوها محاولا الإمساك بها أســرعت في طريقها متزلقة على الصندوق الرخو الذي يغطي جسدها .

صرخت شجرة الماهوجني، واستغاثت بكل شيء ستمر عليه الترسة النهرية في طريقها، ليحول بينها وبــين الرجــل الغراب : بالحشائش والأعشاب، بأوراق الأشجار المتنــاثرة على الأرض، بالديدان والحشرات المرئية وغير المرئية، بنقــار الخشب وثعبان المامبا الأخضر . مدت أفرعــها إلى الســماء، واستغاثت بالمطر الذي يسقط طوال العام مــن دون توقــف لينهمر كالسيل، ويملأ الأرض بركا ومستنقعات تعوقها عــن الحركة . صرخت الغابة كلها صرخة واحدة مدوية، حتى تمنـع الترسة النهرية من بلوغ قلعة الرجل الغراب الخشبية، لكنــها أصمت أذنيها، ومضت في طريقها لا تبالي بشيء، صنعــت الحشائش والأعشاب والديدان والحشرات وبقايا الأشــجار المقطوعة سدا أمامها، لكنها انزلقت فوقه، ولم تأبه لصراخــهم، وسبحت في البرك والمستنقعات التي صنعها المطر في طريقــها



غير مبالية بالطين الذي جعل بطنها الأبيض أسود كالفحم .

أخيرا، وصلت إلى مقصدها. وجدت الرجل الغــراب واقفا على الباب يبتسم ابتسامة صفراء كأنه يتحــدى غابــة الضباب بأسرها. كان يلوح إليها بيده اليمنى مرحبا، وبيــده اليسرى يلوح بهدية من الأسماك الصغيرة والديدان التي تحبــها كثيرا .

وما إن اقتربت من الرجل الغراب حتى توقفت فجـأة، إذ خرج من الباب الخشبي رجل عجوز يرتدي معطفا أبيــض ويدخن السيجار !

قال لها الرجل الغراب:

" لا تخافي، إنه عالم جليل، ولقد استدعيته – من الفـور – من بلد أجنبي حالما علمت أن الفيلة قد دهمت بيضك عنـد شاطئ النهر، وهي تتصارع من أجل أن تلتــهم الحشــائش والأعشاب " . وأكمل الرجل الغراب : " هذا الطبيب الـذي يقف أمامك سوف يستطيع بجراحة بسيطة يجريها للفيلــة أن يوقف شراهتها إلى الطعام، حتى لا تؤذي أحدا في الغابة. وهي لن تشعر بالجوع بعد هذه العملية، ولن تــأكل شــيئا إلا إذا أمرها بذلك " .

وحين هم الرجل الغراب بإعطاء منحته من الأسماك الصغيرة والديدان إلى الترسة النهرية، سمعت نداء نقيقيا خشنا. تراجعت إلى الخلف مذعورة حينما انقض الغراب الأسود على يد الرجل الغراب، واختطف الأسماك الصغيرة والديدان . حاول الرجل الغراب أن يمسكه من ذيله الذي يشبه الإسفين فلم يفلح .

نظرت الترسة النهرية في ذهول إلى الغراب الأسود ! رأت البقع الزرقاء التي تمتد فوق وتحت عينيه، فانقبض صدرها، وانكمشت في صندوقها الرخو، لكيلا تطيل النظر إليها.

اقترب الشمبانزي من شادي وأمير، وأخذ يجذبهما ويحثهما على السير إلى القلعة الخشبية. قالت له ضيّ : " ماذا بك ؟ هل جننت ! ".

رد الشمبانزي وهو يلهث :

" إنهم يسوقون بعض الفيلة إلى القلعة الخشبية، وسوف يجرون لها عملية جراحية تجعلها لا تشعر بالجوع، لتعمل طوال اليوم في نقل الأخشاب، ولا تضيع الوقت في التهام الطعام "

قال أمير ساخرا :

" يبدو أنه قد شاهد أحد أفلام الرعب السخيفة " .

أجابه الشمبانزي غاضبا :

" لن أقبل منك بعد الآن نبرة التهكم والسخرية، وسأصحبك أو سأصطحبك إلى القلعة الخشبية لترى بعينيك غرفة العمليات التي تعد من أجل إجراء عملية في المخ للفيلة، لئلا تُضيّع ست عشرة ساعة في اليوم من أجل تناول الطعام ".

ربت أمير على كتفه، واغرورقت عيناه بالدموع، وقال:

" ماذا سيفعل بالفيلة هذا الرجل الشرير ؟ من الممكن أن تجوع حتى الموت ! "

قال شادي :

" لابد من إنقاذ الفيلة قبل إجراء العملية " .

وقالت ضيّ :

" فليحاول الشمبانزي التسلل إلى داخل القلعة الخشبية، لكي نعرف مكان إجراء العملية ويمكنه أن يحدث ارتباكا في صفوف الحراس داخلها " .

وأضاف أمير :

" وفي غضون ذلك يمكننا الدخول إلى القلعة، وتعطيل إجراء العملية " .

فتح الحراس بوابة القلعة الخشبية للرجل الغراب الذي اصطحب معه الترسة النهرية ليعد لها مأدبة من الأسماك والديدان، بدلا من تلك التي اختطفها الغراب الأسود .

قال الرجل الغراب للترسة النهرية :

" سوف أجعلك تشهدين بعد مأدبة الطعام كيف قدمت حلا لمشكلة الغذاء في الغابة " .

قالت له الترسة النهرية مستغربة :

" ماذا تقصد ؟ " .

قال الرجل الغراب ضاحكا :

" سوف تعرفين مقصدي عندما تشاهدين العملية التي ستجرى للفيلة بعد قليل والتي سبق أن حدثتك عنها " .

تسلل الشمبانزي خلفهما. رآه أحد الحراس فجرى وراءه، وصوب بندقيته نحوه .

قالت الترسة النهرية للرجل الغراب :

إمنعه من قتل الشمبانزي ! " .

وصرخ الرجل الغراب قائلا :

" هل جننت – أيها الحارس – إنه حيوان لطيف يريد أن يلهو فحسب . ثم انتزع البندقية من الحارس، وألقى بها على الأرض . وتحول إلى الشمبانزي الذي كان يرتكز على أحد العمدان الخشبية قائلا :

" لا تفزع – يا صديقي الصغير – أرجوك أن تهبط ! فأنا أدعوك إلى مأدبة طعام شهية، وسوف اصطحبك مع الترسة النهرية – بعد ذلك – لتشهد العملية التي ستجرى للفيلة بعد قليل، وستجدها في المستقبل قانعة راضية بما يقدم إليها من طعام " .

هبط الشمبانزي مسرعا، وأخذ يلتقط التحف الزجاجية الثمينة التي تعج بها الغرفة ويلقي بها على الرجل الغراب الذي أصابه الذعر، فاختبأ خلف مقعد خشبي، ينظر في ذهول إلى تحفه التي تتكسر على الأرض، وقال للترسة النهرية التي كانت ترتجف من الرعب:

" أيرضيك ما يحدث ؟ لقد أتلف تحفا قيمتها لا تقدر بمال " .

– يبدو أنه قد جن! هل يمكنك أن تعرضه على

الطبيب، فقد يجد علاجا نافعا يعيد إليه عقله .

ضحك الرجل الغراب من سذاجة الترسة . وأمر حارسا بإلقاء القبض على الشمبانزي باستخدام الطلقات المخدرة، وإدخاله إلى غرفة العمليات لتجرى له العملية التي ستجرى للفيلة .

دخل شادي وأمير متسللين إلى القلعة، وشاهدا الشمبانزي مخدرا تماما والحارس يحمله صاعدا به الدرج الخشبي .

قال أمير لأخيه :

" لابد من أن ننقذه، لقد ضحى بنفسه من أجلنا ".

أجابه شادي قائلا:

" لا تكن متهورا ! لو حاولنا الآن إنقاذه لقبضوا علينا بدون أن نتم مهمة إنقاذ الفيلة، يجب أن نلجأ إلى العقل حتى ننقذ الفيلة، وننقذه في الوقت نفسه " .

لم يقتنع أمير بكلام أخيه، وانطلق حاملا حجره المدبب، وضرب الحارس على رأسه، فسقط على الدرج الخشبي وهو يصرخ من الألم .

حمل أمير الشمبانزي بصعوبة، وحاول الفرار، إلا أن



الحراس حاصروه من كل جانب . انطلق شادي نحـــو أخيــه محاولا إنقاذه، فقبض الحراس على الأخوين .

اقترب الرجل الغراب منهما، وقال ضاحكا :

" لقد أسديت إلى الترسة النهريـــة معروفـــا حينمـــا نصحتني بأن أعيد إلى الشمبانزي عقله بعملية بسيطة، وأنتمـــا – ولا شك – تحتاجان إلى العملية نفسها، حـــتى تســـتعيدا عقليكما واتزانكما، إنني سوف أقدم حلا لمشـــكلة الغـــذاء ومشكلة الجنون في الغابة، في آن واحد .

أحست ضيّ بالقلق على شادي وأمير والشـــمبانزي، وأخذت تحوم حول القلعة الخشبية، وتنظر في هلع من نوافذها وخلال الشقوق التي تتخلل خشب الأشجار، ولم تجـــد أثـــرا لهم.

استجمعت قواها التي وهنت بســـبب الظـــل الـــذي يسيطر على غابة الضباب، حلقت فوق القلعة وسرت حولهـا وتوقفت عند إحدى النوافذ، حيث رأت الفيلة ممددة علـــى أسرة ضخمة وقد خدرت تماما، بينما يجري لها الأطباء عمليـــة في المخ .

فرغ الأطباء من العملية. وقال الطبيب العجـــوز ذو

الشعر الأبيض للرجل الغراب وهو يضحك ساخرا :

" منذ هذه اللحظة ستعمل الفيلة طوال الوقت في نقل الأخشاب من دون كلل، ولن تأكل إلا قسرا " .

صرخ شادي الذي كان يقف في غرفة العمليات ومعه أخوه أمير والشمبانزي :

" كيف ترضى باستخدام العلم في الشر ؟ وكيف تساعد الرجل الغراب في تنفيذ أغراضه الشريرة ؟ ".

قال الطبيب ساخرا :

" يالك من طفل ساذج لا تفهم حقيقة الأمور ! أنا لم أتلق أجرا نظير العملية، لأن هذا الرجل الفاضل أتاح لي الفرصة لإجراء تجاربي العلمية على الفيلة، أي أنه قدم خدمة جليلة إلى العلم والعلماء " .

ضحك الرجل الغراب، وقال للطبيب :

" لقد ذكرت لي في حديثك الشيق – منذ شهور – أنك أجريت بعض التجارب على الحيوانات المفترسة لاستئصال دوافعها العدوانية .. وقلت أيضا إنك تنوي – في المستقبل – إجراء هذه التجارب على البشر الذين يعانون من الداء نفسه .. "

أجاب الطبيب ضاحكا :

" لك ذاكرة قوية تحسد عليها !"

قال الرجل الغراب وهو يشـــير إلى شـــادي وأمـــير والشمبانزي :

" هذه إذن فرصة العمر .. نماذج أقدمها إليك – مجانـــا – لتجري عليها تجاربك " .

صرخ طبيب شاب معترضا :

" إن التجربة قد فشلت مع القرود، فكيف تجريها على البشر ؟ ".

التقط الشمبانزي أنفاسه، وقال لشادي هامسا :

" هذا الطبيب سوف ينقذنا من الهلاك " .

قال له أمير :

" لا تكن متعجلا، إنه لن يستطيع أن يفعل شيئا " .

قال الطبيب العجوز للطبيب الشاب :

" إنك لا تزال حديث الخبرة، وقد جئت هنـــا لكـــي تطلع على تجاربي العلمية، وتتعلم منها، فلا تتدخل فيمـــا لا يعنيك . من المستحيل أن أدع هذه الفرصة تفلـــت مـــني –

وعندما تنجح تجاربي على البشر فإنني سأحقق مجـــدا علميـــا وشهرة في العالم لا تدانيها أي شهرة " .

أفلت شادي من حارسه، واندفع نحو الطبيب العجــوز يضربه بكلتا يديه وقد أجهش بالبكاء. رفعه الطبيـــب بيديـــه ضاحكا، وأمر الممرض أن يعطيه حقنة مخدرة .

صرخ أمير قائلا :

" اتركوا أخي أيها الجبناء !".

وعض الحارس في يده، لكنه ضربه على رأسه، فوقـــع على الأرض مغشيا عليه.

وخرج الطبيب الشاب مدعيا الإجهاد، حتى لا يشارك في هذه الجريمة .

بكت ضيّ كما لم تبك من قبل .. دموعـــــها كـــانت قطرات من الضوء، تلألأت على زجاج النـــافذة، وســـقطت على وجه الطائر القيثاري الذي كان يستند إلى جذع إحـــدى الشجرات العملاقة، فالتهبت حواسه – من الفور – وأطلـــق صفيرا يشبه النحيب !.

نظرت ضيّ في حزن إلى النباتات المتسلقة والطفيليـــة التي تلتف حول الأشجار العملاقة كخيوط العنكبوت، فتربط



أغصان الشجرة الواحدة معا، وتشد الجذوع شدا قويا بعضها إلى بعض، وتحجب الشمس عن الأشجار وعن غابة الضبلب، وتحرمها من قوتها وقدرتها عل النفاذ من زجاج النافذة لتنقذ أصدقاءها من قبضة الرجل الغراب .

طار الطائر القيثاري نحو ضيّ، ووقف جوارها . نظر من النافذة وشاهد شاديا وأميرا والشمبانزي ممددين على الأسرة مخدرين، والأطباء يستعدون لإجراء العملية لهم، وقال مخاطبا ضيّ :

" هل نترك هؤلاء الأشرار يفعلون ذلك بأصدقائنا ؟!.

قالت ضيّ في حسرة :

"ليت بنت الريح العاصفة تحضر الآن وتمزق هذه النباتات المتسلقة التي تحجب الشمس عني، وتحرمني من قوتي ! لكنها لا تأتي إلى الغابة كثيرا، وحين تأتي تكون الشمس قد رحلت، وأكون قد رحلت .

أطلق الطائر القيثاري صوتا يشبه زئير العاصفة، وظل يهيم بين الأشجار كالمجنون باحثا عنها . هدأت ثورته لحظة أن سمع صوت تهشم الأغصان ولمح بنت الريح العاصفة وهي تكسر النباتات المتسلقة والطفيلية التي تحجب ضوء الشمس .

استعادت ضيّ قوتها ونضارتها، وتسللت من النافذة في اللحظة المناسبة. قبل أن يهم الطبيب العجوز باستخدام المشرط، سلطت على يده شعاعا جارفا من عينيها المستعرتين غضبا . صرخ الطبيب من الألم، وسقط المشرط من يده . تراجع الأطباء إلى الخلف مذعورين وهم يحملقون في ضيّ، وأغمضوا عيونهم، إذ نظرت ضيّ إليهم شَزْراً .

أفاقت الفيلة . نهضت من أسرتها وأخذت تنظر حولها في ذهول .

انتصب أحدها – وكانت شفته العليا مشقوقة من أثر جرح قديم – وأصدر هديرا مخيفا، وإذا به يلتهم كل شيء في الغرفة من القفازات البلاستيكية إلى الزجاجات الفارغة، وشرع يحطم السرير الخشبي محاولا التهامه ثم اندفع نحو الأطباء كالإعصار، فتقافزوا فوق المنضدة الخشبية، وتعلقوا بأحد العمدان الخشبية في سقف الغرفة وهم يرتعشون من الرعب .

دخل خادم قزم مسرعا لما سمع الجلبة والضوضاء . اندفع نحوه الفيل الهائج فخرج مذعورا .

ركزت ضيّ بصرها على الفيل الذي فقد صوابه، فتراجع ببطء وهو ينظر في ذعر إلى عينيها الحمراوين. تقدمت

نحوه بهدوء، وأعطته حقنة مخدرة ثم ارتمت على السرير باكية .

هبط الأطباء من السقف . التفتت ضيّ نحو الطبيب العجوز، وقالت :

" لقد أتت تجربتك بنتائج عكسية، فهذا الفيل سيظل يأكل حتى يموت من التخمة إذا لم يمنعه أحد " .

قال لها الطبيب العجوز في توتر :

" ولكن انظري إلى الفيلة الأخرى، إنها هادئة، ولم تسلك سلوكه " .

دخل الخادم القزم حاملا كتلة من الأعشاب والحشائش ليقدمها إلى الفيل الهائج . وإذ وجده مخدرا، فقد تقدم نحو الفيلة الأخرى، وقرب إليها كتلة الأعشاب والحشائش، لكنها رفضت بإصرار أن تتناولها .

صرخ الطبيب العجوز مهللا :

"لقد نجحت التجربة ! هلموا بنا نكمل انتصاراتنا ونجري تجاربنا على الشمبانزي والطفلين " .

أطلق الطائر القيثاري الذي كان يقف على النافذة صفارة الإنذار : صوتا يشبه العاصفة . اندفعت بنت الريح العاصفة إلى داخل الغرفة وهي تزمجر من الغضب، فأجبرت

الأطباء على الفرار من الغرفة، أطاحت بـالمنضدة الخشبية وأدوات الجراحة، وهبطت خلفهم على الـدرج الخشبي، فتساقطوا الواحد تلو الآخر .

اقترب الخادم القزم من شادي وأمير، وأخذ يوقظهما ويقبلهما في وجنيتهما برقة وحنان . استيقظ الأخوان ونظرا حولهما في ذهول .

قالت لهما ضيّ :

" فلتحملا الشمبانزي، ولنسرع بالفرار".

هم شادي بحمل الشمبانزي إلا انه أفاق ونهض – من الفور – وهو يتحسس رأسه، غير مصدق أنه قد نجا من الهلاك .

ظل الخادم القزم يدور حول القلعة الخشبية . كانت عيناه زائغتين وهو ينظر إلى نوافذ القلعة المغلقة في حسرة . وامتزجت قطرات المطر التي تتساقط على وجهه البني اللامع بدموعه التي تنهمر من عينيه الجاحظتين.

قال له شادي في دهشة :

" هل تريد البقاء في القلعة الخشبية ؟ " .

"لا" .

- فلم إذن تتلكأ في الرحيل ؟ هيا نسرع قبل أن يلحق بنا الحراس!

لكن القزم العنيد أصر على الدوران حول القلعة . لمح نافذة مفتوحة ملاصقة لشجرة عملاقة، فتهللت أساريره فرحا، وبدأ في تسلقها من الفور، تعجب الأخوان لمهارته الفائقة في التسلق، حيث وصل إلى النافذة في لمح البصر .

قال أمير لشادي :

" فلنتركه ونرحل، كيف نثق به وقد كان يعمل خادما في قلعة الرجل الغراب ؟ ".

أجابه شادي غاضبا :

" لقد شارك في إنقاذنا، ولم يكن مجبرا على ذلك " .

هبط القزم من الشجرة بسرعة فائقة وهو يحمل فوق كتفه حقيبة جلدية .

قال أمير محتدا :

" أتعرضنا للاعتقال من أجل حقيبة جلدية تافهة ؟ " .

قال شادي :

"هلموا بنا نرحل ثم نكمل حديثنا في الطريق " .

قال القزم لأمير، وقد شرع الجميع يهربون :

" أنا لا أستطيع السير في الغابة بدونها، لأنني احتفظ فيها بممتلكاتي الشخصية " .

انتزع أمير الحقيبة الجلدية من كتفه بغضب، وبعثرها على الأرض، أخذ يتأمل محتوياتها بسخرية ثم خاطب شاديا مستهزئا :

" أترى ! هذا القزم كاد يعرضنا للهلاك من أجل قوس خشبية، وشوكة من الحديد، وورقة شجرة عريضة، ونصل سيف، وحديدة ترس، وبقايا فأس، وخريطة .

لملم القزم محتويات حقيبته المبعثرة على الأرض المبتلة، وأخذ ينظفها بسرعة مستخدما أوراق الشجر، وبعد أن ابتعدوا قليلا، صاح مخاطبا أميرا في غضب :

" قبل كل شيء، أنا اسمي أبنوس . وقبل أن تصدر حكما، عليك أن تتريث، فهذه القوس مصنوعة من جذع مقشور محني على النار، ووترها من الخيزران المشطور، وهذه الشوكة الحديدية هي أداة الصيد التي لا أستطيع الاستغناء عنها، أما ورقة الشجرة العريضة فاستخدمها غلافا للحم الذي أشويه تحت الحجارة الساخنة، وأما نصل السيف



وحديدة الترس والفأس فهي نقودنا التي نستبدل بها الطعام من جيراننا، فنحن قوم لا نعرف الجنيه والدينار والدولار والإسترليني مثلكم، وأما هذه الخريطة فهي توضح توزيع الغابات والبحار التي يعتزم الرجل الغراب نهبها وتدميرها في مختلف أنحاء العالم . " .

نظر أمير إلى القزم أبنوس مستريبا، وقال له وهو يتأمل إزاره المصنوع من لحاء الشجر المدبوغ :

" وكيف أدركت محتويات الخريطة وأنت لا تعرف القراءة والكتابة ؟ !.

"تعلمت علي يد الطبيب الشاب الذي كان يأتي إلى القلعة كثيرا، والذي رفض أن يشارك في عملية الفيلة . لقد كان أكثرهم طيبة ورقة، لكن الرجل الغراب ينوي القضاء على مستقبله العلمي" .

لمح أمير الحزام المصنوع من جلد الزرافة المعلقة في خصر أبنوس، فاقشعر بدنه واندفع قائلا:

" لقد ذبح صديقنا الزرافة وسلخ جلدها وصنع منه حزاما !"

قال أبنوس في دهشة :

" عن أية زرافة تتحدث ؟ " .

تأمل شادي الحزام الملتف حول خصر أبنوس، وقـــال مخاطبا أخاه :

" إنه حزام متهالك، مر على صنعه عدة سنوات علـــى الأقل، وصديقتنا الزرافة لم تأت إلى غابة الضباب إلا حديثـــا . لا تتعجل في اهامه فقد تظلمه " .

قال أبنوس لأمير غاضبا :

" إذا لم تثق بي فسأرحل فورا، ولن تستطيع إجبـــاري على شيء. إنك طفل عجول تلقي الاهامات ظلما وعدوانـــا بدون أن تتحرى الحقيقة "

قال له شادي :

"لا تغضب – يا صديقي – إنه لم يقصد إهانتك ".

واستكمل أبنوس حديثه قائلا:

" إنكما طفلان غريبا الأطوار، كيف تدخلان القلعـــة الخشبية بدون خطة، وبدون عون من أحـــد . لقـــد كدتمـــا تتعرضان للهلاك بسبب التهور والعجلة " .

طأطأ شادي رأسه خجلا، وقال له :

أنت محق فيما تقول! لكننا حاولنا البحث عن حكماء الغابة : الفيل العجوز والقرد العجوز والزرافة، لنسترشد برأيهم، ونطلب معونتهم . ولقد ذهبت الغوريلا لإحضارهم، وتأخرت كثيرا، ولم نطق الانتظار حينما علمنا بأمر العملية التي ستجري للفيلة .

-لقد خطف الساحر الغوريلا وباعها للسيرك . وسأصحبكما الآن إلى حكماء الغابة، فأنا أعرف مكانهم، لقد قامت قبيلتي باعتقالهم، بناء على تعليمات من الرجل الغراب الذي أقنعهم بأنهم جاءوا إلى غابة الضباب لتدميرها بالزلازل والبراكين، لأنهم – على حد قوله – حيوانات ملعونة تتقمصها الأرواح الشريرة .

صرخ أمير عندما لدغته حشرة تشبه البعوضة في قدمه، وأخذ يبكي من شدة الألم . جرى أخوه نحوه، وقبله في وجنته، ولم يدر ماذا يفعل ليخفف ألمه .

اتجه أبنوس نحو ثلاث شجرات متشابهة، وقطع مزقة صغيرة من أحشاء إحداها ليحدد نوعها، ثم أخرج حديدة الفأس فقطع بها عدة صفائح من قشرة الشجرة، وبللها بالمطر، وفركها في قدمي أمير حتى طليت برغوة حمراء، وكذلك فعل مع شادي، ثم حمل أميرا، استكملوا سيرهم في الغابة قاصدين

أكواخ قبيلة الأقزام .

بعد مسافة قصيرة صمم أمير على ألا يحمله أحد . ومرة أخرى هامت الحشرة التي تشبه البعوضة حول قدمي أمير، فجرى نحو أبنوس مستنجدا، لكنه ترك الحشرة تلدغه، وأخذ ينظر إليها ضاحكا . وبينما كان أمير يكاد ينفجر من الغيظ سقطت الحشرة ميتة .

أحس أمير بالخجل وقال لأبنوس :

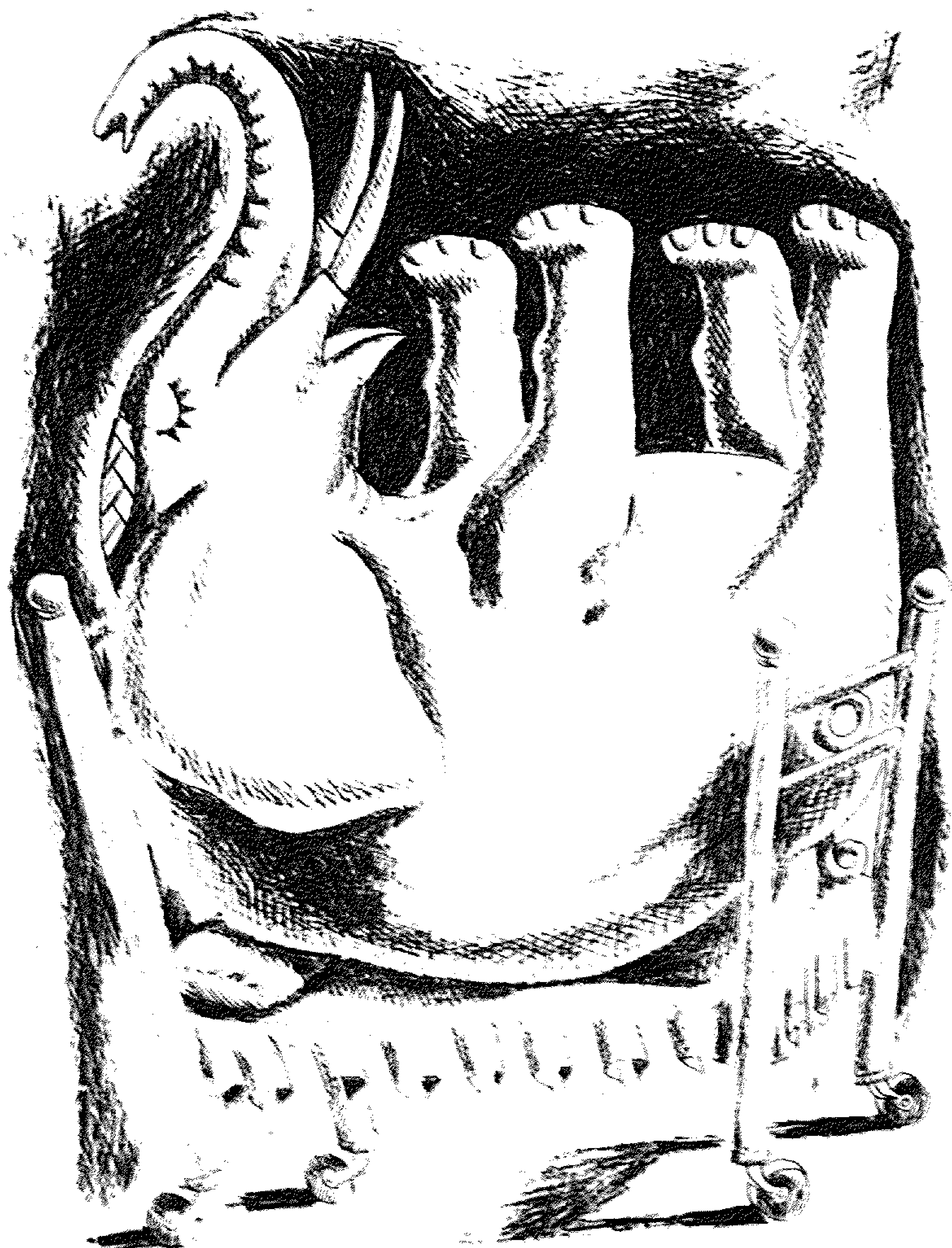
" الفضل لك، ولرغوتك الحمراء " .

بانت لشادي الأكواخ الواطئة المقببة لقبيلة الأقزام، وحولها كانت بعض النسوة يجمعن أغصان الأشجار وأوراقا شبيهة بأوراق الموز.

قال أبنوس ضاحكا :

" نحن لا نتخذ أبوابا لأكواخنا مثلكم بل نسدها ليلا بالفروع والأغصان، لتمنع دخول الحيوانات إليها، ولتحمينا من الأمطار " .

سمع الشمبانزي مأمأة الزرافة، فجرى باتجاه مصدر الصوت، وتبعه شادي وأمير . ودهش الأخوان لما شاهدا السجن الذي اعتقل فيه حكماء الغابة مبنيا بالخرسانة المسلحة



ومصنوعا بابه من الحديد الصلب .

قال أبنوس :

" لقد أرسل الرجل الغراب عمالا لبناء هذا السجن " .

حاولت الزرافة أن تخرج رقبتها من بـــين القضبـان الحديدية ولم تفلح، مد أمير يده، وأخذت تمرر عليها لســانها الطويل، أما الفيل العجوز، فقد استطاع أن يخرج خرطومــه ويقبل الأخوين .

سأل شادي عن القرد العجوز، فأجــابت الزرافــة في حزن :

" لقد أثخنه الأقزام بالجراح، وأصيب في ركبته إصابـة مؤلمة، وهو يرقد هنا، أو هناك، وحين أتمت الزرافــة جملتـها فوجئ الأخوان والشمبانزي بالأقزام المســلحين بأقواسـهم وسهامهم – ومعهم كلابهم التي يلبسونها أطواقا من الخشـب تشد إليها سيور يربطونها في أرساغهم – وقد أحاطوا بهم مـن كل جانب . وعندما هموا باعتقالهم صرخ أبنوس قائلا :

" إياكم أن تمسوهم بسوء، إنهم أصدقائي .

عمّ السكون فجأة ! فقد خرج زعيــم القبيلـة مـن كوخه. ولم يسمع الجمع سوى قرقعة الفروع الجافــة الــتي

تتكسر تحت قدميه .

أحس أمير بالاكتئاب حينما تأمل صدر الزعيم الـــذي تغطيه طبقة كثيفة من شعر يميل إلى الصفرة وشعره المتلبـــد ذا اللون الصدئ فوق رأسه الكبير المستدير .

اقترب زعيم القبيلة من أبنوس، وقال له :

"لم تركت قلعة الرجل الأرنب ؟ ومن يكون هؤلاء ؟ "

صاح أمير قائلا :

" إنه الرجل الغراب وليس الرجل الأرنب " .

تجاهل الزعيم صيحة أمير، واستكمل حديثه قائلا:

" إنهم يتحدثون مثلما تتحدث الحيوانات الملعونـــــة : القرد العجوز والفيل العجوز والزرافة التي تقمصتـــها الأرواح الشريرة . وسوف يجلبون لنا كارثة الزلزال. ولا بد مـــن أن نعتقلهم، حتى نتجنب شرهم " .

قال أبنوس منفعلا :

" لقد قلت لك يا أبي – إنهم أصدقائي . والعرف المتبع في قبيلتنا ألا نؤذي أصدقاءنا بل نقدم إليهم واجب الضيافة " .

قال أبوه غاضبا :

"هل واتتك الجرأة لتعلمني الأعراف وآداب السلوك؟"

قال أبنوس بصوت خفيض :

" عفوا – يا أبي – أنا لم اقصد ذلك" .

وأكمل أبوه قائلا :

" أنت تعلم أننا نرتبط مع الرجل الأرنب بمصالح مشتركة، فهو يجلب لنا الحشايا والأغطية والوسائد، وقد أصبحت قبيلتي الآن تنام على الأسرة بدلا من ألواح الخشب التي كانت تقصم ظهورنا، الآن نضع رءوسنا فوق الوسائد بدلا من أن نتكئ على أذرعنا . وهو يجلب إلينا كميات كبيرة من الموز يوميا لإطعام قبيلتي، وتعلم – أيضا – أننا – في سبيل الحصول على الموز – كنا نبيع حريتنا للجيران، أي أنني أعمل لصالح قبيلتي قبل كل شيء، وأنت الآن بتصرفاتك الطائشة، وصداقتك لهؤلاء الأشرار، تعمل ضد قبيلتك، ولن يرضى الرجل الأرنب بمثل هذه التصرفات الشائنة " .

قال أبنوس محتجا :

" إنه الرجل الغراب، وأنا رأيت وجهه القبيح كثيرا، لقد أهديتني إليه خادما وعبدا، ولم يأبه بك وأساء معاملتي، وأضمر لي الشر، منذ أن علمت بخطته لبيع أفراد قبيلتي –

الواحد تلو الآخر – كمهرجين في السرك . ثم أنني رأيته بنفسي يعقد اتفاقا مع أحد تجار الرقيق لبيع أختي باباظ، وخمسة أفراد من قبليتنا هم : أبو منجل وماهوجني، وأجباه وعين الفهد والجوز الأسود " .

تركزت أبصار القبيلة حول أبنوس والتف الآباء حوله يسألون عن مصير أبنائهم، احتضنت الأمهات أطفالهن، وأخذن يتحسسن أجسادهم بوجل، لم يستطع زعيم القبيلة أن يتجنب نظرات اللوم والتأنيب التي تركزت نحوه، إلا أنه استجمع قواه وصرخ قائلا :

" إنه ملعون مثلهم، لقد سحروه، وملكوا فؤاده وعقله، وأصبح يتحدث مثلما يتحدثون " .

اقترب الزعيم من شادي وأمير، أخرج من حقيبته قطعة شجر محترقة، ورسم خطا أسود على وجه كل منهما، صعودا من الوجنة إلى منتصف الجبهة وهبوطا إلى الوجنة الأخرى، ثم قال لقبيلته وهو يشير إلى الخط الأسود:

" لقد نصبت هنا فخا كي أحبس الأرواح الشريرة التي سوف تطلق الزلزال من باطن الأرض، وتدمر غابة الضباب . ثم أصدر أمرا للحراس باعتقال شادي وأمير والشمبانزي وابنه أبنوس مع رفاقهم، حكماء الغابة " .

وقف شادي خلف القضبان الحديدية يرقب المطر الذي يتحول إلى أبخرة زرقاء، بفعل حرارة الشمس التي لا يراها .

قالت له الزرافة :

" لا تحزن يا صديقي، فلكل شيء نهاية "، فأشـــرقت عيناه، وفاضت بالدموع.

كان عمود من البخار الأزرق يذوب ببطء في شــعاع شمس استطاع بجرأة أن يخترق حصار الأشجار العملاقة الـــتي تحجب الضوء عن الغابة، وتوالت الأشعة التي لم تأبَه بـــالأفرع الملتفة حولَها، والنباتات الطفيلية التي وقفت ســـدّا أمامـــها، وأذابت عمدان الأبخرة الزرقاء التي كـــانت تتصـــاعد أمـــام شادي، وتقتحم عليه السجن، وتلتّفّ حوله كما تلتف الحيَّـــة حول فريستها .

كان الفجر، وكانت ضيّ التي أزاحت الأبخرة الزرقـــاء بذراعيها، وهبطت أمام شادي، فمدَّ ذراعيه، وتشبث بيديـــها الدافئتين، وأجهش بالبكاء.

اشتعل السجن بالضوء، واستيقظ أمير الذي كان نائما على صدر القرد العجوز، واخذ يفرك عينيه . أخرِج الفيـــــل العجوز خُرطُومَه من بين القضبان، وعبَّ الماء من دَلو صغـــير

يحمله أحد الأطفال، ورش وجه أمير بالماء، حتى يفيق .

دخلت ضيّ السجن من بين القضبان، والتفّ أصدقاؤها حولها. اتجهت إلى القرد العجوز الذي كان منزويا في أحد الأركان يئن من جراحه، وقد حاول النهوض ليرحب بقدومها لكنه لم يستطِع . قبلته في وَجْنَتِه، وطيَّبت الجروح المنتشرة في جسده، وضمَّدت بعضها بالأربطة التي صنعتها من ألياف الشجر، وساعدته على النهوض، استيقظ أبنوس، ورأى هذا المشهد، فاغْرَوْرَقت عيناه، وقال لابنة الشمس ضَيّ :

" ليت أبي يرى ذلك ويلين قلبه " .

اقترب أبنوس من القضبان، وأطل على الأكواخ، ورأى أفراد قبيلته يخرجون منها زاحفين، لأن طول الكوخ لا يزيد على ثلاثة أقدام .

كان أبنوس مشتاقا إلى أمه التي كان يراها لِمَاماً منذ عمل خادما في قلعة الرجل الغراب، لكنه لم يستطع أن يتبين مكانها . أحسَّت ضَيّ بما يجول في خاطره، وطارت نحو الأكواخ، ونشرت نورها حولها، حتى يستطيع أن يرى أمَّه.

***



جلس الأقزام القرفصاء أمام أكواخهم، وفرشوا أوراق الشجر العريضة فوق الأرض متخذين منها مائدة لهم وغطـــاء لطعامهم . بدأت النساء في إعطاء كل فرد نصيبه مـــن المـــوز والخضراوات المطبوخة واللحم المشوي المضاف إليه مرق مـــن زيت النخيل .

اقترب أمير من أبنوس، وقال له :

"أكاد أموت من الجوع، ألن يحضر لنا أحد طعاما ؟ " .

قال له أبنوس، بعد أن لمح أمه قادمة من بعيد تحمـــــل لفائف من أوراق الشجر :

" لقد أحضرت لنا الطعام، وسوف نأكل فورا " .

أخذت أم أبنوس تداعب ابنها الصغير شجرة البلســـا الذي كان يلعب بقوس وسهم صنعا مـــن خـــوص النخـــل، وألقت بالسهم الصغير بالقرب من السجن، حتى لا تلفـــــت أنظار القبيلة إليها، ثم اندفعت نحو ابنها المسجون، وقبلت يديه الممدودتين من بين القضبان وهي تجهش بالبكاء، وقالت لــــه وهي تعطيه لفافة من ورق الشجر :

" لقد أحضرت لك المـــوز المســـلوق الـــذي تحبـــه، ولصديقك موزا نيئا " .

اقترب الفيل العجوز من القضبان، وأصدر هديرا خفيفا، ومد خرطومه نحو مئزر الأم الذي يتكون من بعض الخيوط المدلاة حول خصرها، والتقط من شعرها الجدائل التي صنعتها من أوراق الأشجار، والتهمها من الفور. ضحكت أم أبنوس، وناولته حزمة من الأعشاب الطرية، ثم ألقت نحو القرد العجوز والشمبانزي ببعض ثمرات الباباظ والأناناس.

قال أبنوس لأمه :

" أريدك أن تساعدينا في الخروج من هذا السجن " .

وردت الأم غاضبة :

" لقد ربيتك وأحسنت تربيتك، فكيف تطلب مني أن أخون الأمانة ؟! ".

قال أبنوس محتدا :

" وهل تقبلين أن يعمل ابنك خادما لدى الرجل الغراب ؟ " .

قالت له وقد دمعت عيناها :

"لا يا ولدي " .

"وهل تقبلين ـ يا أمي – أن يقتل أصدقائي ؟"

قالت الأم مترددة :

" لقد قيل لنا إن الأرواح الشريرة تتقمصهم، وإنهم سوف يجلبون لنا الزَّلْزَال، ولقد تحدثت مع الساحر خلسة، وسألته أن يطرد من أجسادهم هذه الأرواح، حتى أحول دون إيذائهم، لكن الساحر رفض لكيلا يغضب أباك " .

قال أبنوس معترضا :

" حتى لا يغضب الرجل الغراب . لقد رأيت هذا الساحر عدة مرات – في القلعة – يتلقى المنح والهدايا من سيده، ولقد أجزل إليه العطاء حتى ينشر بيننا إشاعة الزلزال . إنه دخيل علينا وليس قزما مثلنا، ولقد جاء إلى غابة الضباب وقت مجيء الرجل الغراب، ثم إني علمت من الطبيب الشاب أنه اشتراه من أحد تجار الرقيق الذي جلبه بدوره من قبيلة مجاورة " .

***

أطلق الطائر القيثاري صيحة إنذار. وفوجئ أبنوس بأبيه يقف أمامه وجواره قزم عجوز هو حكيم القبيلة . وهنا تراجعت أمه إلى الخلف، وركضت نحو كوخها وهي ترتجف

من الرعب .

قال زعيم القبيلة غاضبا :

" إنك ابن عاق، لقد سبق أن ذكرت لك أنني رأيت بعيني كل شيء : رأيت على القماش الأبيض المعلق على الحائط كيف تبزغ الشمس من عين الرجل الأرنب اليمنى، والقمر من عينه اليسرى في آن واحد – وتضيء غابة الضباب بنور ساطع لم أر مثله من قبل، وشاهدت شاديا وأميرا والزرافة والفيل العجوز والقرد العجوز والشمبانزي يقفون فوق جبل عظيم، ويلقون على الغابة من أفواههم الكرات الزجاجية المسحورة، فتنشق الأرض، وتبتلع الأشجار وكل شيء حيّ، ويسد الزلزال مجرى النهر الفضي، حتى يكف عن الجريان، ويرقد السمك ميتا على الأرض الجافة، ويستحيل لون الشمس والقمر في عيني الرجل الأرنب إلى اللون الأحمر والأزرق والأصفر، حزنا وكمدا على غابة الضباب التي دمرت " .

وعلق أمير ضاحكا :

" لقد شاهدت فيلما سينمائيا " .

أجاب زعيم القبلية مستغربا :



" عن أي شيء تتحدث؟ أنا لا أفهم ما تقول !".

قال له شادي بهدوء :

" أرجوك أن تنصت إلينا قبل أن تتخذ قرارا بشـــأننا . إن الهزات الأرضية لا تحدث بفعل الإنسان، إنما تحدث بفعـــل سلسلة من التحركـــات الـــتي تحـــدث في قشـــرة الأرض. والموجات الزلزالية يمكن الكشف عنها بجهاز علمي يطلق عليه (السيزموجراف) أي جهاز رصد الزلزال .

قال أمير لأخيه بصوت خفيض :

" كيف عرفت كل ذلك ؟ " .

أجابه شادي هامسا :

" من موسوعة الأطفال، ومن أبي " .

قال زعيم القبيلة لشادي غاضبا :

" نحن لا نعرف القراءة والكتابة مثلكم، لكننا نعـــرف كل شيء عن غابتنا، ونعرف هوية عدد هائل من النباتـــات والحيوانات والطيور والحشرات وعادات وتقاليد كل نوع من أنواعها، ويستطيع أطفالنا أن يعينوا نوع الشجرة بمجرد رؤيـة قطعة صغيرة من أحشائها، فلا تسخر منا – أيها الطفل المدلـل – وإلا سوف أعاقبك عقابا صارما . واعلمـــوا أنـــني لم آت

للتحدث معكم إلا بناء على مشورة حكيم القبيلة، وحتى يكون ضميري راضيا قبل أن أتخذ قرارا بشأنكم " .

قال حكيم القبيلة :

" أنا لا أعرف مثلك القراءة والكتابة، لكنني توارثت المعرفة من أجدادي عن غابة الضباب، وأعرف أنها لم تتعرض لأي زلزال منذ زمن بعيد، وأنا لا أثق بالغرباء الذين لا يجلبون إلينا إلا الخراب، ولا أدري لم يرتدي رجل قناعا لوجه أرنب ووجهه الحقيقي وجه غراب، إلا إذا كان يضمر شرا " .

قال زعيم القبيلة مندهشا :

" هل رأيته بعينيك – يا حكيم – أنا لا أصدق ذلك!"

"لقد رأته شجرة الماهوجني وطائر اللقلق والطائر القيثاري وابنك أبنوس، فكيف لا تنصت إليهم ؟ !

جاءت أم أبنوس مهرولة نحو زوجها، تتبعها بعض النسوة .

قالت وهي تنتحب :

"لقد خطف الساحر ابنتي باباظ !!".

وقالت امرأة أخرى :

" وابني عين الفهد !"

وتوالت صيحات النساء معلنة خطف أبنائهن "أبو منجل وماهوجني وأجبا والجوز الأسود" .

***

رفرفت ضيّ حول السجن، وفتحت للسجناء بابه، وقالت لشادي وأمير :

" سيأخذونهم بعد ساعات قليلة إلى سيارة السيرك ومعهم الغوريلا، يصحبهم الساحر وبعض الحراس، فلنسوع لإنقاذهم !".

أحست ضيّ بالإعياء، وشاب وجهها الشحوب والاصفرار، عندما حاصرتها الظلال .

نظر شادي حواليه، فكاد يصيبه الدوار من جمهرة الملتفين حول زعيم القبيلة الذين كانوا يصرخون، ويلوحون بأيديهم، ويسألون عن أبنائهم الذين اختطفهم الساحر . وجثمت جبال الظلال عليهم، وبدوا في ناظريه كأنهم مجموعة

من الأشباح تتراقص، نظر إلى إحدى الأشـــجار العملاقـــة، فوجد نبات التين الخانق الطفيلي يمد جذوره حولها، وتلـــوَّت الجذور كالثعبان حول أسفل جذعها، وتلاحمت وكونت قشرة سميكة حول الشجرة المسكينة التي تعولهـــا، وتســـتمد منـــها غذاءها، وخنقتها وحجبت ضوء الشمس عن أوراقها، والمـــاء عن جذورها، كي تحتل مكانها بعد موتهـــا، وبســـطت بقيـــة النباتات الطفيلية أوراقها في زهو وخيلاء فوق الأشجار الـــتي تعلوها، لتحجب عنها الضوء، بغرض القضاء عليها، مثلمـــا قضى نبات التين الخانق على رفيقتهم .

بكى شادي من أجل الشجرة التي ذبلت وأصبحـــت هشة كقطع الإسفنج، ومن أجل ضيّ التي ذابت في الظلال .

نبح الطائر القيثاري، وأخذ يصرخ قائلا :

" باباظ ... باباظ " .

التفت زعيم القبيلة والأمهات الـــتي تنتحـــب علـــى أبنائهن نحو الطائر القيثاري في لهفة، وأقبل الرجـــل الغـــراب مصطحبا باباظ، يتبعه حارسه وكلبه الأسود . اتجه نحو زعيـــم القبيلة وهو يبتسم له ابتسامة صفراء، ثم قال له :

" لقد جئت بابنتك – أيها الصديق العزيز – ولقـــد

عاقبت الساحر عقابا صارما على فعلته الشنعاء، وأرجـــو ألا يكدر ذلك صفو علاقتنا المبنية على المودة والمصالح المشتركة .

جرت باباظ نحو أبيها الذي احتضنها وأخذ ينظـــر في قدميها ورُسْغَيَّها، وقال :

" لو كنت ترتدين تعويذتك الخشبية، ما حدثت لـــك هذه المصيبة " .

قال أمير للشمبانزي هامسا :

" كيف تحمي قطعة خشب طفلة من أنيـــاب الرجـــل الغراب . لقد عششت الخرافات في عقل زعيم القبيلة" .

انتزعت الأم ابنتها من حضن أبيها، وأخذت تقبلـــها وهي تبكي بحرارة .

تقدم شادي نحو الرجل الغراب وقال محتدا :

" أين بقية الأطفال ؟ أين أبو منجل وماهوجني وأجبـــا والجوز الأسود وعين الفهد ؟ " .

التفت زعيم القبيلة نحوه مندهشا، وقال :

" كيف خرجتم من السجن ؟ هل يوجد خائن بيننـــا ؟

سوف أعرف فورا من عاونكم على الهروب " . وعندما هم بالإمساك به، فوجئ بالفيل العجوز والقرد العجوز والزرافة يقفون أمامه، ينظرون إليه شزرا، فتقهقر حتى كاد يصطدم بالكلب الأسود الذي نبح بشدة وكاد يعضه لولا أن أشار إليه الرجل الغراب أن يهدأ، فوقف الزعيم بجوار سيده ذليلا راضيا بحمايته .

قال الرجل الغراب للأقزام الملتفين حوله متصنعا الثبات والدعة :

" انتم تعلمون بكارثة الزلزال التي ستدمر غابة الضباب، ولقد قررت بناء غابة نموذجية على قطعة أرض شاسعة اشتريتها من مالي الخاص – من أجلكم – حتى نؤويكم، حينما تنشق الأرض وتبتلع كل شيء حي في الغابة. ولقد أتيت بمهندسين وخبراء في الزراعة وعلم الحيوان من شتى أقطار الأرض، كي يبنوا هذه الغابة طبقا لأحدث النظم، بحيث تكفل سبل الراحة للطيور والحيوانات البرية والنهرية . واقتنيت مجموعة هائلة من بذور الأشجار والنباتات حتى أغرسها في الغابة النموذجية، لتولد الأشجار التي قطعت من جديد .

أما ماهوجني وأجبا والجوز الأسود وأبو منجل وعين



الفهد، فقد أرسلتهم إلى بعثة تعليمية، ليتعلموا كل شيء عن الغابات، ويشاركوا في صنع الغابة النموذجية ممثلين عنكم " .

سرت همهمات بين الأمهات المنتحبات والآباء المتجهمين، وقالت إحدى الأمهات للرجل الغراب :

" إن أبناءنا رضعوا من أثدائنا المعرفة، وهم يعلمون كل شيء عن الغابة أكثر من خبرائك وعلمائك " .

وقالت أم الجوز الأسود :

" هل تعودت أن تختطف الأطفال قسرا من أمهاهم، لتعلمهم ؟ " .

قال الرجل الغراب متلعثما :

" أنا لم أخطف أحدا، إنه الساحر " .

قال أبنوس غاضبا :

" إن الساحر لا يستطيع أن يفعل شيئا من دون إذنك".

شقت أم أجبا الصفوف بذراعيها، ووقفت أمام الرجل الغراب غير مبالية ببندقية الحارس ونباح الكلب الأسود، صعدت على كتفي القرد العجوز، وصرخت في وجه الرجل

الغراب قائلة : " لن تترك هذا المكان حيا إلا إذا أعدت إلينـــا أبناءنا " . وما أن نزلت – وقد بلغ الجميع قمة الانفعـــــال – حتى لطمها زعيم القبيلة على وجهها، فسقطت على الأرض . مشى الزعيم عدة خطوات نحو قبيلته المتجمهرة وقال :

" لقد جنت هذه المرأة " . ثم عاد جوار سيده .

مرت لحظات التف في غضونها الفيل العجوز والزرافـة والقرد العجوز وابنوس وشادي وأمير حول زعيـــم القبيلـة والرجل الغراب والكلب الأسود، وحاصروهم تماما .

مأمأت الزرافة، وقالت :

" كيف تكون زعيما لهذه القبيلة ولا ترعى مصالحها؟"

ثم رفعه الفيل العجوز بخرطومه، وقال :

" لقد اكتفيت بعودة ابنتك باباظ، ولم تهتم بالأطفـــال المخطوفين الآخرين، فكيف تكون زعيما لهم وأنت بمثل هـــذه الأنانية ؟ ".

صرخ أبنوس قائلا للفيل :

" أرجوك ألا تؤذي أبي "

فأنزله الفيل العجوز، واعتذر إلى أبنوس قائلا :

" ليس عيبا أن تحب أباك، وتخشى عليه بل إن هذا يعد دليلا على كرم أخلاقك ولكن يجب أن تكون عادلا " .

تقدم حكيم القبيلة نحو الأقزام، وقال وهو يشير إلى زعيمهم :

" إن هذا الرجل لم يعد صالحا للقيادة، ولابد من عزله، فما رأيكم ؟ " .

رفع معظم الأقزام أياديهم ملوحين، وهتفوا مؤيدين قرار حكيمهم الذي التفت نحو ابنوس، وقال " " لم تطأطئ رأسك – يا ولدي – تريد القبيلة أن تعرف رأيك " .

قال أبنوس، وقد اغرورقت عيناه " :

"لقد نطقت بالحق – أيها الحكيم – فلم يعد أبي صالحا لأن يكون زعيما للقبيلة " . ثم انخرط في البكاء !

رفرفت ضي فوق غابة الضباب وهي تنظر في حسرة إلى النباتات الطفيلية والمتسلقة التي تلتف حول الأشجار، وتسد الثغرات التي تتيح لها فرصة الهبوط إلى أصدقائها الذين قلقت عليهم . اكتشفت ثغرة ضيقة جدا بين شجرتين عملاقتين، حاولت المرور منها، إلا أنها انحشرت بينهما، وتمزق فستانها الأبيض، وجرحت الأشواك ذراعيها وقدميها،

وتناثرت بقع الدم على أوراق الشجر . صرخت واســـتغاثت ببنات الريح، كي تنقذها من هذه الورطة، إلا أنها لم تجد أمامها إلا بنت الريح النسمة النحيلة كعود الخيزران الرقيقة مثـــــل قطرة الندى، وقد حاولت بأصابعها الصغيرة أن تخرجها مـــن بين الأغصان المتشابكة بدون جدوى .

قالت ضي لبنت الريح النسمة :

" أين أخواتك الست ؟ :

أجابتها بنت الريح النسمة بصوت يشبه الناي :

"لقد ذهبن عبر منحدرات الجبال إلى غابة الســـحاب، ليأخذن قسطا من الراحة " .

قالت ضي مستنكرة :

" وهل هذا وقت الراحة ؟".

سمع النمل الذي يعشش في شجرة السروبيا هذا الحوار بينما كان منشغلا بالتهام النشاء من العقد المنتشرة عند قواعد أعناق أوراقها، فرق قلبه، وقرر أن يباشر عمله فورا، من أجل ضي، ومن أجل الشجرة التي تطعمه، وانقض على النباتـــات العالقة والطفيلية التي تحيط بضي، فاخذ يمزقها بفكوكه القوية، ويلقي بها على أرض الغابة .



هبطت ضي من الثغرة التي فتحها النمل. وجدت الأقزام يتأهبون للقبض على الرجل الغراب وحارسه وزعيم القبيلة، ولمحت بعض الحراس في الطوابق العليا للغابة يقفون على الأبراج والأرصفة التي صنعها الرجل الغراب كأعمدة ثابتة للمراقبة، وقد استعدوا لإطلاق الرصاص على الأقزام الملتفين حول الرجل الغراب، طارت ضي نحوهم، واختطفت بندقية أحد الحراس في البرج الغربي، ثم اتجهت نحو البرج الشمالي، وهناك وجدت الشمبانزي راكبا فوق كتفي حارس آخر وقد قيد يديه بحبال من ألياف الشجر. بيد أن الحارس الذي كان متزويا في البرج الشرقي القريب من شجرة السروبيا أطلق الرصاص على الأقزام وأصاب أبنوس إصابة سطحية في كاحل قدمه، فأسرعت ضي بإحضار الأعشاب الطبية، وبدأت في علاجه.

زحفت صفوف النمل التي كانت تعشش في سوق السروبيا الخيزرانية المجوفة نحو الحارس، انتشرت في جسده بأسره، أخذت تلدغه، ففقد توازنه، وسقطت البندقية من يديه، لكنه تعلق بسلم الحبال الذي يصل إلى البرج قبل أن يهوي فوق أرض الغابة.

بكى زعيم القبيلة من أجل ولده المصاب، وهم

بالذهاب إليه، فاستوقفه الرجل الغراب قائلا :

" فلنسرع بالفرار قبل أن يقتلونا، وسوف أرسل إليـــه طبيبي الخاص، فلا تقلق عليه " .

لاذ الرجل الغراب بالفرار وفي – أعقابه حارسه وكلبه الأسود – يتبعه زعيم القبيلة الذي كان يجرجر قدميه ونفـــــر قليل من الأقزام الكسالى الذي خشوا أن يفقـــــدوا الطعـــام الشهي الذي يرسل به الرجل الغراب إلى القبيلة كل يـوم، إذ كانوا لا يرغبون في بذل أدنى جهد في سبيل الحصول علـــــى طعامهم، وكان منتهى أملهم أن يعملـــوا خدمـــا في قلعتـــه الخشبية، ليملأوا بطونهم، ويناموا على الأســـــرة والوســـائد الوثيرة، ويركبوا الآلة السحرية المسماة بالمصعد الكهربائي .

استطاعت الأعشاب المتدلية التي تنبـــت علـــى أرض الغابة حول أكواخ الأقزام أن تنمـــو إلى أعلـــى، وتقصـــف الفروع الهشة لشجرة هرمة، تكاثرت على فروعها النباتـــات الطفيلية، وحرمتها من الشمس، فاصفرت أوراقها، وذبلـــت ثمارها، ثم سقطت أمام أبنوس تماما فاتحة بذلك ثغرة في الظلال التي تسيطر على الغابة حتى ينفذ منها ضوء الشمس .

التفت الأقزام إلى الشجرة التي سقطت وهم يتحدثـون عن أبنوس الذي وقف ضد أبيه من أجل قبيلته، ويتناقشـــون

بجدية فيما فعله زعيم القبيلة السابق الذي كانوا يكنون له الاحترام والتقدير، لأنه يمثل تراث العشيرة، ولأنه يرعى مصالحهم، وكان ذلك قبل مجيء الرجل الغراب .

لاحظ شادي أنهم توقفوا عن الكلام تماما، وركزوا أبصارهم نحو كوخ الزعيم السابق، فقال لأخيه أمير : " إنهم لن يعلنوا قرارهم باختيار الزعيم الجديد. ويبدو أنهم اتفقوا على شيء لا نعرفه ".

قال أمير متسائلا :

" لم لا يرشحون زعيما أو أكثر، ثم يلجئون إلى التصويت ليختاروا أفضل المرشحين، كما نفعل في مجالسنا النيابية " .

قال له شادي ":

" يبدو أنهم لا يعرفون نظام التصويت " .

نهض حكيم القبيلة، واتجه نحو كوخ الزعيم السابق، وأحضر عقده المصنوع من خرز المرجان، وسيفه الحديدي المزخرف بأشكال الفهود المصنوعة من النحاس الأصفر، وعلما مطرزا مصنوعا من الخيوط القطنية المجدولة، كان الرجل الغراب قد أهداه إلى الزعيم السابق – جلس الحكيم

القرفصاء ممسكا بقطعة من الخشب، وحفر فيها بضعة ثقوب بسكينه، وأمسك بقدميه قطعة الخشب، وملأ الثقوب بالأوراق اليابسة. ناوله أبنوس عصا من الخيزران، فوضع أحد طرفيها في أحد الثقوب، وأخذ يفرك العصا بين يديه جيئة وذهابا بسرعة فائقة، فما لبث أن تصاعد منها الدخان، وظل ينفخ فيها حتى اشتعلت، ثم ألقى العلم المطرز في النار المتوهجة

ظلت عيون الأقزام تراقب العلم حتى احترق تماما، واقترب الحكيم من أبنوس الذي نهض من الفور، حيث قلده العقد، وأعطاه السيف الحديدي معلنا بذلك اختياره زعيما للقبيلة.

ارتدى الأقزام ملابس الرقص المصنوعة من جلود القطط البرية، وراح الشمبانزي ينفخ في مزمار من العاج المزخرف، وقام الفيل بدق الطبول التي رفعها بخرطومه، بعد أن وقف على قدميه الخلفيتين. أما القرد العجوز فقد شاركهم احتفالهم بالنفخ في صفاراتهم الزجاجية الغريبة الشكل.

جذبت إحدى النساء (شادي وأمير)، وصممت على أن يرتديا ملابس الرقص، وغطت جسديهما بأوراق الأشجار، لينضما إلى الأقزام الذين كانوا يرقصون في شكل دائري حول زعيمهم الجديد.

اعتكفت أم أبنوس، واختلط بكاؤها على زوجها الذي رحل مع الرجل الغراب – والذي فقد احترام قبيلته – بالموسيقى الصاخبة، ودبيب أقدام الراقصين الفرحين بزعيمهم.

اقتربت منها امرأة الحكيم، وجففت دموعها بورقة شجرة، فنهضت – من الفور – وأشعلت النار، كي تقدم الطعام للراقصين الذين بدت عليهم ملامح الإجهاد، وتلألأت فوق وجوههم البنية اللامعة حبات العرق، ثم طلبت إلى امرأة الحكيم أن تحضر الخضراوات والثمار البرية من مخازن القبيلة.

جاءت المرأة بعد قليل وهي تصرخ وتولول، فكف الراقصون عن الرقص، وتوقف العازفون عن العزف، وتدافع الجميع نحوها مهرولين ..

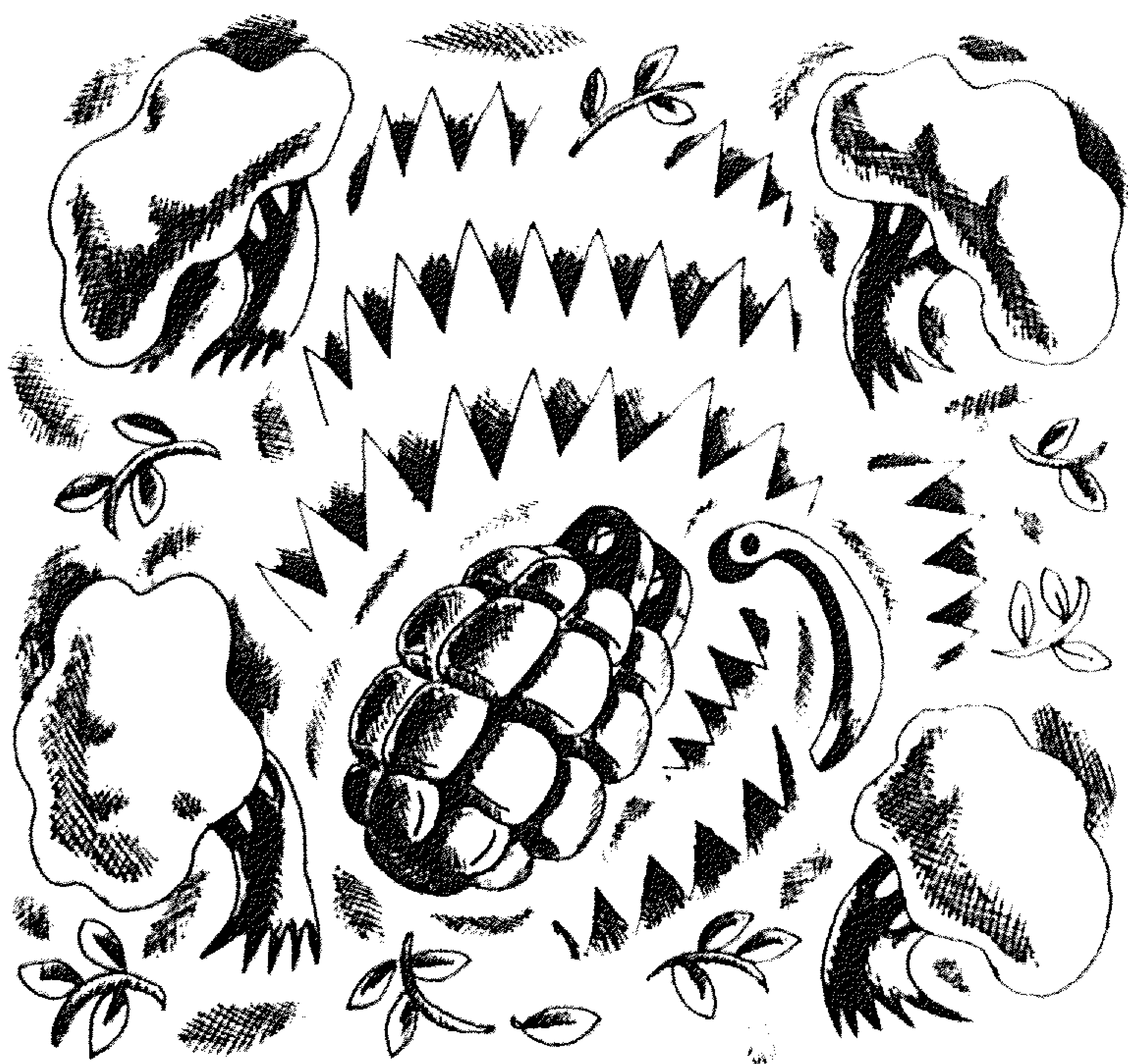
– لقد سرقوا الثمار البرية والخضراوات وعسل النحل من المخازن، ولم يتبق لنا ما نأكله .. سوف يموت أطفالنا من الجوع !

طلع الصباح، لكن سقف الغابة الأخضر الكثيف لم يتسرب له أي شعاع من نوره، جلس الأقزام حول زعيمهم الجديد واجمين ينتظرون قراره لحل مشكلة الغذاء، بعد أن نهبت مخازنهم.

اقترب شادي من الأكواخ التي تشكل نصف دائـــرة ويغطيها الضباب الكثيف، فوجد الأطفال يجلسون القرفصـاء وهم يفترشون أوراق الشجر العريضة، وقد أحضرت البنـات الأواني المعدنية التي حصل عليها الأقزام من قبيلـــة مجـاورة، مقابل حصة من اللحوم، واخذوا جميعا يغرفـــون بالمغـارف الخشبية من الأواني الفارغة وهم يضحكون، ويوزعون الطعـلم على بعضهم البعض. ما لبث الوقت أن مر وقد استبد بهـــم الجوع، فملوا هذه التمثيلية، ألقوا بالأواني المعدنية والمغـــارف الخشبية على الأرض، وأخذوا يبكون ويصرخون، ثم جـــروا نحو أمهاتهم اللاتي كن ينبشن في التراب بأوتاد مسننة الـرأس، للكشف عن الثمار التي تنمو تحت سطح التربة، ويجمعن الغلة في سلال على ظهورهن.

أشارت الأمهات لأطفالهن أن يذهبوا إلى الأكواخ حتى يفرغن من هذه المهمة، لكنهم التصقـــوا بأفخـــاذ الأمـــهات ورفضوا الذهاب في عناد، ثم صعدوا على ظهورهن، فتمزقـت السلال، وتبعثرت الثمار علـــى الأرض، فـــانقضوا عليـــها يلتهموها بشراهة. وحينما همت أمهاتهم بضربهم حال شــــادي دون ذلك، وقال لإحداهن :

" الجوع كافر يا أمي، كيف تطلبين من طفل لم يتجاوز



عمره العامين أن يلتزم بآداب السلوك، وهو لم يذق الطعام منذ أمس ؟ " .

قرر شادي أن يتجه من الفور إلى أبنوس، لكي يبحث معه عن حل عاجل لمشكلة الغذاء . لكن أميرا استوقفه قائلا :

" لقد أمر أبنوس رجاله بأن يتسلحوا بأقواسهم وسهامهم . وأخاهم قد أتموا الاستعداد للخروج ومعهم كلاهم " .

قال شادي في قلق :

" وماذا سيفعلون ؟ " .

أجابه أمير بحزن :

" إنهم خارجون لاصطياد الفيلة التي تنقل كتل الأخشاب عند النهر الفضي ".

صرَّح شادي قائلا :

" لابد من منعهم . سوف يفسد ذلك كل شيء" .

اتجه شادي مسرعا إلى أبنوس الذي كان يستعد ورجاله للرحيل، وقال له :

" لقد اتخذت قرارا خاطئا، ولا بد من أن توقف تنفيذه

فورا، فالفيله سوف تكون خير معين لنا في حربنا ضد الرجل الغراب الذي نسعى إلى طرده من غابة الضباب " .

قال أبنوس غاضبا :

" لن أتراجع عن قرار أصدرته، وإلا فلن أصلح أن أكون زعيما . لابد من أن أوفر الغذاء لقبيلتي التي تتضور من الجوع . ومن يخلو مخزنه إما أن يموت من الجوع وإما أن يلجأ في النهاية إلى جحور النمل، ليسلب ما بها من حبوب، وأنا لن أقبل أن يلطخ هذا العار شرف قبيلتي مادمت حيا " .

قال أمير باكيا :

" الفيلة أصدقاؤنا، فكيف تفعل بها ذلك ؟ .

تقدم الفيل العجوز نحوهم وهو يصدر هديرا مخيفا، وقال :

" إنه يريد أن يفعل مثلما فعل أبوه من قبل " .

قال شادي :

" وماذا فعل أبوه ؟ "

أجابه الفيل العجوز في حزن :

" لقد سمعت عويل كلاب الصيد ذات يوم، وكنت

اصطحب بعض الفيلة للبحث عن العشب وفجـــأة رأيـــت الأقزام المسلحين يحاصروننا تماما، ويصوبون حرابهم نحونـــا، وأصبت في ركبتي إصابة مؤلمة، فجن جنوني وصرخت صرخة مدوية، وانهرت تماما وأنا انظر في حسرة إلى رفـــاقي الفيلـــة الذي تضرجوا بالدماء، والأقزام ينتزعون أنيابهم تاركين إياهم ينـــزفون حتى الموت . وسمعت الرجل الغراب الـــذي كـــان يرقب المشهد باستمتاع بالغ يقول لصديقه الطبيب العجوز :

" سوف آمر العمال فورا بأن يصنعوا لك تمثالا مـــن العاج، لتضمه إلى التحف الرائعة التي تقتنيـــها في مُتْحَفـــك، وتمثالا لي أيضا " .

قال شادي لأبنوس متأثرا :

" أرجوك أن تتريث قليلا قبل أن تقدم علـــى هـــذه الخطوة التي قد تندم عليها " .

أجابه أبنوس في حدة :

لقد ذبح أبي الفيلة من أجـــل تمثـــالين مـــن العـــاج . ولسوف أفعل ذلك من أجل تدبير الغذاء لقبيلتي وأنا ضميري راض تماما عن هذا التصرف " .

قال أمير :

" فلنبحث عن حلول أخرى لتدبير الغذاء " .

ورد أبنوس ساخرا :

" قل لي ما هي أيها العبقري ؟" .

قال شادي غاضبا :

"لقد علمكم الرجل الغراب الكسل، لقد كان يمدكم يوميا بحصة من الطعام، حتى تحتاجوا إليه دوما، ويستطيع أن يستخدمكم لأغراضه الشريرة كما يشاء " .

مـأمأت الزرافة وقالت :

" لقد بذلتم من قبل محاولات ناجحة في زراعة الموز والفول السوداني والمانيوق وبعض الفواكه، لكي تسدوا حاجتكم من الطعام " .

وقال القرد العجوز متحسرا :

" كنتم تملكون مهارة فائقة في تسلق الأشجار للحصول على عسل النحل، ومهما علت خلايا النحل البري في ذرا الأشجار فإنكم كنتم تصلون إليها في لمح البصر فماذا حدث لكم ؟ ! هل نسيتم خبراتكم ومعارفكم ؟ ".

قال أبنوس بصوت حاسم :



" لقد أصدرت قرارا لا رجعة فيه، ولا بد من تنفيذه "

ثم اصدر أوامره إلى رجاله بالخروج لصيد الفيلة عند النهر الفضي، على أن يكونوا منتبهين لأقل صوت، وأن يتخاطبوا بالإشارة، حتى لا يثيروا انتباه الفيلة، وحراس الرجل الغراب.

***

بدأ الساحر تقديم عرضه الهزلي في قاعة المسرح المقام في القلعة الخشبية، لتسلية الرجل الغراب وضيوفه، وضحك الضيوف كثيرا لما رأوا ببغاء يرتدي زيا مزركشا يجر عربة صغيرة محملة بالدمى الخشبية، والطائرات الورقية، والبالونات الملونة، والمزامير المصنوعة من البوص، والصفارات الزجاجية .

تقدم المهرجون من الأقزام : أبو منجل وماهوجني وأجبا وعين الفهد والجوز الأسود، وهم يرتدون ملابس رعلة البقر، ويعلقون المسدسات في خصورهم، صرخ البغاء مستنجدا بالغوريلا التي كانت تجلس على مقعد هزاز مطعم بالصدف، وتدخن السيجار. صوب المهرجون مسدساتهم إلى الببغاء، وأطلقوا منها السوائل الملونة، فأغرقته باللون الأحمر

والأزرق والأصفر والأسود، فجرى مذعورا نحـــو الغوريـــلا ليحتمي بها .

خطف المهرجون العربة الصغيرة، وألقوا بالبالونـــات الملونة التي انفجرت في وجه الغوريلا حينما لمست الســـيجار المشتعل في يدها، فوقعت على الأرض مـــن الفـــزع. أخـــذ المهرجون يعزفون لحنا راقصا بالمزامير والصفارات الزجاجيـــة . نهضت الغوريلا وتقدمت نحوهم وهي تكاد تجن من الغضـــب، وبينما كانت تحاول الإمساك بهم كانوا يلتفون حولها بشـــكل دائري وهم يعزفون لحنهم الراقص فتوقفت عن مطـــاردتهم، وشاركتهم في الرقص، وانتزعت مزمارا من ماهوجني ونفخت فيه، فانبعث منه صوت يشبه ضجيج القاطرات الحديدية .

توقف المهرجون والغوريلا عن الرقص والعزف حينمـــا دخل الزعيم السابق يرتدي زي رئيس الخـــدم، وبصحبتـــه الأقزام الكسالى الهاربون وهم يحملون المشروبات الســـاخنة والمثلجة ليقدموها إلى الضيوف الذين كادوا ينفجـــرون مـــن الضحك .

ساد القاعة الصمت عندما هبطت الغوريلا من المسرح يتبعه الأقزام المهرجون، متجهين نحو الزعيم السابق الذي تجمد في مكانه من الرعب، انتزعت الغوريلا الصينية مـــن يـــده،

وألقتها على المشاهدين، فغادروا القاعة مذعورين، وقـــالت للزعيم السابق :

"لقد نلت مصيرك الذي تستحقه، أيها الخائن " . وقال له أجبا :

" لقد بعت قبيلتك من أجل أن تعمل خادما ذليلا لدى الرجل الغراب "

وتقدم الجوز الأسود نحو أحد الأقزام الذين هربوا مـــن قبيلتهم، واخذ يطوف حوله وهو ينظر إلى ردائه بســـــخرية، ويقول :

" لقد كنت صديقا وفيا، فماذا حدث لك ؟ أمن اجـل رداء قطني مزركش، وقبعة من القش تترك اهلك وعشـيوتك، وترضى بالذل والهوان ؟ " .

بكى صديق الجوز الأسود، وطأطـأ رأســه خجــلا، فوقعت القبعة من فوق رأسه، ولم يستطع أن ينطـــق بحـــرف واحد دفاعا عن نفسه .

دخل القاعة فجأة الرجل الغراب يتبعه بعض الحـــواس، وصوبوا بنادقهم نحو الأقزام، إلا أن الغوريلا تقدمت نحوهـــم وهي تدق صدرها بكلتا يديها من شدة الغضب .

تقهقر الحراس وقد انتابهم الذعر، فانتزع الرجل الغراب بندقية أحدهم، وأطلق الرصاص على الغوريلا فأصابها في أنحاء متفرقة من جسدها، لكنها لم تتوقف عن السير برغم الدماء التي كانت تنزف منها، وحينما اقتربت منه تماما ألقى بالبندقية على الأرض وفر هاربا . انتهز الأقزام الهاربون الفرصة وغادروا قاعة المسرح، وتركوا زعيمهم السابق الذي كان يجمع الأكواب البالية، ويلقي بها في سلة المهملات، ثم بالقبعة التي سقطت من صديق الجوز الأسود، واخذ ينزع عيدانها القش – واحدا تلو الآخر – وهو يهذي كأنما أصابه مسّ من الجنون .

توقفت الفيلة عن السير، وألقت بحمولتها من الأخشاب على الأرض، إذ لمحت فيلا نحيلا يسقط فجأة . قال الفيل النحيل وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

" لقد قتلني الرجل ال... "

قال له الفيل الذي فقد إحدى نابيه في معركة الفيلة مع الأقزام :

" تقصد الرجل الأرنب ! "

استجمع الفيل الذي يحتضر غضبه، وقال :

" لا : انه الرجل الغراب !! لقد رأيت وجهه في غرفة العمليات عندما خلع قناعة، كي يجفف عرقه، ولم استطع .. أن أقول لكم .... تصورت أن ذلك من آثار المخدر .. منذ أن أجريت لي العملية لم استطع اشتهاء الطعام .. رغم أنني أتضور جوعا .. لقد أيقنت - يا رفاق - أن من يلجأ إلى الخداع، ويفعل هذه الجريمة، لابد من أن يكون غرابا .. فالأرنب طيب، والغراب شرير ومخادع بطبيعته .. " .

تحشرج صوته، وتدلي خرطومه، وسرت قشعريرة في جسده، وقال بصوت واهن :

" أرجوكم أن تدفنوني في مقبرة الفيلة الجماعية في الجبال .. ثم مات.

بكت الفيلة على رفيقها الذي رحل، أصدرت هديرا حزينا انتشر في الغابة بأسرها .

أمالت الأشجار جذوعها، كي تلقي على الفيل الذي مات نظرة أخيرة، وارتجفت فروعها وخشخشت أوراقها كأنها تنتحب من أجله .

أفاقت الفيلة من حزنها، وشرعت تؤدي واجبها المقدس بأن تدفن رفيقها في المقبرة الجماعية، وعندما همت

بحمله حاصرها الحراس، وصوبوا نحوها بنادقــــهم، أمروهــا بالعودة إلى العمل وحمل كتل الأخشاب. أصــــدرت الفيلــة جؤارا مخيفا، واندفعت نحو الحراس غير مبالية ببنادقهم، ففــر الحراس مذعورين نحو القلعة الخشبية .

دخل الحراس القلعة، فاصطدموا بالغوريلا التي كــانت قد سقطت ميتة أمام البوابة متأثرة بجراحها الداميــة . تجمــد الحراس رعبا، حتى صرخ الرجل الغراب في وجوههم قائلا :

" كيف تتركون حراسة الفيلة وتأتون إلى هنا ؟ "

أجاب أحد الحراس :

" لقد تمردت الفيلة، وهي الآن تحاصر القلعة الخشبية"

أمرهم الرجل الغراب بـــإغلاق البوابــة الرئيســية والأبواب الفرعية ووضع الأثاث خلفها، حـــتى لا تســتطيع الفيلة تحطيمها .

اهتزت القلعة الخشبية بعنف لمحاولات الفيلة تحطيــــم أبوابها بخراطيمها القوية، واصدر الرجل الغـــراب تعليماتــه للحراس بالصعود إلى أعلى، وصعد بنفسه إلى مخزن الذخـيرة، لإحضار القنابل المسيلة للدموع .

طار الطائر القيثاري نحو النافذة الملاصقـــة لشــجرة



الباوباب العملاقة، واخذ يدق الزجاج بمنقاره مقلدا صـوت الطبول وصيحة الحرب لقبيلة الأقزام . وكان قد علم من الغوريلا– قبل موتها – أن الطبيب الشاب قد خبأ الأقزام المخطوفين في هذه الغرفة . فتح له اجبا النافذة، وأشار إليه الطائر برفيف جناحيه نحو الأقزام المسلحين المختبئين خلف الأشجار، وقال له :

" إنهم على وشك الهجوم على الفيلة وذبحها " .

قال أجبا في دهشة :

" ولم يفعلون ذلك ؟ "

قال الطائر القيثاري :

"لقد سرق الرجل الغراب مخزنهم وتركهم يتضورون جوعا. ولم يجد أبنوس حلا لتدبير الغذاء لقبيلته إلا في لحم الفيلة "

قال لهم الطبيب الشاب :

" إذا فعل أبنوس ذلك فانه سيفسد كل شيء، وسيوقف هجوم الفيلة على قلعة الرجل الغراب . لابد من أن نهبط فورا، حتى نمنع هذه الكارثة " .

خرج الأقزام المخطوفون من النافذة، وساعدوا الطبيب

الشاب في الهبوط إلى خارج القلعة، ثم هبطوا خلفه بسرعة البرق، واتجهوا من الفور نحو الأقزام المسلحين المختبئين خلف الأشجار المواجهة للقلعة الخشبية .

سمع أبنوس طقطقة الفروع التي تتكسر، فأمر رفاقه بأن يتأهبوا . أوشك رجال أبنوس أن يطلقوا سهامهم نحو أجبا والجوز الأسود وماهوجني وعين الفهد والأقزام الكسالى الهاربين من ذويهم، وعندئذ ألقى آباؤهم بسهامهم على الأرض، واندفعوا نحو أبنائهم يحتضنونهم، ويغمرونهم بالقبلات. سأل أحدهم عن ابنه أبو منجل، فأجابه أجبا قائلا: " لقد اعتقله الرجل الغراب " .

تقدم الطبيب الشاب نحو أبنوس، وقال له :

" لقد علمتك الكثير، لكنك الآن تخيب رجائي ! كيف تتخذ قرارا بصيد الفيلة، وأنت تعلم أن عدونا الرئيسي هو الرجل الغراب، ولا بد من أن نتحد جميعا أشجارا وأقزاما وحيوانات لطرده من غابة الضباب ؟ " .

قال له أبنوس بصوت خفيض :

" لقد كادت قبيلتي تموت من الجوع ؟ فماذا افعل "؟.

التفت الأقزام وراءهم لما سمعوا خشخشة الأوراق،

فوجدوا شادي وأمير والشمبانزي والزرافة والقرد العجــــوز والفيل العجوز وآلافا من النمل الأبيض يتقدمون نحوهم .

تقدم زعيم النمل الأبيض، وقال لأبنوس :

لابد من أن نثأر من الرجل الغراب . لقد قتـــل الآلاف من شعبي، أشعل النار حول جحورنا، لأننا نتلف الأشجار التي يريد قطعها . وأنت تعلم أن جهازنا الهضمي يتوقف عن العمل إذا تعرض لدرجة حرارة عالية، ولقد مات الكثيرون جوعا من جراء ذلك، لأنهم لم يستطيعوا هضم سِلْيُولوز الخشب " .

همس الطبيب الشاب لأمير قائلا :

" إنها فكرة الطبيب العجوز، ثم وجه حديثه لأبنوس :

" قد يكون النمل الأبيض عدوا للأشجار لكنه في هذه اللحظة سوف يحارب معنا، ليثأر من الرجل الغراب " .

فجأة صُوِّبت أنظار الجميع نحو القلعة الخشبية، فقــــد سمعوا صوت انفجار القنابل المُسَيِّلة للدموع، وكادوا يختنقـون من الغازات، وسالت دموعهم، واشتد سُعَالهم .

حطمت الفيلة البوابة الرئيسية والأبـــواب الفرعيـــة للقلعة واقتحمتها، وأخذت تمشطها بحثا عن الرجل الغـــراب والحراس، إلا أنها لم تجد أي أثر لهم . وفي طريقها إلى الخــــارج

سمعت طفلا يصرخ ويدق الأبواب طلبا للنجاة وقد كان أبو مِنْجَل الذي حبسه الرجل الغراب في إحدى الغرف. تقدم فيل نحو الغرفة وحَطَّم بابها، والتَقَطه بخرطومه، ثم خرجوا من القلعة غاضبين .

أخذوا يفتشون بين الأشجار عن الرجل الغراب والحراس حتى وجدوا أنفسهم – وجها لوجه – أمام الأقزام المسلحين. أنزل الفيل أبو مِنْجَل، فجرى نحو أبيه الذي بكى من شدة الفرح .

أصدر الفيل الذي فقد أحد نابيه على إثر معركته السابقة مع الأقزام هديرا مخيفا، وتقدم نحو الأقزام رافعا خرطومه. وقف الفيل العجوز أمامه تماما، وانتهره قائلا :

" هل جننت ؟! انهم أصدقاؤنا، وسوف يساعدوننا في حربنا ضد الرجل الغراب ".

قال الفيل الغاضب لزعيمه:

" هل نسيت – يا زعيم – ما فعلوه بنا من قبل ؟ " .

– لقد خدعهم الرجل الغراب، ولم يكن الذنب ذنبهم. إنه ذنب زعيمهم السابق الذي خان قبيلته، وأراد أن يصنع تماثيل من العاج للرجل الغراب وصديقة الطبيب .

قال أمير متسائلا :

" وأين ذهب الرجل الغراب ؟ " .

أجابه أبو منجل :

" لقد هرب من السرداب السري الـذي يـؤدي إلى الجهة الأخرى من الغابة " .

***

فوجئ الجميع بانفجار ضخم كـاد يصـم آذانهـم، تناثرت الثمار من باطن الأرض كأنها تلفـظ أحشـاءها، واحترقت بعض الأشجار حولهم، ثم تشـقق سـطح الأرض وابتلعت بعض الأقزام، إلا أن الفيلة استطاعت أن تلتقطـهم بخراطيمها في اللحظة المناسبة، ساد الذعـر، وصـرخ أحـد الأقزام قائلا :

" إنه الزلزال، لقد أتت به الحيوانات الملعونة : القـرد العجوز والفيل العجوز والزرافة والشمبانزي، ومعهم شـادي وأمير .

صرخ الطبيب الشاب في وجوههم قائلا :

" انه ليس بزلزال – لقد فجر الرجل الغراب كميات كبيرة من القنابل الشديدة الانفجار في مناطق متفرقة من الغابة، حتى يثير الفزع فيما بينكم ".

ثم التقط حِفْنَة من رماد البارود المتناثر فوق الأرض، وقال لهم :

" هذا هو الدليل على صِدق قولي " .

وقال أبنوس آمرا :

" لابد من أن نغادر هذا المكان فورا قبل أن تنفجر قنابل أخرى، ونهلك جميعا " .

طفت الأسماك الميتة على سطح النهر الفضي، واختلطت بثمار زَنْبَق الماء الأبيض التي تشبه العنب، وكلاب الماء المحتضرة .

جلست أنثى فرس النهر على البر وهي تنتحب، فتمتزج دموعها بعرقها الأحمر الوردي . اقترب منها الشمبانزي، وقال لها مداعبا :

" لن أستطيع الآن أن أتسلق نخلة السكر حتى أحضر ثمارها لصغيرك الجائع، لأنها احترقت تماما "

أجابته أنثى فرس النهر وهي تبكي :

" لقد مات صغيري، واستقرت جثته في قاع النهر "

صرخت الترسة النهرية التي كانت تجلس إلى جوارها وهي تشير إلى شادي وأمير والشمبانزي وحكماء الغابة والفيلة والأقزام :

" هذه هي الكائنات الملعونة التي جلبت الزلزال، وقتلت صغيرك. فلنهرب – يا أختي – قبل أن تصيبنا لعنتها "

أجابت أنثى فرس النهر في سخرية مرة :

" إنك ترسة حمقاء وغبية لقد رأيت حراس الرجل الغراب وهم يلقون بالمتفجرات في النهر الفضي، فلا ترددين هذه الخرافات " .

انكمشت الترسة النهرية في صندوقها الزيتوني الرخو بعد أن أحست بالخزي والخجل .

قال أبنوس :

" ماذا نفعل الآن ؟ كيف نصل إلى الرجل الغراب وحراسه وهم يختبئون في الأبراج والأرصفة التي شيدوها في الطوابق العليا من الغابة ؟ " .

قال أمير :

" فلنمزق سلم الحبال الذي يوصل إلى هذه الأبـواج، حتى نمنع هبوطهم " .

وتساءل الفيل العجوز :

" وكيف نصعد إليهم ؟ " .

أجابه أمير قائلا:

" يستطيع الأقزام تسلق الأشجار مـــن دون عنـــاء، وكذلك الشمبانزي " .

قال شادي معترضا :

"أنسيت انهم مسلحون، وقد يقتلون من يصعد إليهم؟"

قال القرد العجوز :

" لابد من البحث عن وسيلة تجعلهم يهبطون مرغمين"

فوجئ الجميع بحشد هائل من النمل الأبيض والنمـــل الأحمر، والحشرات ذات المئة رجل وذات الألف رجـــل، وأم أربعة وأربعين، والعقارب العملاقة، والعقارب ذات الذيـــول الضخمة، والعناكب، والسحالي التي تطير، يتقدمون نحوهـــم كأنهم جيش جرار .

قالت نملة بيضاء لشادي :

" قد تعتقدون – يا معشر البشر – أن النمر والأسد أو الفيل هم أسياد غابة الضباب، ولكن – في الواقع – نحن – المخلوقات الصغيرة، وما تطلقون عليها الحشرات – أسياد الغابة الحقيقيون، وبرغم أن بعضنا يفترس البعض، فإننا اتفقنا على أن نتحد معا حتى نطرد الرجل الغراب من غابة الضباب"

قال القرد العجوز ضاحكا :

" لقد حضر من يستطيع إجبار الرجل الغراب وحراسه على الهبوط " .

في الحال بدأت الحشرات ذات المئة رجل وذات الألف رجل حركتها لحصار الأشجار التي تقع فوقها الأبراج، كانت تسير على هيئة موجات حركية متتابعة منتظمة المسافات، وتتحرك أرجلها بالطريقة التي تعمل بها الشواكيش داخل (البيانو)، عند مرور الأصابع على لوحة المفاتيح .

افرز البعض سائلا مضيئا معلنا عن غضبه وتحفزه للقاء الرجل الغراب، وابرز البعض الآخر مخالبه السامة استعدادا للدغه، التفت بعض الحشرات ذات الأرجل على هيئة زُنْبُرُك الساعة، واستعدت لنفث رائحتها السامة وسائلها الحارق .

أبرزت العقارب لوامسها القدمية – وهي عبارة – عن مخالب كبيرة تستخدم في الإمساك بالفريسة – وجعلت كل منها زبانيها عند طرف ذيلها في وضع الاستعداد – أما العناكب فقد استغلت قدرتها على غزل الحرير وغزلت مصيدة كبيرة تحت الأشجار، حتى تستطيع الإمساك بالحراس عندما يسقطون .

ولحظة أن أتمت العقارب، والعناكب، والحشرات ذات المئة رجل وذات الألف رجل استعدادها، حلقت السحلية الطائرة فوق الطوابق العليا للغابة، لتحدد مواقع الأبراج والأرصفة، والمكان الذي يختبئ فيه الرجل الغراب وحراسه، ثم بسطت غشاءها الجلدي إلى الخارج، لتنزلق بواسطته من شجرة إلى أخرى، إلى أن استطاعت أن تحدد الرصيف الذي يختبئ فيه الرجل الغراب، وعندئذ أعطت النمل الأبيض والأحمر إشارة البدء بالهجوم، بأن ألقت بثمرة جافة إلى الأرض.

صعدت جيوش النمل الأبيض والأحمر على الشجرة القريبة من الرصيف الذي يختبئ فيه الرجل الغراب، ثم انتقلت إليه عبر النباتات الطفيلية التي غطت الحبال وانتشرت على جسده، فاخذ يطلق النار عشوائيا في الهواء من دون جدوى،

لكنه استطاع أن يلتقط بندقية قذف الحبال التي يستعملها البحارة لإطلاق حبال التسلق داخل قمم الأشجار، وقفز عبر الأشجار وهو يصرخ من الألم، ويحاول أن يخلص الحبل بعد أن تشابك بين النباتات العالقة التي تجعد الظلال في غابة الضباب.

صاح الرجل الغراب وهو يكاد ينفجر من الغيظ : " سوف ألتقي بكم قريبا في البحار وفي المحيطات، مع الأسماك والحيوانات البحرية " .

سقط بعض الحراس المذعورين في مصيدة العناكب، فتقدمت العقارب لتلدغهم . صرخوا يطلبون النجدة من شادي وأمير، فاعترض أمير طريق العقارب قائلا :

" فلنكتف بطردهم من الغابة "

تسمرت العقارب في مكانها ورفضت التراجع، إلا أنها تقهقرت – على الفور – حينما تحركت الفيلة نحوها .

التهم النمل الأبيض والأحمر النباتات العالقة والطفيلية التي تحجب ضوء الشمس عن الغابة، وذابت الأبخرة التي تتصاعد في سحب زُرْق في الخيوط التي غزلتها الشمس، وهبطت ضَيّ من السماء كما تهبط الفراشات، ترتدي فستانها

المزركش بالنجوم البيضاء والحمراء والخضراء والزرقاء، ويعلو صدرها قمر برتقالي وهلال بنفسجي، وقد جدلت شعرها كذيل الحصان بشرط صفراء .

قالت ضيّ لشادي وأمير :

"لنترك غابة الضباب بعد أن تحررت من الرجل الغراب، ولنذهب فورا إلى البحار والمحيطات، كي نحذر الأسماك من الخطر المقبل "

ودع شادي وأمير أصدقاءهما الأقزام الفيلة وحكماء الغابة، وأمسك شادي بقدمي ضيّ . وحينما همت بالطيران، جرى أمير الذي كان منشغلا بتوديع الزرافة خلفهما، وأمسك بقدمي أخيه، اخترق ثلاثتهم الغطاء الأخضر لغابة الضباب وهم يلوحون للنمل الأبيض والأحمر الذي انهمك في التهام بقايا النباتات الطفيلية والعالقة التي كانت تحجب ضوء الشمس عن الغابة .

في صفحة أخرى .. من كراسته، رسم شادي السحلية الطائرة وهي تنزلق بخفة من شجرة إلى أخرى، والعقرب ذا الذيل الضخم، والحشرة ذات الألف رجل وذات الجسم الأسطواني البني اللون، وقال لهم بافتخار :

" إنكم أصدقاء حقيقيون لقد أنقذتم غابة الضباب من الرجل الغراب "

اندفع العقرب ذو الذيل الضخم نحوه، وقال :

" لقد انتهت المعركة، ولم نعد أصدقاء الآن "، ثم قوَّس ذيله فوق ظهره، وأبرز زبانَيْه ليلدغه، بينما اقتربت الحشـــرة ذات المئة رجل، ونفثت نحوه رائحتـــها النفـــاذة، وســـائلها الحارق . أما العنكبوت فقد نصب حوله شـــباكه، حـــتى لا يستطيع الفِرَار. صرخ شادي وهو يحاول أن يمـــزق خيـــوط الغزل التي تلُفُّ جسده من دون جدوى .

اقترب منه أمير، وانتزع كراسة الرسم من يديه، وقال له مندهشا :

"لقد انتهى اليوم الدراسي وأنت لا تزال ترسم هـــذه الكائنات البشعة " .

أفاق شادي، واخذ يتحسس جسده في ذهول، ثم ربت على كتف أخيه، وقال :

" فلنسرع الخطى إلى المنزل، فإن الكـــابوس الـــذي داهمني جعلني أتضور جوعا " .


زهرة اللوتس
والضفدع الثور










نبيل خلف


شرقيات

زهرة اللوتس
والضفدع الثور

زهرة اللوتس والضفدع الثور

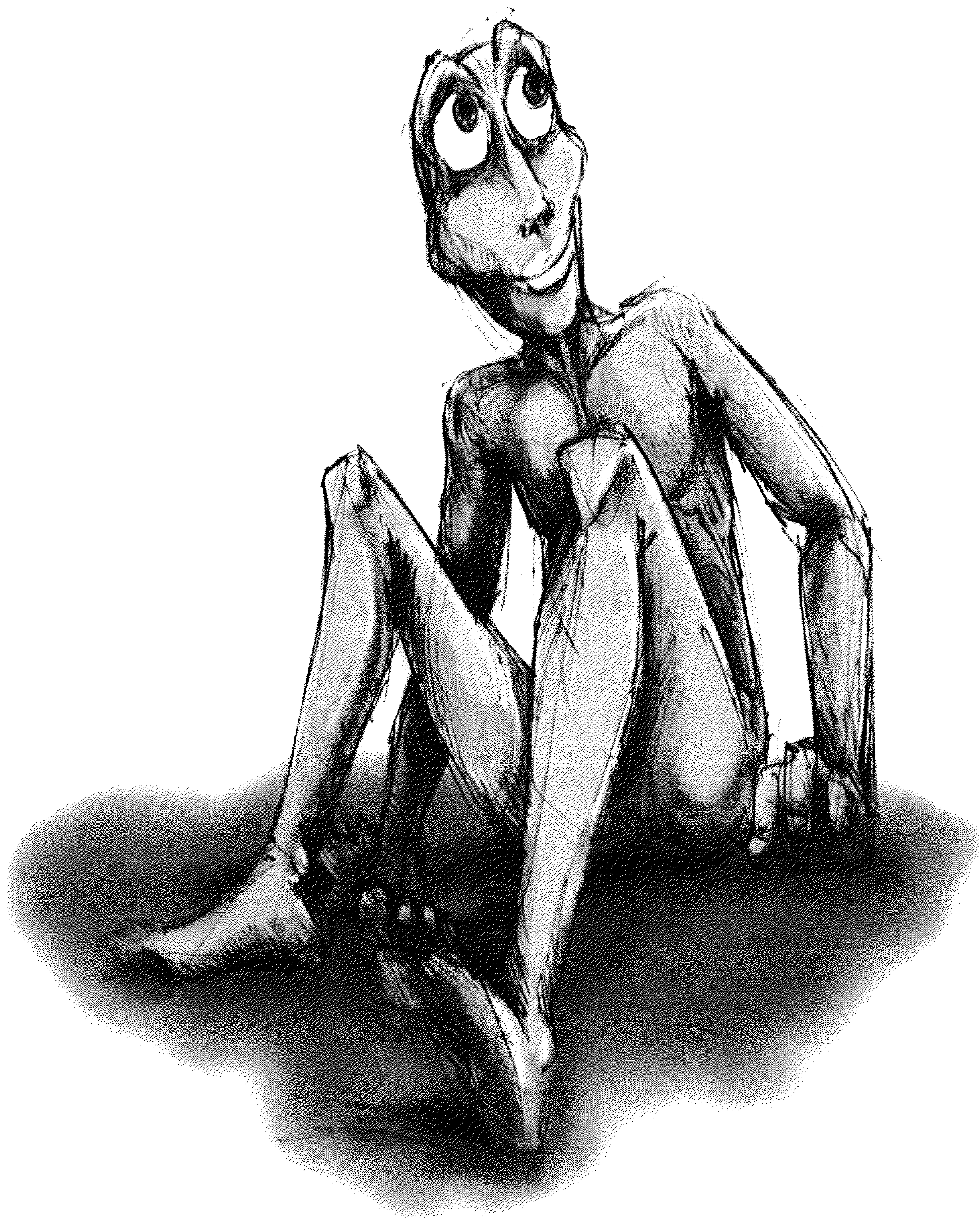
نبيل خلف

رسوم: طارق علي

الطبعة الأولى ٢٠٠١

دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة





ضحكت "رنا" حين رأت ذكر "الضفدع ذي الشفة البيضاء" يرقد على سريرها الخشبي ذي الأرجل الثمانية التي شكلت على هيئة زهرة اللوتس الحمراء، والذي وضعته أمام باب السرداب السري الذي يفصل بين حديقتها المائية في الشمال حيث تنتشر فيها أزهار اللوتس، وحديقتها المائية في الجنوب التي زرعت بها أزهار البردي. تقلب الضفدع على حشية السرير المجدولة من الخوص ثم قفز منه على الأرض الطينية وظل يطوف بشكل متعرج حول أرجله الثمانية حتى شعر بالدوار..

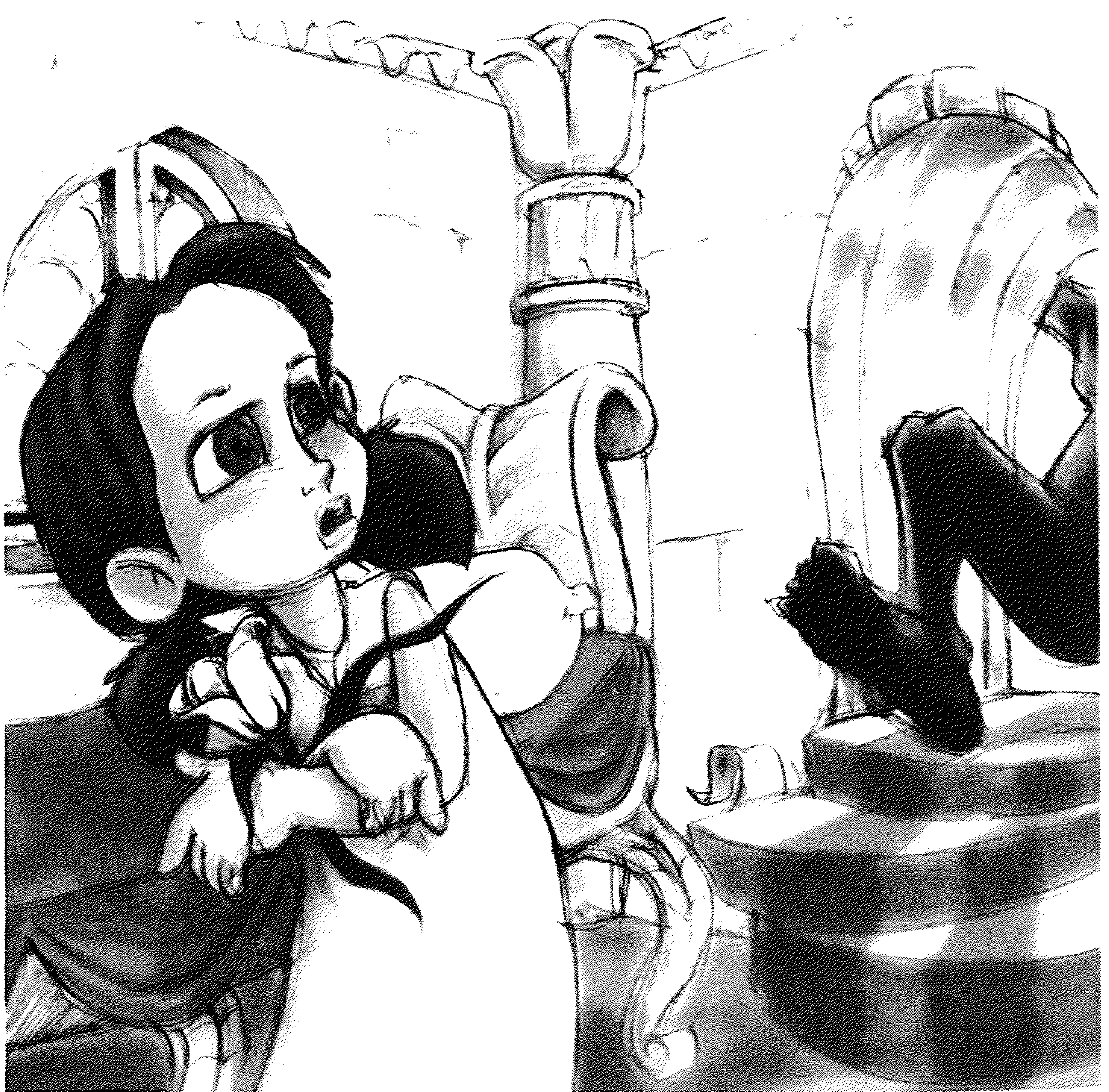
فوجئت "رنا" بأنه يطمر مؤخرته في الطين رافعا رأسه وأطرافه، تأملت كيسه الصوتي الذي ينتفخ بشكل انفجاري كبالونات أعياد الميلاد، ثم يرتطم بالأرض عند نقيقه محدثا

موجة من الاهتزازات الأرضية انسربت تحت قدميها فأحست بدغدغة خفيفة.

همست "رنا":

ـ هل يريد هذا الضفدع المجنون أن يحدث زلزالا؟

مسحت قطرات المطر التي بللت شعرها وخديها وقلادها التي تتدلى منها أزهار اللوتس الحمراء والبيضاء، لمحت أنثى "الضفدع ذي الشفة البيضاء" هرول نحو رفيقها قفزا مستخدمة قائمتيها الخلفيتين الطويلتين للوثوب في الهواء، ولم تنس أثناء وثبها أن تدفع بلسانها إلى الخارج حيث التف طرفه الخشن اللزج حول بعض الحشرات المتحركة أمامها ثم التهمتها بسرعة البرق واستكملت وثبها حتى اقتربت من رفيقها الذي أخرج مؤخرته من الطين ووثب نحوها فرحا إلا أنه اعتراه الذهول حين رأى أنثاه تتجمد في مكانها من فرط الرعب، قام بالضغط على رئتيه مع إغلاق فمه ومنخريه كي يجبر الهواء على المرور عبر الأوتار الصوتية ويحدث صفيرا حادا ليوقظ أنثاه من سباقها، ولم يؤد هذا الصفير إلا إلى اهتزاز منطقة صغيرة في الجدار الجانبي لجسمها وظلت ثابتة بلا حراك.. هرولت "رنا" نحوهما وهي تشعر بالإحباط لأنها لن ترى العرس الجميل الذي حلمت بأن تراه منذ أن سمحت في





الصيف الماضي للضفدع ورفيقته بالإقامة في حديقة اللوتس حين فرا من موطنهما بعد المجزرة التي أحدثها الضفدع الثور، سمعت أصواتا كادت أن تصم أذنيها، تلاشى الصفير الذي ظل يحدثه ذكر الضفدع ذو الشفة البيضاء دون يأس، لم تسطع "رنا" أن تتبين كنه تلك الأصوات، قد تكون اصطخابا حيث تختلط أصوات الضفادع والطيور، أو صياحا شديدا يمتزج فيه لهاث الكلاب وهدير البعير وفرقعة الأصابع باصطفاق أجنحة البوم، ثم اشتد الصراخ تدريجيا حتى أصبح جلجلة وجمجمة وجهيرا وحشرجة الماء حين يضيق به النهر في ممر جبلي متعرج.

تقهقرت "رنا" للخلف هلعا حتى كادت قدماها أن تهصر زهرة لوتس تطل من حافة حديقتها المائية، تأوهت الزهرة من الألم، التفتت نحوها "رنا" وانحدرت دمعتان من مقلتيها، وقالت لها بأسى:

ـ ما الذي يحدث حولنا؟

أشارت زهور اللوتس بسيقانها نحو باب السرداب السري محدثة صوتا واهنا يشبه سقسقة العصافير وصوت اللبن عند الحلب. نظرت "رنا" في ذعر للقوائم الخلفية والأمامية لضفادع الثور تشق باب سردابها السري وتحدث

صريرا لم تستطع أن تتبين حقيقته، هل هو صرير الجنادب التي تحدثه من رجليها إذا طارت أم صرير الجراد أم صليل الحديد أو صلصلة المسامير التي انتشرت على الأرض أمام الباب أم طقطقة الحجارة التي تكسرت حوله..

لم تستطع أن تعرف مصدر هذا الصرير، هل كان شخيرا من الفم أم نخيرا من المنخارين أو كان كريرا من الصدر.. لم تعرف إلا أنه كان صوتا بغيضا تمجه الأذن ويقشر له البدن.

تفتت باب السرداب السري إلى ذرات لا ترى إلا بالمجهر، ثم اندفع جيش من ضفادع الثور يحمل صررا صنعت من أوراق البردي وممتلئة بمكعبات الثلج، وصعد فوق سريرها فتمزقت حشيته المصنوعة من الخوص وتناثرت أرجله الثمانية في أرجاء الحديقة، أفاقت "أنثى الضفدع ذي الشفة البيضاء" من غفوهما حين رأت هذا الجيش ينثر الثلج حول رفيقها الذي حاول الاختباء حول أحد أرجل السرير المحطم دون جدوى.. ركضت نحو حديقة اللوتس، تعثرت بين قدميه "رنا" فشهقت من الخوف، ربتت "رنا" على جسدها ثم حملتها برفق وألقت بها في الحديقة المائية، احتضنتها أزهار اللوتس وأوراقها فشعرت بالدفء يسري في جسدها، انفجرت في البكاء





وقالت للزهور:

ــ لقد تركت رفيقي يواجه مصيره المحتوم بمفرده كي أنجو من الهلاك.. إنني مخلوقة أنانية بشعة، لا بد أن ألحق به، فليس للحياة معنى دونه، سوف ينقرض نوعنا إلى الأبد ولن تكون لنا ذرية.. فنحن المخلوقان الوحيدان الباقيان على قيد الحياة بعد المجزرة التي ارتكبها "الضفدع الثور" في وطننا.

نطقت بتلك الكلمات ثم حاولت القفز من الحديقة المائية كي تنقذ رفيقها أو تلقى حتفها مثله، إلا أن أزهار اللوتس ضمتها بعنف بأوراقها وقالت لها بحسم:

ــ كفاك تهورا وانظري نحو السرداب السري.

حملقت أنثى الضفدع ذو الشفة البيضاء نحو الطريق المؤدي إلى السرداب السري فرأت "رنا" تبزغ في العتمة مثل الشمس حيث تتألق في رقبتها زهور اللوتس مثل شموس بيضاء وحمراء وتحمل على كفيها برفق رفيقها بعد أن أزاحت عن جسده قطرات الثلج وجففته بردائها الكتاني، ركضت نحو حديقة اللوتس مثل غزالة يلاحقها جيش من ضفادع الثور ويقذفونها بمكعبات الثلج.. قفزت "رنا" في حديقة اللوتس المائية وأطلقت الضفدع الذي يقشعر جسده من البرد نحو رفيقته التي احتضنته وأجهشت بالبكاء.. التفت أزهار اللوتس

حول "رنا" ولفت أوراقها على جسدها كي تمنحــها بعــض الدفء لحين انبلاج الصباح وشروق الشمس، إلا أنها فوجئت بضفادع الثور تحاصر الحديقة وتلقي بصرر الثلج بهــا حــتى غمرتها تماما. صرخت "رنا":

ــ سوف نتجمد من البرد ولن يستطيع الضفــدع ذو الشفة البيضاء أن يقيم عرسه وسوف ينقرض نوعه.. وســوف تندثر آخر حديقة للوتس من الوجود بعد أن سرق "الضفـدع الثور" المخزون السري من البذور الذي ورثته عن أبي.

توقفت "رنا" عن الصراخ ونظرت بدهشـــة لزهــور اللوتس التي تفتحت ليلا عن غير عادتها وأشعت من مراكزهـا الإسفنجية ذات الشكل المخروطي المقلوب قدرا من الحــرارة كان كافيا لإذابة الثلج من الحديقة. بعد لحظــات قليلــة ثم انتفخت أوراقها حتى انفجرت وطلع من مراكزها جيش مــن الجعران المقدس تحيط برؤوسه أشعة الشمس واستحال الليــل نهارا مشرقا، لم تستطع "رنا" أن تتبين ملامح الجعران الــذي يقف متأهبا بجوارها، هل هو من الطين المحروق أم من الشــمع المصهور أم من الألباستر أم مخلوق حي ينبض بالحياة.. نظـرت "رنا" إلى السماء فخالتها سقفا مزركشــا بزهــور اللوتــس البيضاء والحمراء، وتضحك ملء أشداقها، اندفــع جيــش

الجعران المقدس نحو ضفادع الثور يحمل مزامير من البـــوص تعلوها زهور اللوتس وبدأ عزفه المقدس الذي سمعتـه "رنـا" أحيانا قرقرة الريح عند الهبوب أو صوت الملح المجـروش إذا صب بعضه على بعض أو همس الحروف حين تكتب حكايتـها على ورق البردي ــ وأحيانا أخرى ــ تسمعه مثل معمعـة الحريق في حقول القصب ونشيش ماء النهر عند الغليان ونعير العروق حين يتفجر منها الدم أو زلزلة يأتي دويها من البحـر البعيد. طلعت "رنا" من حديقة اللوتس كي تقـود جيـش الجعران المقدس في معركته الحاسمة ضد "ضفـادع الثـور".. ورغم أنهم كانوا يرتجفون رعبا إلا أن صلفهم وغرورهم حـلل بينهم وبين الهرب. تقدم قائدهم نحو "رنا" وقال لها بصـوت يشبه هسيس الأفاعي:

ــ فلنعقد اتفاقا يبنى على التسامح، ويضمن لجميـع الأطراف العيش في سلام ثم نرحل بهـدوء ونـترك حديقـة اللوتس لأهلها. قالت له "رنا" بتوجس:

ــ نحن لم نسع للحرب ولم نضمـر شـرا لأحـد .. وأطلب منكم أن ترحلوا بهدوء ودون قيد أو شرط، وحـين تفعلون ذلك سوف نحاول أن نغفر لكم آثامكم.

ضحك الضفدع الثور ساخرا وأخرج من صنـدوق

صغير مطعم بالصدف ورقة من البردي وأعطاها "لرنا" وقـال لها:

ــ لقد استطعنا أن ندمر حديقتك المائيـة في بضـع لحظات واستولينا على مخزونك السري من بـذور الـبردي واللوتس .. فلتتوخي الحكمة قبل اتخاذ القـرار بـالقبول أو الرفض.

قرأت "رنا" الاتفاقية التي نسخت على ورق الـبردي بالحبر الأسود واكفهر وجهها غضبا وألقت بها علـى الأرض وقالت له:

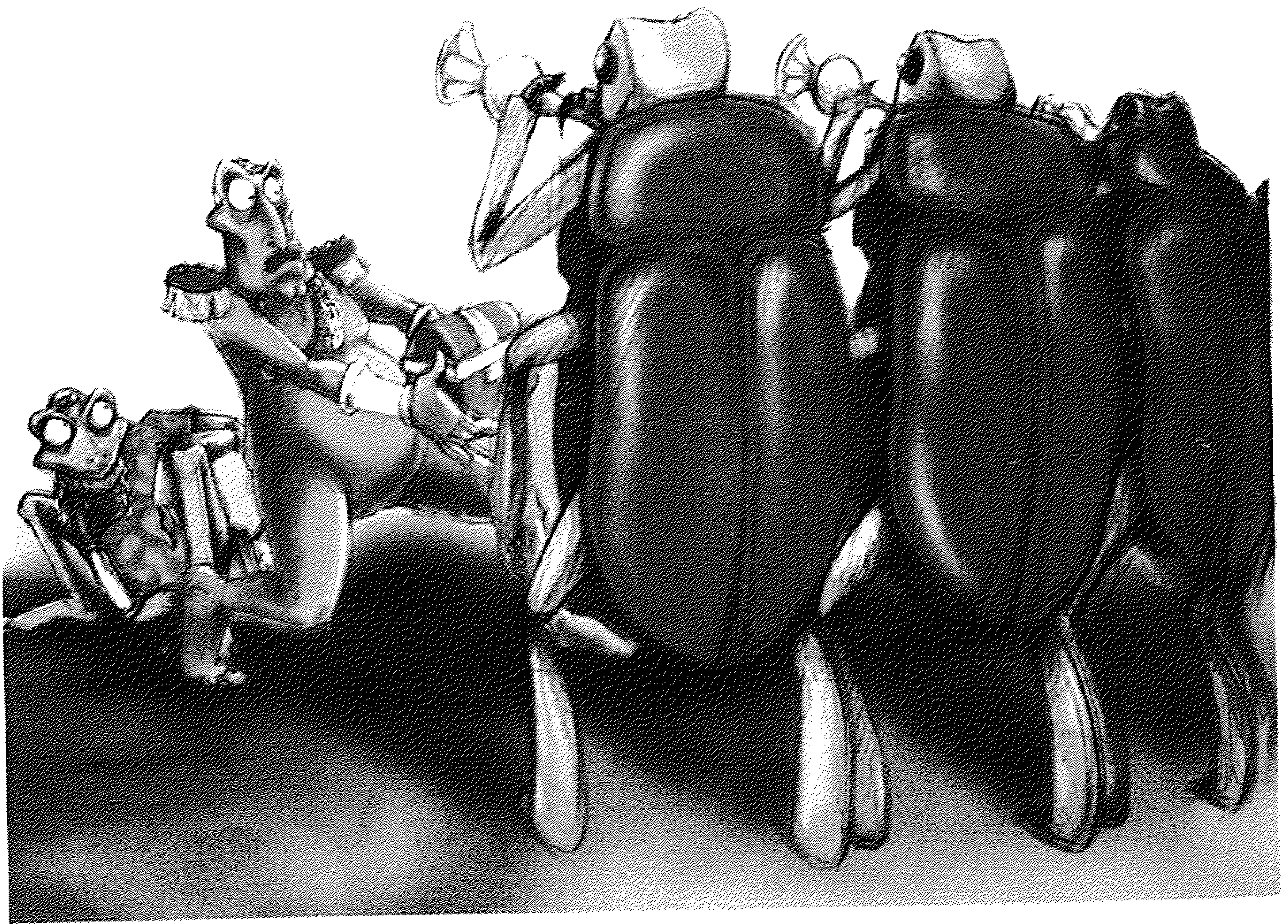
ــ هل تريد أن أنتزع من زهور اللوتس أعضاءها الـتي تنتج الحرارة كي توقف تكاثرها وإخصابها وينقرض نوعـها مقابل رحيلك المحتوم.

قال لها الضفدع الثور بأدب منمق:

ــ ليس مقابل رحيلنا فقط.. بـل سـوف أمنحـك مخزونك السري من بذور اللوتس والبردي الذي يكفي عـدة حدائق مائية.. هل رأيت كم أنا أبدو كريما ومتسامحا.

قالت له "رنا" بغضب:

ــ كيف يمكن أن يتم تسامح بين السارق والمسـروق،



والغازي والمحتل، والقاهر والمقهور..

صمتت برهة ثم قالت له بخبث:

ـ إنك تعرض عرضا سخيا يصعب على المرء رفضه، إلا أنني سوف أقبل ذلك بشرط أن تمنحنا عضلاتك الصوتية وأوتارك وكيسك الصوتي كي نحمي أنفسنا من صراخك الذي يصم الآذان.

امتعض وجه الضفدع الثور وتقهقر للخلف حتى كاد أن يتعثر في القوائم الأمامية لأحد جنوده، انتزعت إحدى زهور اللوتس ساقها الأخضر الطويل وألقت به نحو "رنا" الذي استحال في يدها إلى سوط مجدول طوحته في الهواء فأسرعت ضفادع الثور بالفرار نحو باب السرداب السري ـ ركضت نحوهم حتى لحقت بهم قبل أن يفروا واستولت على مخزنها السري من البذور ثم استحال السوط المجدول إلى قطة تقف على فروع من أزهار اللوتس.

انقضت على الضفادع والتهمتهم في لمح البصر ثم استندت على فروع اللوتس مرة أخرى واستحالت إلى تمثال من المرمر.

دلفت "رنا" من السرداب السري نحو حديقتها المائية

في الجنوب كي تنثر بذور البردي وتبدأ في رعايتها مرة أخـرى وهمست بصوت يشبه نوح الحمام:

ــ هل ستغفر لي أزهار البردي عجــزي عــن منــع المجزرة!

فراشة الأميرة الحمراء

تأليف: نبيل خلف   رسم: حلمي التوني



دار الشروق

فراشة الأميرة الحمراء

فراشة الأميرة الحمراء

رواية علمية تهتم بالبيئة للأذكياء من الفتيان والفتيات

(من سن ١٠ إلى ١٦ سنة)

نبيل خلف

رسوم: حلمي التوني

الطبعة الأولى ١٩٩٨

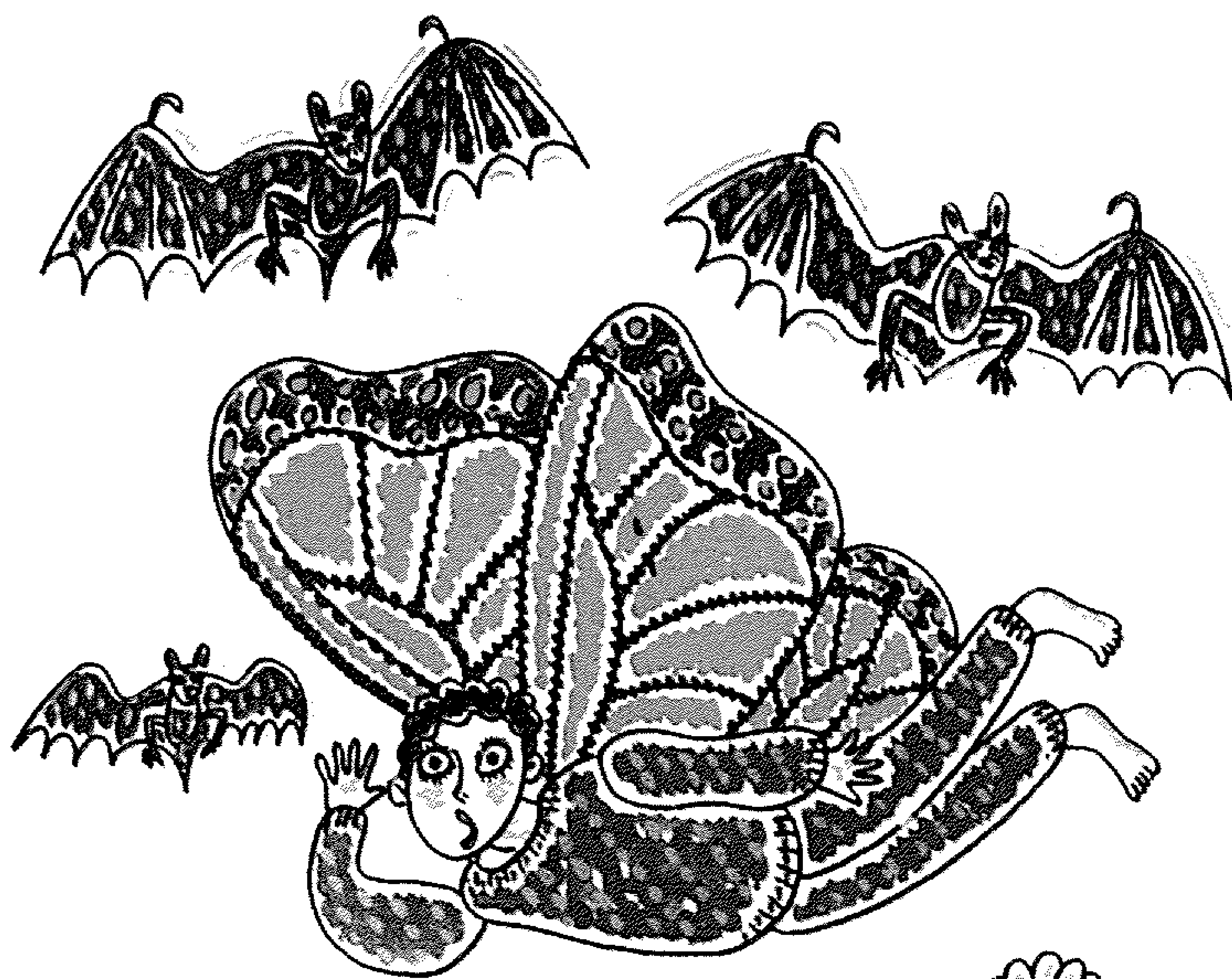
دار الشروق، القاهرة

رقم الإيداع ١٠٥٨/١٩٩٨

الترقيم الدولي: ISBN 977-09-0478-3

إلى أبي

الذي لا يزال طفلاً، ولم ألتق به حتى الآن





الفراشة الملكة

استيقظت رنا من النوم. فركت عينيها، ثم جلســـت القرفصاء على سريرها، وراحت تتأمل شعاعا من نور الصباح يتسلل من شق صغير في النافذة المغلقة، وينساب بين أصـــابع قدميها . نظرت بضيق إلى زيها المدرسي المعلق على المشـــجب، وحين همت بارتدائه تذكرت أن اليوم عطلة. فشهقت مـــن الفرح، ألقت به على السرير بإهمال، وهمست قائلة :

" لقد تلقينا وعدا من أمنا بالتنـــزه اليوم على شـــاطئ البحر"

نظرت نحو سرير أخيها وائل، فرأته يطوح ذراعيه كأنه يطير، ويضم شفتيه كرضيع يمتص ثدي أمه .

أسرعت رنا نحو أخيها، وهزته من كتفيه برفق، فنـهض من نومه، وحدق في وجهها بعينين زائغتين، وقال لها:

" لقد حلمت بأنني فراشة ترفرف حول زهرة تتــــلألأ أوراقها البيضاء مثل النجوم، سألتها عن اسمها، فقالت إنهـــا زهرة اللؤلؤ... مددت خُرْطُومي لكي أرتشف رحيقها، قبـل أن تغلق تُوَيْجَها لتنام عند غروب الشمس، ففوجئت بمئات مــن الخفافيش السوداء تُصدر نعيبًا كئيبًا، وتضربني بأذنابها، وتمـد ألسنتها الطويلة المستديرة في تُوَيْج الزهرة وتلعــق رحيقــها. أسرعت بالفرار، واحتميت بشجرة عملاقة ذات لون أصـهب وأوراق صغيرة، وظللت أرقب الزهرة بحسرة ... كانت كلمـا أغلقت تويجها لتنام فتحته الخفافيش بأسنانها الحـــادة قســرًا، أصدرت زهرة اللؤلؤ أنينا خافتا وانثالت الدموع من عينيــها، وتضرعت إلى الشجرة العملاقة لتذود عنها، فمدت فروعــها، وأمسكت بالخفافيش السوداء، وألقت بها في الفضاء .

طرت نحو الزهرة لأمتص ما تبقى بهـــا مـــن رحيـــق، ففتحت تويجها طَوَاعية، وشعَّ وجهها بالضياء، لكنني تجرَّعــت حسرتي إذ لم أجد إلا بضع قطرات من ماء مشبعة بالغبار .

نظرت بأسىً إلى الشجرة العملاقة الصـــهباء، فـــهالني شعاع شمس برتقالي ينساب بين وريقاتها الصغيرة، وتنـــــزلق عليه فراشة مبرقشة، تومئ إليَّ أن أتبعها . طرت خلفها حـــتى هبطت في غابة من زهور اللؤلؤ، كل زهرة فيها تشبه الزهـرة

التي امتص الخفافيش رحيقها. وكانت الزهور تفيض بـالرحيق حتى كاد ينسكب حولها، فأسرعت بارتشافه، وأحسستُ بنشوة لم أعرفها من قبل " .

لم تشأ رنا أن تخبر وائلا بأنها مرت بحلم مماثل أمس، فلقد حلمت بأنها فراشة بلا جناحين تغرق في مستنقع ضحل، وتنتشلها من الماء الآسِن فراشة مماثلة لتلك التي رآها وائل في حلمه، لكنها أحجمت عن الكلام، لأن في ذلك ما يخالف اقتناعها بأن النوم الحقيقي هو نوم بلا أحلام، مثلما أخبرتها أمها !

ساد الصمت بينهما لحظة. وقطعته رنا قائلة :

" فلنوقظ أمنا، لنذهب إلى شاطئ البحر" .

ارتدى الأخوان ملابس البحر، وأحضرا القارب المطاطي والنظارات المائية وجميع أدوات البحر الأخرى، وذهبا إلى غرفة نوم أمهما، فلم يجدا إلا سريرا خاليا مرتبا باردا، وكوبا تعلقت به قطرات من اللبن المتخثر، جمد الإحباط إقدامهما، وتلفتا حولهما علّهما يجدان رسالة اعتذار توضح لهما الأمر، لكنهما لم يجدا شيئا يهدئ روعهما .

هَرْوَلت رنا نحو غرفة أمها التي تستخدمها كمعمل

لأبحاثها في علم النبات، انتابها شعور عارم بـــالضيق عندمـــا رأت براعم وجذور القَرَنْفُل في أنـــابيب الاختبـــار تتلـــوى كالديدان في المحلول الكيماوي، كأنها تحاول التســـلق علـــى جدرانها الملساء، لتفلت من هذا السجن الزجاجي .

سمعت صرير الباب فالتَفَتَتْ خلفها لترى وائلا مقبـــلا نحوها مقطب الجبين ويبدو عليه الاكتئاب. قالت له بلهفة :

" هل عثرت على أمي ؟ " .

أجاب وائل وقد دمعت عيناه :

" لقد بحثت عنها في كل ركن من المترل، ولم أجد لهـــا أثرا " .

صرخت رنا قائلة :

" منذ أن رحل أبي إلى البحار البعيدة وأمي تحنـــث في وعودها من دون أن تقدم تفسير أو مبررا لذلك " .

رمَق وائل أوراق الشجر الذابلة والمتناثرة على المناضد الخشبية، وانفتح أنفه تلقائيا واستنشـــق الرائحـــة النفـــاذة للمحاليل الكيماوية، فانتابته نوبة حادة من السعال، وأســـرع بفتح النافذة، ليستنشق هواء نقيا .

فإذا بفراشة برتقالية مخططة بالأسود تبسط جناحيـــها



وتطويهما، وترفرف حوله. حملق وائل بإعجاب إلى جناحيها المزركشين بآلاف الحَراشِف الملونة التي أسدلت ظلالا حمراء وبرتقالية وبَنَفْسَجية على الجدران البيضاء، وقال :

" إنها الفراشة التي رأيتها في الحلم ! "

وهمست رنا بصوت يكاد يكون هَسِيسًا :

" إنها الفراشة الملكة التي انتشلتني من المستنقع ! ".

ابتسمت لهما الفراشة الملكة كأنها نجم يومض في سحابة دكناء، وقالت :

" لقد أخبرتني فراشات الأحلام بحلميكما اللذان مررتما بهما أمس، فهل ترحلان معي إلى بحيرة الأحلام، حتى أحقق لكما كل ما تشتهيان من أحلام ".

نظر وائل إلى رنا، وقال مندهشا :

" لم أحْجَمت عن ذكر حلمك لي ؟".

تجاهلته رنا، وقالت للفراشة الملكة بغضب واستنكار :

" كيف نرحل معك قبل أن نعثر على أمنا ؟" .

اهتزت الفراشة الملكة لنبرات صوتها الحادة ووجهها الغاضب، وطارت نحو أنابيب الاختبار، حتى أوشكت أن

تنزلق على حوافها المصقولة، لولا أن التقطها وائل في اللحظة الأخيرة، ووضعها برفق على كفه .

همست الفراشة الملكة في إذن وائل :

" سوف ترى أمك في بحيرة الأحلام في الوقت المناسب . وكل شيء بأوان " .

– سوف ارحل معك حتى ألقاها، لقد اشتقت إليها كثيرا !

زمت رنا شفتيها وقالت متأسية :

" كيف تتركني بمفردي في هذا البيت الفسيح ؟" .

قرض وائل أظافره وقال لأخته :

" لابد من أن أرحل . ويبدو أن أوان رحيلك إلى بحيرة الأحلام لم يأت بعد " .

قبل وائل أخته رنا في خديها، وتسلق الخيوط البرتقالية التي أرسلتها الشمس عبر النافذة، إلى أن هبط على إحدى الجزر في أرخبيل الفراشات .

بحيرة الأحلام

رأى وائل قوقعا يخرج من صدفته التي كان ينام فيها طوال الشتاء، ويزحف إلى الأمام على حافة قدمه مثل مركبة الجليد، ويطفئ ظمأه من الحشائش المشبعة بماء المطر، فعرف أن الربيع قد جاء.

ورأي أيضا براعم الصفصاف والحور والياسمين والدردار تطير فوق بحيرة الأحلام – بعضها بأجنحة والبعض الآخر بمظلات ريشية الشكل – وترسو على أرخبيل الفراشات .

واعترته الدهشة حينما استقرت كل منها في الموضع الذي اختارته بإرادتها، وأصبحت في لمح البصر أشجارا وزهورا وأعشابا خضراء .

جلس وائل القرفصاء على الأعشاب المخملية في إحدى الجزر التي تنتمي إلى أرخبيل الفراشات، منتظرا قدوم

الفراشة الملكية، كي تعطيه الإذن بالدخول إلى مملكة الأحلام.

واجتاحه قلق عارم، فقد تذكر أنه ترك أخته الصغيرة رنا بمفردها، وهما لم يفترقا من قبل، فكيف يقترف هذا الخطأ ويرحل بدونها. انحدرت دمعتان من مقلتيه، وأجهش بالبكاء، إلا أنه كف عن ذلك عندما أبصر الفراشة الملكية تحلق فوق الأشجار، وتنزلق ببطء على زهرة اللؤلؤ، وتحدق إلى وجهه، فهو يكره كثيرا أن يراه أحد باكيا، مسح وائل تجويفي عينيه بأصابعه، وراح يتأمل الأجنحة المزركشة لفراشات الأحلام التي ترفرف حول الفراشة الملكة مرحبة بقدمها .

قالت الفراشة الملكة وهي تتفحص وجهه :

" الناس أحرار في مملكة الأحلام وحدها، لأنهم يختارون أحلامهم بإرادتهم، ويسعون إلى تحقيقها، ورنا لم تتحرر بعد من عبوديتها لسلطان العقل المتزمت، وسوف تلحق بك وقت أن تستعيد إرادتها السلبية، وقدرتها على التفكير الحر والمبدع " .

اندهش وائل من قدرة الفراشة الملكية على تحليل الأمور والكشف عما يجول بخاطره، وقال لها :

" لقد جئت هنا بإرادتي، ولن أتراجع أبدا عن تحقيق حلمي بلقاء أمي "

أحست زهرة اللؤلؤ برنين هذه الكلمات يبعث الدفء في وريقاها، وينشر عصارة النشوة في جذورها، وشعرت بأن وائلا اصبح رجلا، وكادت تخبره بأنها أمه، وقد رحلت إلى بحيرة الأحلام، وحققت حلمها بأن تكون زهرة اللؤلؤ، لكنها لزمت الصمت، لكيلا تخرق دستور مملكة الأحلام، ويفقد وائل فرصته في تحقيق حلمه .

بدأت الفراشة الملكة طقوس الاحتفال، وأومأت بجناحيها إلى فراشات الأحلام، فطارت نحو يَنْبُوع الماء العذب المتفجر في بحيرة الأحلام، وملأت قنينة صغيرة وأعطتها لوائل الذي عبَّها من الفور، حتى شَرِقَ، وخيل إليه أنه شرب نهرا من الشهد حتى آخر قطرة فيه .

حطَّت الفراشة الملكة على كَتِفه وقالت له :

" لمملكة الأحلام دستور وعادات وتقاليد، وأول مادة في الدستور هي أن تختار حلما ملائما ومشروعا، حتى نسمح لك بالدخول إلى المملكة . فهل اخترت حلمك ؟".

رَنَا وائل إلى زهرة اللؤلؤ التي كانت ترقبه طَوَال الوقت، وتعجَّب حين رأى الرحيق يتفجر من تُوَيْجها ويندفع نحو فمه المفتوح من الدهشة في دَفَعَات متتالية، وازداد تعجبه لما مدت بَتَلاتِها نحوه كذراعين مخمليتين تتوقان لاحتضانه

اندفع نحوها بشكل لا إرادي، فاحتضنته وقالت له :

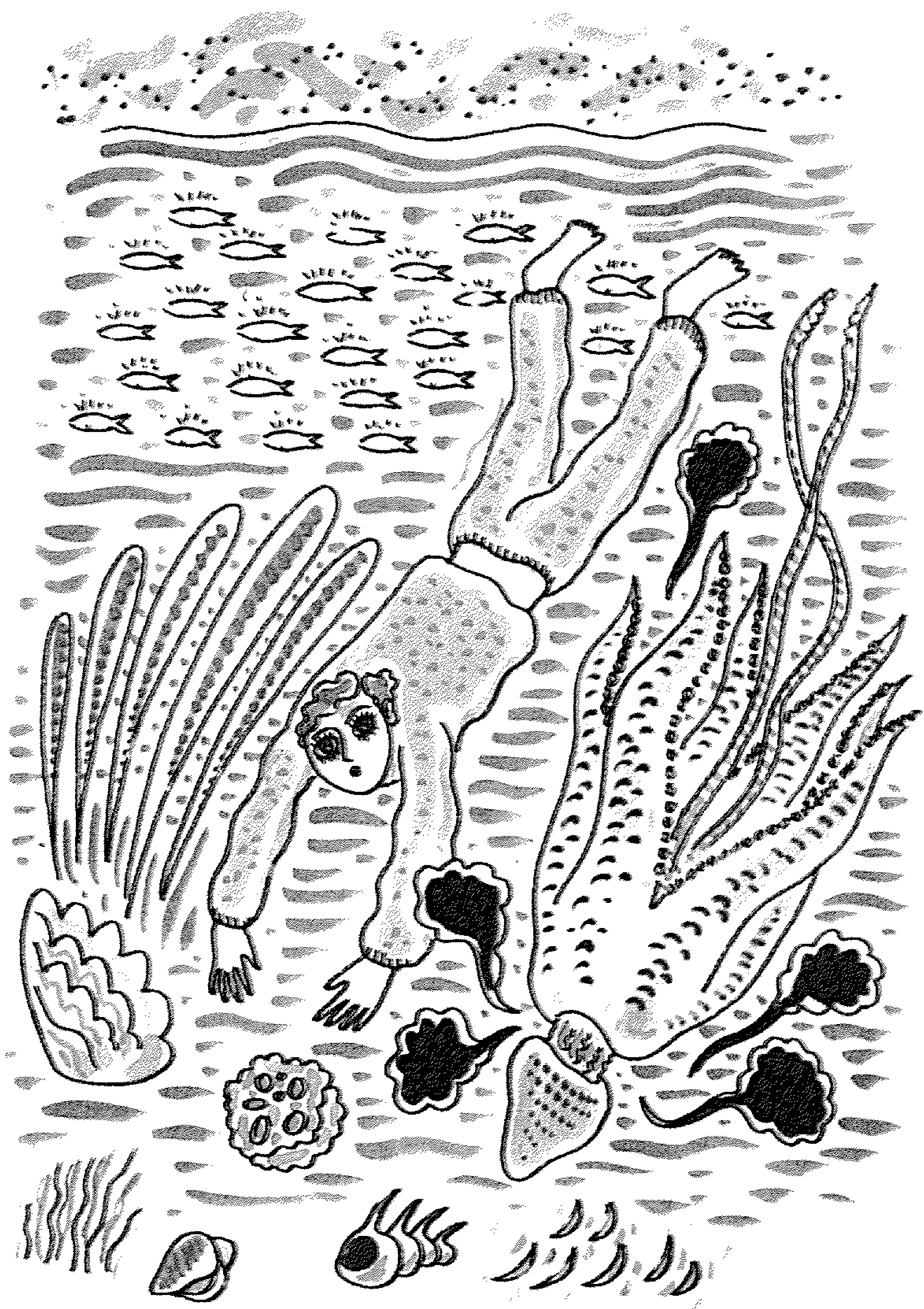
" إياك أن تختار حلما يقصيك عني ! فأنا لا أريـــد أن أفترق عنك أبدا " .

نظرت إليها الفراشة الملكية شزرا، وقالت لها بغضب :

" إذا أفصحت عن أسرارنا فسوف نعيده في الحـلل إلى مملكة الواقع، دعيه وشأنه، حتى يختار حلمه بدون تدخل مـن أحد " .

ارتعبت زهرة اللؤلؤ من هذا التحذيـر، وانكمشـت وريقاتها، لكنها لم تدرك أن كلماتها كان لها تأثير السحر علـى عقل وائل الذي استغرق في تفكير عميـق، وراح يفتـش في خياله عن حلم يجعله قريبا إلى زهرة اللؤلؤ ولصيقا بها. لحـس شفتيه، وتذوق قطرات الرحيق التي تدفقت من تُوَيْجِها قبـل لحظات، فاتخذ قرارا حاسما وصرخ قائلا :

" أريد أن أصبح فراشة " .



الفراشة الخفاش

اندفعت الفراشة الخفاش وسط فراشات الأحلام التي التفّت حول وائل تشارك في طقوس الاحتفال به في مملكة الأحلام، وقالت بصوت يشبه النعيب المتقطع :

"أرفض أن يدخل هذا المخلوق الآدمي مملكة الفراشات، لأنه من آكلي اللحوم " .

تفَرَّس وائل وجهها الذي يشبه وجه خفاش، فارتعش من الرعب ! مدت خُرطومها الذي يشبه منقار صقر نحو عينيه، فتراجع إلى الوراء، وقبل أن يسقط على زهرة اللؤلؤ استعاد توازنه، واحتضنته الزهرة ببَتَلاتها، ومسحت العرق المنساب على جبهته بوريقاتها، وحاولت أن تبدو متماسكة، برغم امتقاع وجهها وخفقات قلبها، والتفتت نحو الفراشة الخفاش، وقالت لها بغضب وتحد :

" نحن في مملكة الأحلام لا نستطيع أن نرفض حلما

لإنسان أو حيوان أو طير أو نبات، لأن ذلك يعد مخالفا لدستورنا ".

رَنت الفراشة الملكية ببصرها إلى الفراشة الخفاش التي كانت تنتفض من الغيظ والكَمَد، تتابعت في مخيلتها الصور، منذ أن جاءها ذات يوم خفاش بشع الخلقة يشكو إليها من أنه لا يجد طيرا يؤنسه، ولا شجرة تأويه، ولا زهرة ترحب به، ولا عُشًّا يستلقي عليه، وأن جميع المخلوقات في هذا العالم تمجُّه وتزدريه، إلى أن رقّ قلبها له، وساعدته في تحقيق حلمه، حتى اصبح فراشة. لكنها لم تكن فراشة كبقية الفراشات، فهي لم تتخل عن أنانيتها الموروثة، ورغبتها الجارفة في التملك، وكانت تتسلل ليلا - قبل أن تستيقظ رفيقاتها - وتمتص رحيق الزهور بنَهَم، حتى تصاب بالتخمة، ثم تعبئ ما تبقى في قنينات صغيرة وتخبئها في مخبأ سري في تجويف إحدى الشجيرات، واستمرت في هذا السلوك الشائن، حتى كادت تُهْلِك الفراشات الأخريات من الجوع، فأصدرت هي قرارا بتكثيف دوريات الحراسة الليلية، فافتضح أمر الفراشة الخفاش، وصودرت قنينات الرحيق التي كانت تخبئها، وحكمت عليها محكمة الفراشات بالنفي من الأرخبيل مدة أسبوع كامل، لعلها تتطهر من آثامها وتفيق من غَفْوَتها،

لكنها بعد أن عادت من المنفى كـــادت تفسـد طقـوس الاحتفال بعالمة النبات التي حلمت بأن تكون زهرة اللؤلـؤ، وأوعزت إلى الفراشات بأن تطالب بسن قانون يمنع المتطفلين من بني البشر من الدخول إلى مملكة الأحلام، ولم ينصت أحـد إليها، لأن الفراشات تعلم أن الدستور في مملكـة الأحـلام سَرْمَدي ولا يمكن تغييره ...

أشاحت الفراشة المالكة، بأجنحتـها وكفـت عـن استرجاع هذه الذكريات التي تبعث على الكآبـة، إذ كـان وائل منخرطا في بكاء مرير بينما الفراشة الخفاش تسر في أذنه بسر الجبلين اللذين يبرزان فوق سطح الماء في بحيرة الأحـلام : جبل السَّمَنْدَل الأحمر الذي يجعل من يلمس جسده يكاد يُجَنُّ من الضحك، وجبل الخفافيش التي تجعل من يستمع صراخـها وعويلها المتصاعد يستغرق في نوبة هستيرية من البكاء .

أغلق وائل أذنيه بكلتا يديه، لئلا يستمع إلى المزيد مـن هذا الكلام المخيف، وجرى نحو شجرة الحور التي تصد الرياح عن الجزيرة. مدت إليه الشجرة فروعها واحتضنته وربتـت على شعره بأوراقها التي تشبه القلوب، لتهدئ روعه وقـالت له :

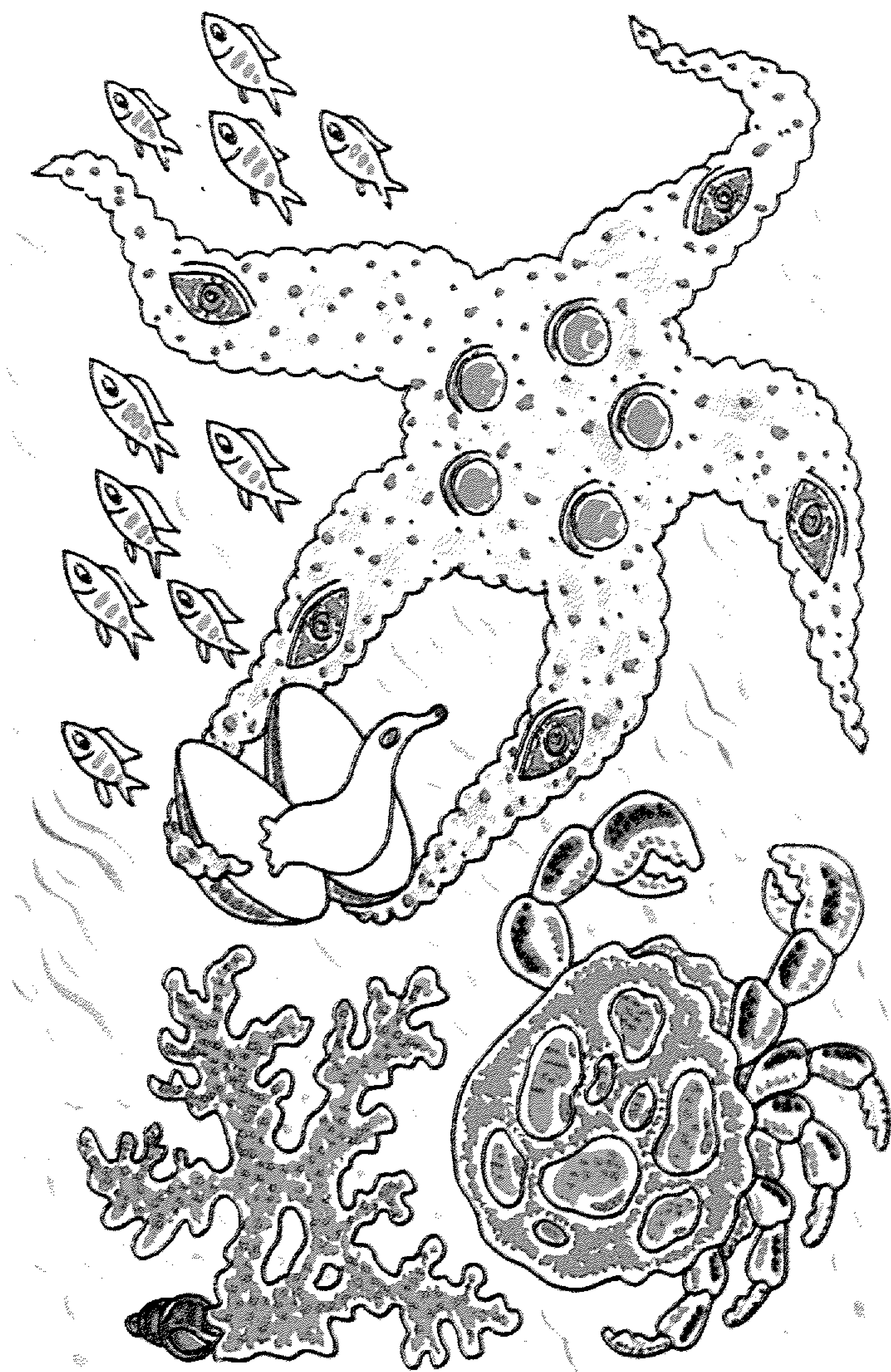
" لا تنتحب يا ولدي وكُنْ رجلا! فالفراشة الخفـاش

تريد أن تبث الرعب في قلبك، وثق بأن الفراشة الملكة لن تسمح لها بأن تفسد حلمك ".

ترددت الفراشة الملكة كثيرا قبل أن تحسم أمرها، وتصدر قرارا باعتقال الفراشة الخفاش، فهي لم تلجأ من قبل إلى حرمان فراشة من حريتها، وكانت تكره السجون التي عانت من ذلها قبل أن تأتي إلى مملكة الأحلام، لكنها لم تجد وسيلة أخرى لوقف الفراشة الخفاش التي تعيث فسادا في المملكة، كما كانت الفراشة الملكة تعلم أنها إن كفت عن أداء مهمتها المقدسة في تحقيق الأحلام لجميع الكائنات الحية التي تأتي إلى الأرخبيل، فإنها ستموت من الفور، وستذروها الريح مثل ورقة شجر يابسة .

أمرت الفراشة الملكة النمل النَّسَّاج بإعداد سجن صغير من الكرتون به ثقوب للتهوية، وامتثل النمل لأمر ملكيته وأعَدَّ السجن الكرتوني في لحظات، ثم زحفت بضعة آلاف من النملات العاملات نحو الفراشة الخفاش، وألقت بها في السجن الكرتوني، صرخت الفراشة الخفاش، وراحت تلطم بأجنحتها صفائح الكرتون، حتى كادت تتكسر، وحملقت إلى وائل عبر ثقوب التهوية وقالت لها :

" لن أكفّ عن ملاحقتك أينما ذهبت، ولن أسمح لك



بتحقيق حلمك " .

سدَّت الفراشة الملكـــة ثقـــوب التهويـــة بأجنحتـــها البرتقالية، وقالت لوائل :

" انطلق الآن نحو بحيرة الأحلام، ولا تجعل الخوف يثبط عزيمتك، وعليك أن تتحين اللحظة الملائمة بعـــد أن يصعـــد طاووس البحر بين الجبلين، وتنتزع من زعانفـــه الطحـــالب الحمراء، وتخضب بها جسدك، ولابد من أن تعلم أنـــــك إن فشلت في تحقيق حلمك فسأموت أنا " .

نظر وائل إلى شجرة الحُور، فأشارت إليه بفروعها نحـــو البحيرة، ولوحت إليه زهرة اللؤلؤ بأوراقها البيضاء، حتى تبثّ الشجاعة في قلبه، ورفعـــت الأعشـــاب المخملية أعناقـــها وتشكلت على هيئة سهام خضراء تشير نحو بحيرة الأحلام .

صعد وائل إحدى الصخور، وتأمل جســـــده الـــذي يتصبب عرقا، ثم قفز في الماء .

عسكري البحر

ضاقت الصَّدَفَة التي يسكن فيها عسكري البحر، وأصبحت لا تلائم جسده، بعد أن كبر وصار صبيا يافعا .

أعياه البحث في قاع البحر عن صدفة أخرى ملائمة بدون جدوى، فصعد إلى السطح يائسا، وتأمل بطنه الرخوة بأسف، وندب حظه العاثر، لأن طاووس البحر سيصعد بعد قليل ويلتهمه ضمن آلاف الحيوانات البحرية الصغيرة، وأحسّ بأنه مخلوق تافه لا يستطيع الذّود عن حياته . رأى السرطان الراكض يعدو بين الصخور، فاستوقفه مستجديا طالبا المساعدة في البحث عن صدفة، لكنه تجاهله، واستلقى على إحدى الصخور يستمتع بدفء الشمس، ولم يعره التفاتا.

سيطر الشعور بالإحباط على عسكري البحر، وتذكر الأيام الغابرة، أيام كان فراشة المحارة ولم يقنع بمصيره، وأراد

أن يكون له وضع مميز وكلمة نافذة، وأن يصبح كائنا بحريا مهيبا تخشى بأسه الكائنات الحية كلها، وتساءل كيف يكون مجرد فراشة ضمن آلاف الفراشات التي تخضع لإرادة الفراشة الملكة وتنصاع لأوامرها، بعد أن خدعته الفراشة الخفاش، وداعبت خياله، وشكلت له صورة خرافية عن عسكري البحر الذي يفوق الحوت الأزرق قوة وضراوة، وتذكر يوم جازف بانتزاع الطحالب الحمراء من بين الزعانف السامة لطاووس البحر، ليخضب بها جسده، ويحقق حلمه، معرضا نفسه للهلاك، وشعر بالأسف ! فها هي الأقدار تسخر منه الآن بعد أن أصبح كائنا بحريا ضئيلا لا حول له ولا قوة .

أفاق من غفوة الذكريات على صرخة حادة تنبعث من بلحة البحر التي كانت تحاول الفِرار من نجم البحر، وقد كان يطاردها بإلحاح، ليفتح مصراعي صدفتها، ويذيب لحمها ويمتصه . واعترت عسكري البحث دهشة بالغة حينما صعدت المحارة المِروحة من قاع البحر، وفتحت صدفتها وأطبقتها بقوة وقذفت الماء على العيون الخمس المنبثقة من اذرع نجم البحر الذي اضطرب، وراح يتخبط في الماء يمنه ويسرة حتى أوشك على الارتطام بإحدى الصخور .

انتهزت بلحة البحر الفرصة ولاذت بالفرار .

واختبأ عسكري البحر بين حزمة من الأعشاب، وتساءل في قرارة نفسه :

" عجبا ! لم أر من قبل كائنا بحريا يغامر بحياته من أجل رفيق له، لاشك في أن المحارة المِروحة تتمتع بقدر هائل من السذاجة حتى تفعل ذلك، فكل كائن بحري في هذا الخِضَمّ الرهيب لا سبيل أمامه إلا أن ينجو بنفسه وحسب " .

غاص عسكري البحْر في القاع مرة أخرى، علّه ينال مَأرَبه، ويعثر على صدفة لأحد الحلازين الميتة. لكنه بذل جهدا كبيرا في البحث والتنقيب والنبش بمقابضه في الطين اللزج، ولم يجد صدفة تناسب جسده، فصعد إلى السطح باكيا مستسلما لمصيره المحتوم . ولما رأى وائلا يسبح نحوه، تجدد أمله في النجاة .

اعترض عسكري البحر طريق وائل، وقال له بتوسل :

" أراك متعجلا، لكنني في حاجة ماسة إلى صدفة احتمي بها من طاووس البحر " .

تأمل وائل شكله الذي يشبه الجمبري، وقال له :

" لا وقت لدي أبدده في البحث عن صدفة تلائم جسدك الهزيل "

قال عسكري البحر بصوت متهدج :

" امضِ في طريقك – إن شئت – ولست غاضبا منك، فأنا استحق هذا المصير . لكنني اطلب إليك معروفا قبل أن أموت " .

قال وائل بلهفة :

" اطلب ما شئت "

– اقتلني بيديك !!

صرخ وائل في وجهه من هول المفاجأة :

" كيف تطلب إليّ ذلك ؟! أنا لست سفاحا "

أراد عسكري البحر أن يستغل شعور وائل بالتعاطف نحوه، وقد تبين له أنه قد بدأ في النمو داخله، فتصنع البكاء قائلا :

" أنا ميِّت لا محالة ... والموت بيديك الرقيقتين أفضل من الموت بيدي طاووس البحر الذي سيمزقني إربا قبل أن يفترسني " .

اغرورقت عينا وائل، وقرر أن يغوص في القاع، ليبحث له عن صدفة ملائمة، وإن أدى ذلك إلى ضياع حلمه

هذا العام .

اقترب وائل من القاع المظلم البارد، وفوجئ بـــآلاف من المصابيح المضيئة تنتشر حوله، فخفق قلبه مـــن الخـــوف، كانت تلك المصابيح تنبعث من أجساد بعض السمكات الـــتي تحتفل بعرس رفيقة لها، أحس وائل برغبة جارفة في التوقـــف قليلا لمشاهدة هذا العرس الجميل، بيد أنه قاوم رغبته بصعوبة بالغة، واستمر في البحث عن الصدفة، لم يجد إلا رقـــائق مـــن الزجاج مقوسة أو محززة أو مجعدة تنتشر في طبقة شاسعة مـــن الرماد الأبيض، ولم يكن يعلم أن ذلك الرماد هو غبار النيازك والشهب التي تقذفها السماء في أعماق البحر .

دار ببصره حوله حتى وجد إحدى الجزر الغارقة الـــتي تنتشر على سطحها مجموعة من القواقـــع الجيريـــة المتنوعـــة الأشكال، فتهلل فرحا، وسبح بسرعة نحو الجزيرة، لكنه تجمد رعبا عندما فوجئ بأسراب من الحبَّار تطلق سحبا من الحـــبر الأسود، لكي تغطي هروبها من أحد الحيتان الزرقاء العملاقـــة. انتظر وائل حتى انقشعت تلك السحب، واقترب مرة أخـــرى من الجزيرة، وكاد يغشى عليه حين حدق إلى وجهه حـــوت أزرق وحام حوله، ثم مضى في طريقه بدون أن يمسه بسوء .

استفاق وائل من ذهوله، والتقط أنفاسه وهو لا يصدق



ما رآه .

ثم انتقى قوقعة جيرية مثقبة بثقوب دقيقة ومقسمة إلى عدة غرف، وضحك في داخله قائلا :

" إنها مثل فندق صغير مكيف الهواء، وسوف يفرح بها عسكري البحر كثيرا " .

جمع وائل بعض الأصداف الأخرى حتى يعطيه فرصة لاختيار، وبدأ رحلته في الصعود إلى سطح البحر وقلبه يرقص بين ضلوعه من الفرح .

نجم البحر

ولول عسكري البحر عندما جرفت الأمواج ثروته من الأصداف التي كان يخبئها وسط حزمة من الأعشاب في إحدى الجزر، ليستغلها في المساومة مع نجم البحر ذي العيون الحمراء التي تبث في قلبه الرعب حتى يأمن شره، أو يقايضها بغذاء شهي مع بلح البحر أو الكوعل أو الحلزون .

أرادت بعض القواقع أن تداعبه، فقذفت ببعض مخاطها اللزج على محارته الجديدة، وكادت تسد ثقوبها، فانطلق خلفها شاهرا مقابضه وهو يزأر من الغضب، لكنها أسرعت بالفرار قبل أن يلحق بها. غطس عسكري البحر في الماء حتى ينظف محارته من المخاط، وصعد وهو يكاد ينفجر من الغيظ والكمد .

مرر طحلب خس البحر سعفه المموج الحواف على

وجه وائل الذي نهض متثاقلا، فإذا بمحارة بلحة البحر تخلع صدفتها المتهرئة، وترتدي صدفة بمصراعين ملائمة تماما لجسدها الذي يشبه جسد إوزة قزم، ثم تنظر بزهو إلى محارتها الجديدة، وتفتحتها بحذر، لتأكل بعض العوالق .

انتهز عسكري البحر الفرصة وانقض على محارة بلح البحر بمقابضه محاولا فتح مصراعي صدفتها، لكنها استطاعت أن تطويها كغلاف كتاب محكم على حافة الصخرة التي ينام عليها وائل . طاف حولها عسكري البحر، وقال لها مهددا :

" ما لم تعطيني صدفتي أيتها اللصة الماكرة فسوف اجعل نجم البحر يمتص لحمك "

لم يصدق وائل ما رآه بعينيه، وسيطر عليه شعور قوي بخيبة الأمل، فهو لم يتخيل أبدا أن عسكري البحر – الذي جازف هو بحياته من أجله – شرس وأناني إلى هذا الحد .

اقترب وائل من حافة الصخرة، ورمق عسكري البحر بغضب والتقطه بعنف حتى كاد يعتصره بين يديه، وقال له :

" لا أريد أن أراك مرة أخرى في بحيرة الأحلام ولقد ندمت على ما فعلته من أجلك " .

ثم قذف به إلى الماء .

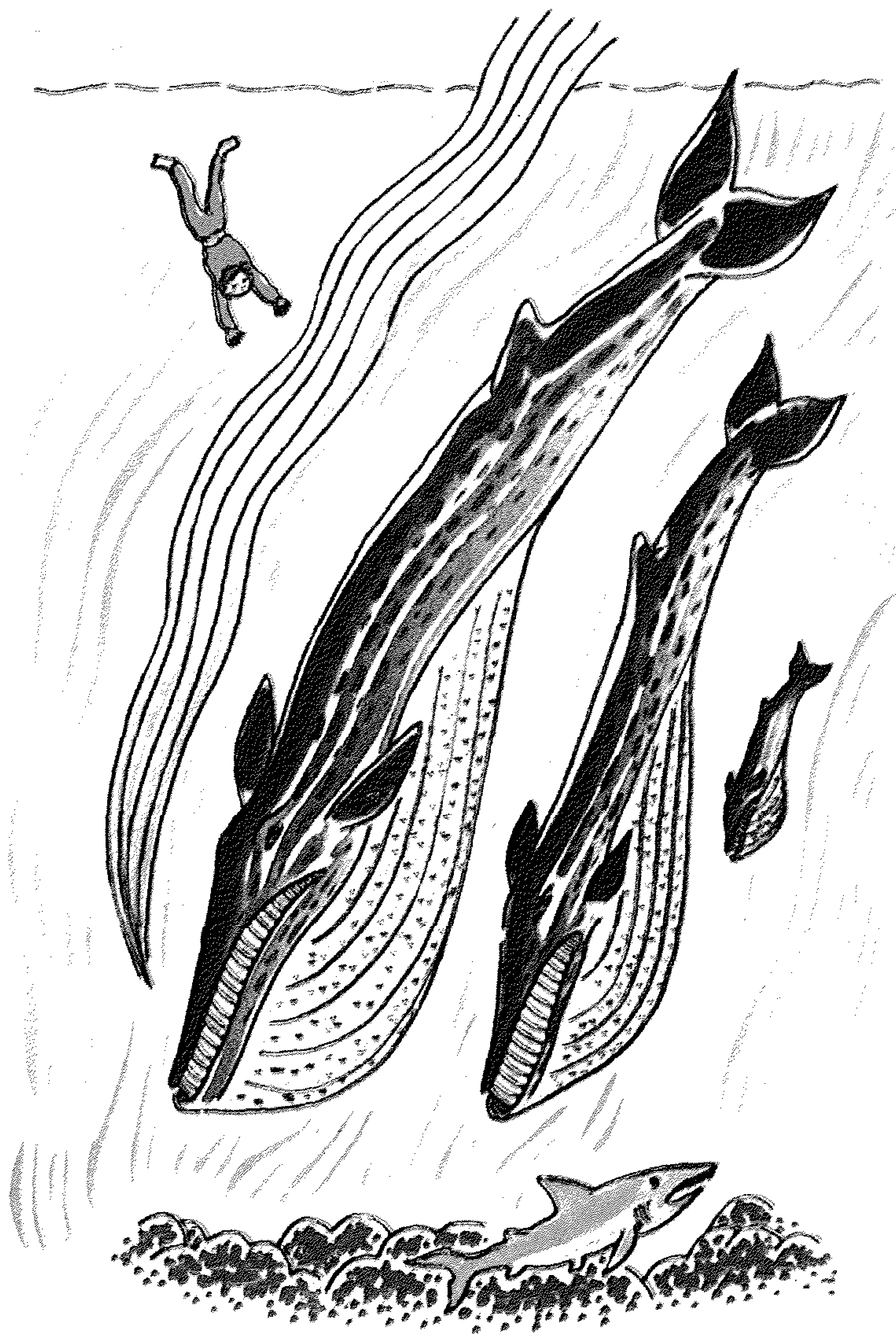
جلس وائل على الصخرة يتأمل الجروح التي أحدثها عسكري البحر في الجسد النحيل لبلحة البحر، وكانت قد تشبثت بالصخرة، وراحت تصدر أنينا خافتا . ولم يكن هو يعلم أن عسكري البحر مازال متربصا بين الأعشاب وقد صوب بصره إلى المحارة الجريحة، يتأجج صدره حقدا وغضبا ويتحين الفرصة الملائمة للانتقام منها، ومن وائل الذي حال بينه وبينها .

أوجس عسكري البحر :

سوف أنال منك أيها الولد المغرور – بعد أن أحقق ما أحلم به واصبح كائنا بحريا عملاقا .

راودت عسكري البحر فكرة شريرة عندما رأى نجم البحر يقترب منه رويدا رويدا ليفترسه .

أراد أن يستفزه حتى يتبعه، فاحدث جلبة وضوضاء، وطرطش الماء في وجهه، وأطلق صرخة حادة، ثم دار حوله، وسبح بسرعة نحو بلحة البحر، طارده نجم البحر وقد جن من الغضب، اقترب عسكري البحر من بلحة البحر، وعندئذ أسرع بالفرار والاختباء بين كومة من الأعشاب، وقهقه ضاحكا لما ترامت إلى سمعه صرخات بلحة البحر التي انقض عليها نجم البحر، وثبت أذرعه الخمس حول مصراعي



صدفتها، واخذ يشدهما بأقصى ما يملك مـــن قـــوة إلى أن انفتحا، ودفع معدته داخل محارتها حتى اســـتطاع أن يذيـــب لحمها، ويمتصه بشراهة.

لم يستطع وائل أن يحتمل ما رآه، أدام النظر في العيون الخمس الحمراء لنجم البحر التي تنبثق من أذرعـــه، فـــأحس بالدوار، وسقط مغشيا عليه، وظل راقدا على الصخـــرة إلى صباح اليوم التالي.

القرش – الثعلب

انبلج الفجر، وهاهو طاووس البحر يصعد إلى سطح الماء، ويلطم بأجنحته الملونة وجه البحر المضطرب، ويشهر أشواكه السامة في وجه كل متطفل من الأسماك والكائنات البحرية، وفي وجه كل من يحاول انتزاع الطحالب الحمراء من بين زعانفه .

فتح وائل عينيه عندما سمع رفيف الأجنحة لآلاف الفراشات التي غطت وجه السماء فوقه تماما، وألقت جواره أعشابا تنبعث منها رائحة عطرة .

حطت الفراشة الملكة على كتفه، وهمست في أذنه :

" هذه الأعشاب تعطي من يتناولها طاقة احتمال غير عادية للغوص والبقاء تحت الماء . فلتتحين الفرصة الآن، وتغطس تحت أجنحة الطاووس، وتنتزع حزمة من الطحالب الحمراء من بين زعانفه السامة، قبل أن يشرع في العبور بين

جبل الخفافيش وجبل السمندل الأحمر " .

حدق وائل إلى طاووس البحر، ولمح حبـــارا جريئـــا يقترب منه ويدور حوله دورتين، لكنه لاذ بالفرار حين بسط الطاووس أجنحته، وبدأ في أداء رقصته المقدسة، وضرب المـلء بعنف، مما أدى إلى تصاعد رمال القواقع والأصداف من قـــاع البحر، وتناثرها على الشاطئ ثم هبوطها إلى اسفل في أقـــواس رشيقة ملونة .

خفق قلب وائل من الخوف لما رأى المحارات توصـــــد فتحات أصدافها، والسمكة الأفعى التي اعتـــادت أن تـــبرز أسنانها – برغم انغلاق فكيها – تسرع بالاختباء بين ســحب البحر السوداء التي أطلقها الحبار، ليغطي انسحابه .

تصبب وجهه عرقا، وسيطر القلق علـــى مشـــاعره، والتفت نحو الفراشة الملكة، وقال متلعثما:

" هل تسدين إلي صنيعا وتكلفين أحدا غيري بإحضـــار حزمة الطحالب الحمراء " .

قالت الفراشة الملكة بصوت ينتفض من الغضب :

" انه حلمك أنت، ولا يليق بي أن أكلف أحدا بتحقيق حلمك بينما أنت تغط في النوم على هذه الصخرة . وتذكـــر

انك لو فشلت في تحقيق مهمتك فسوف أموت وتندثر مملكة الأحلام من الوجود " .

لم يستطع وائل – وقد تملكه الخجل – أن يطيل النظر إلى عينيها اللتين توجهان اللوم إليه . وبشكل لا إرادي تناول الأعشاب العطرة، واقترب من حافة الصخرة، ثم قفز في الماء، وسبح نحو طاووس البحر .

رفرفت الفراشة الملكة فوق بحيرة الأحلام، وفغرت فمها من الدهشة ! كان عسكري البحر يسبح بقوة صوب طاووس البحر، وقد انتظر حتى استطاع وائل أن ينتزع حزمة الطحالب الحمراء، ورشق مقابضه في يده وفتحها عنوة، واستولى على الطحالب، وسبح بعيدا إلى إحدى الصخور، وخضب جسده بها .

شهقت الفراشة الملكة من الفزع ! فقد استحال عسكري البحر إلى سمكة قرش لها ذنب بالغ الطول ووجه ثعلب، وفاضت عيناها بالدموع عندما شرع القرش –الثعلب يطارد وائلا بإصرار، ويحاول أن يضربه بذنبه الطويل .

الحوت المغني

لم يدرك وائل ما الذي جعل القرش – الثعلب يهرب مذعورا، وكان قد أوشك على افتراسه، لكنه تبين حقيقة الأمر حينما ظهر على سطح الماء حوت مفتوح الفم ينشر شبكة من الفقاعات، ويصيد بمهارة فائقة كميات هائلة من القشريات، ثم يغطس في القاع .

سمع وائل أصواتا رتيبة متكررة، بدت له كخوار البقر أحيانا، وكصهيل الخيل أحيانا أخرى، ارهف السمع إلى تلك الأصوات، واستطاع أن يميز مقاطع وجملا موسيقية تتكرر بأسلوب منتظم، وغناء جماعيا يتخلله أحيانا صوت فردي قوي جميل، تذكر آخر أغنية غنتها لها أخته رنا وهما يمرحان على شاطئ البحر، وبدت في مخيلته كعصفور يرفرف في الضباب وتضيع زقزقته في ضوضاء مبهمة .

انخرط وائل في بكاء مرير عقب توقف الأغنية التي كانت تمتص إحباطه وتؤنسه في وحدته، ولم يدر ماذا يفعل بعد أن سرق منه عسكري البحر حزمة الطحالب الحمراء، ليستحيل بها إلى قرش – ثعلب .

شرعت الأصوات المنبعثة من قاع البحر في الغناء من جديد، فأحس وائل بأن هذه الموسيقى تأتي من جميع أرجاء الكون : من بحيرة الأحلام، ومن نجم يموت في الفضاء البعيد، ومن زهور ذابلة تذروها الرياح، ومن نحيب الفراشات في الأرخبيل.

انتفض جسد وائل من الحزن، وقال لنفسه :

" يبدو أن الفراشة الملكة تحتضر، لأنني أخفقت في تحقيق حلمي " .

وعندئذ قرر ألا يستسلم للحزن، وغطس في القاع مرة أخرى باحثا عن طاووس البحر، لينتزع من بين زعانفه حزمة أخرى من الطحالب الحمراء، شهق من الدهشة حين رأى حوتا عملاقا يفوق حجمه ثلاثين فيلا – على الأقل – يشوع في الغناء، ثم يسبح جوار أنثاه في صمت يدوم بضع دقائق، يداعب في أثنائها وليده الذي كان يدور حول أمه لكي يرضع أثداءها، يعود الحوت الأب بعدها إلى الغناء وقد فرغ صغيره



من الرضاعة، وبدأ في اللعب بجذع شجرة عملاقة، يقذفه عاليا حتى يصل إلى السطح ثم يدفعه إلى القاع بإحدى زعنفتيه.

صرخ وائل من الفزع وقد لمح القرش – الثعلب بزعنفته الظهرية المثلثة وفمه المفتوح المدجج بالأسنان القاطعة، يتجه بسرعة فائقة نحو الحوت الصغير. سبح نحو الأم وحذرها من الخطر المحدق بوليدها، فلطمت الماء بزعنفتيها، وأطلقت صرخة هائلة، بينما كف الحوت الأب عن الغناء، واحدث زفيرا قويا عبر المنخرين، واستدعى رفاقه من قطيع الحيتان بنداء حاد متقطع.

لبّت الحيتان النداء بضجيج يكاد يصم الآذان، وأسرعت نحو الحوت الصغير لإنقاذه من أنياب القرش – الثعلب، واكتشفت أنها جاءت بعد فوات الأوان، فلقد افترس القرش – الثعلب صغيرها، واختبأ في أحد الكهوف المنتشرة في سلسلة الجبال البحرية. حاصرت الحيتان الغاضبة مداخل الكهوف، وراحت تضربها بذيولها وزعانفها، حتى خيل إلى وائل أن الجبال قد تصدعت، وأنها اقتلعت من أوتادها.

حدق وائل إلى بقع الدم التي خضبت الطحالب الفضية، وراح يهذي ويهمهم، ولم يستطع أن يسيطر على جسده الذي كان ينتفض من الحزن والهلع.

البحر الأسير

غاض ماء البحر حتى ظهرت حافتاه، فكأن قاع البحر غابة من الإسفنج فتحت أشداقها وامتصت كل الماء، بـــدون أن تترك قطرة واحدة للأسماك والكائنات البحرية التي يبست أجسادها، وتكدست فوق الطحالب والغابـــات المرجانيـــة، وأوشكت على الاحتضار .

أراد وائل أن ينهض لكي يتبين حقيقة ما يحدث حولـه، لكنه اكتشف انه مقيد إلى الصخرة بحبال مـــن الأعشـــاب الحمراء، سمع أنينا خافتا، فتلفت حوله، فإذا هي رنا مقيـــدة بالحبال نفسها على الحافة الأخرى للصخرة، وقد استغرقت في نوم عميق .

انبجست تحت قدميه عين من الماء، فمد فمه لـــيروي حلقه الذي كاد يجف من العطش . انتابته نوبة حـــادة مـــن السعادة، وإحساس عارم بالغثيان، وعرف انه شـــرب مـــاء

أجاجا تختلط فيه الملوحة مع المرارة، فلفظه من الفور، تـأمل وجه رنا المكفهر المائل للاصفرار، وجسدها الذي يرتجف مـن الجزع فاضطرب قلبه قلقا عليه، وراح يصفر لها ليوقظـــها، دون جدوى .

تتابعت في مخيلته الصور، منـــذ أن جـاءت رنـا إلى الصخرة في قارب صغير، وأخبرته بأنها تريد أن تشاركه حلمـه وتصبح فراشة مثله، بعد أن فشلت في العثور على أمها، حـتى باغتهما القرش – الثعلب، وقيدهما إلى هذه الصخرة، وكـان قد نصب نفسه ملكا على مملكة الأحلام، بعــد أن عـزل الفراشة الملكية، وعين الفراشة الخفاش وزيرة للملكة، وغـير الدستور الذي يسري في أرخبيـل الفراشـات منـذ آلاف السنين، واستطاع أيضا أن يخدع طاووس البحر، بأن دفع نحو فمه سيلا من الكائنات الدقيقة الحمراء التي تســم الميـاه، وتقتل الأسماك، فمات الطاووس مسموما، واستولى هو علـى مخزونة السري من الطحالب الحمراء، وأصبح يتحكم الآن في أحلام الإنسان والحيوان والنبات، ويختار لكل كـائن حـي حلمه، ولا يعطي أحدا أية فرصة للاختيار، لأنه يعلم أن بعض الأحلام قد تقضي على عرشه .

تساءل وائل هامسا :

" أين ذهب ماء البحر ؟ ! هل تبخر ؟ ! ".

نهضت رنا من سباتها مذعورة، واستنجدت بأخيها الذي شل الرعب لسانه .. قال القرش – الثعلب للأخوين متهكما :

" هل تحلمان بأن تكونا فراشتين ؟!".

أجابا بصوت مرتعش : " نعم ... "

رد القرش – الثعلب بازدراء :

" من أين ستحصلان على الطحالب الحمراء ؟ ".

أطبق الصمت على الأخوين، وتطلعا إلى السماء فرأيا فراشتين من الضوء : واحدة أرجوانية والأخرى زرقاء، تخفقان بين السحب، وتمتصان أشعة الشمس، وتنزلقان في ظلال مقوسة بحواش وردية، وتخرجان من الظل إلى السماء الزرقاء .

ومن قمة جبل الخفافيش الذي يبرز على سطح الماء انطلقت خفافيش بشعة الخلقة في أفواج متتابعة، وانقضت على الفراشتين، وانتزعت من أجنحتهما الحراشف الملونة حتى بدت عروقهما، امتصت من جسديهما الرحيق، ففقدت الفراشتان القدرة على الطيران، وظلت الرياح تؤرجحها حتى سقطتا في قاع البحر الخاوي من الماء .



أحس الأخوان بالإحباط يسري في عروقهما واغرورقت عيونهما .إلا أن وائلا حاول أن يبدو متماسكا، وقال لأخته بصوت يختنق بالبكاء :

" لن نستسلم له مهما حدث "

رمقت رنا السرطانات التي تحتضر حولها، والطحالب التي جفت حوافها وتهدلت سعوفها، وقالت لأخيها في يأس :

"ما الذي يمكن أن نفعله وكل شيء يموت حولنا ".

قال القرش – الثعلب :

" لن تستطيعا أن تفعلا شيئا ..فلقد حددت مصيركما، واخترت لكل منكما حلما مناسبا :سوف يستحيل وائل إلى نجمة بحر، ورنا إلى بلحة بحر ....

وأكمل وائل صارخا في وجهه :

" ... ونجمة البحر تفترس بلحة البحر، والقرش – الثعلب يلتهم نجمة البحر !".

ردت رنا بتحد سافر :

" لن يستطيع أحد أن يرغمنا على قبول حلم لا نريده"

اشتعل القرش – الثعلب غضبا، ولطم الصخرة بذنبه

الطويل، فانبجست عينان من الماء الساخن أمام الأخوين، وكاد البخار يحرق وجهيهما . ملأ القرش- الثعلب صدفتين من الماء الساخن، وحاول أن يجبرهما على تناوله رشفة رشفة حتى أوشكا أن يختنقا من السعال، ويحترقا من البخار المتصاعد، ثم حل وثاقيهما، وأعطى كلا منهما حزمة من الطحالب الحمراء قائلا :

" فليخضب كل منكما جسد الآخر، وستريان كيف ستحلمان وفق إرادتي "

فوجي الأخوان بحيات وعقارب وكلاب وطيور مفترسة تخرج من البخار الساخن وتحوم حولهما .

احتضن وائل أخته التي كانت ترتجف من الرعب، وراح يحملق في تلك الكائنات المفترسة، وأدرك أنها لا تحدث ظلا حين تنعكس أشعة الشمس عليها، ولا تصدر أصواتا تدل على وجودها، ولم يسمع لها نباحا أو عواء أو فحيحا أو رفيفا، فهي مجرد أشباح بلا صوت ولا ظل ، طيور لا تنقر، وعقارب لا تلدغ ، وكلاب لا تعقر، وحيات لا تنهش، مد يده التقط عقربا وكلبا وطائرا وحية، فاستحالت توّا إلى قطرات من الماء ذابت بين أصابعه .

استردت رنا شجاعتها، وصرخت في وجه القرش –

الثعلب :

" سوف نصبح فراشتين كما نريد رغم انفك "

اهتاج القرش –الثعلب من شدة الغيظ، وقال لهما :

" ستصبحان فراشتين كما تريدان، لكنكما لن تعيشا طويلا، فسوف احبس الشمس في هذه الصدفة، ولن تجدا زهرة واحدة تمتصان رحيقها، وبدون دفء الشمس ورحيق الزهور لن تستطيعا الطيران، وسوف تهلكان " .

مد القرش – الثعلب – زعانفه نحو الشمس ليمسك بها، فانقسمت الشمس إلى نصفين، استحال كل نصف إلى شمس مشرقة ذات حواش حمراء وخضراء وأرجوانية .

اصدر القرش – الثعلب هديرا مخيفا، ومد زعانفه مرة أخرى، واحكم قبضته على توءم الشمس، فأفلتتا من زعانفه واستحالتا إلى فراشتين خضراوين تشعان بالضوء وترفرفان في الفضاء .

تحرر البحر

من أين يأتي هذا الرفيف .. أمن جبل سحري يحبس الريح في كهوفه، ويطلقها كيفما شاء، أم من مخلوقات فضائية تعيش في كوكب مجهول، وتطلق من حناجرها هذا الغناء الشجي، لتحذر الكائنات الحية في كوكب الأرض من خطر القرش – الثعلب الذي استولى على أحلامها، أم هو زفير القرش – الثعلب الذي لا يزال يطارد فراشات الضوء الخضراء، ليمزقها بزعانفه الشرسة ؟

كان هذا الرفيف يأتي من الأسماك التي كانت تحتضر وتنثال عليها قطرات المطر وتبلل أجسادها اليابسة .

حملق الأخوان في السماء والمطر ينهمر مدرارا، فرأيا آلافا من فراشات الضوء الخضراء تخترق السحابات الدكناء، وتمتصها – مثلما تمتص الرحيق – وتهبط رويدا رويدا،

وتقطر الماء في قاع البحر، وآلافا أخرى من الفراشات الأرجوانية تمسك في خراطيمها مكعبات من الجليد : الأزرق والأخضر والبرتقالي الذي التقطته من جبال الثلوج في الكواكب الأخرى المنتشرة في الأجرام السماوية، ثم تهبط بها في قاع البحر في أسراب متتالية، وتضعها برفق، وتطلق من خراطيمها رياحا ساخنة حتى تنصهر .

اصبح الرفيف هديرا صاخبا حين انبجست من الكهوف الصخرية الموصدة التي اسر فيها البحر، آلاف من عيون الماء العذب، فهشم الماء الأبواب الصخرية الحصينة، لتستحيل إلى شذرات من الحصى . وأخيرا، صار الهدير زقزقة عصافير، وتغريد بلابل، ومواء قطط، وعواء كلاب، وجوار أفيال، مع انطلاقة البحر الأسير من كهوفه كالطوفان الذي يكتسح في طريقه كل شيء، ملقيا بالقرش – الثعلب في خضم الأمواج الهادرة جارفا معه مخزونة السري من الطحالب الحمراء .

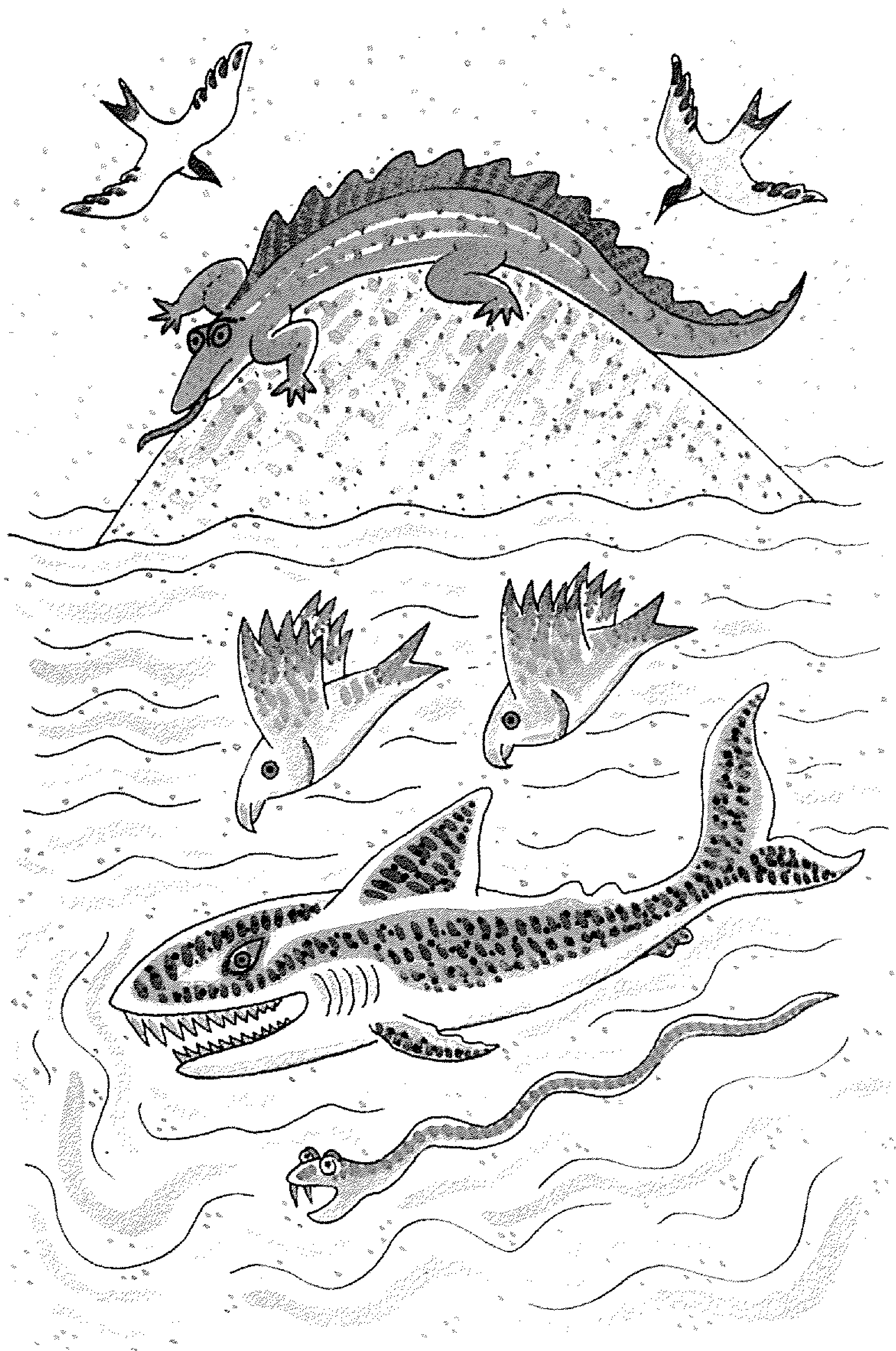
لم يصدق القرش – الثعلب ما رآه بعينيه، وكلما حاول التقاط طحالبه الحمراء من الماء المتدفق ضربه البحر بأسواطه، واثخن جسده بالجراح. استعاد توازنه بصعوبة، واستسلم لليأس، وراح يرمق طحالبه التي تذوب في المياه

وتلون وجه البحر باللون الأحمر في حسرة، ثم غاص في القاع واعتزل أحد الكهوف .

شهق وائل من النشوة لما داعبه البحر ورش الماء على وجهه، ثم قال لأخته :

الآن أصبحت الأحلام ملكا للجميع : من يستحم في هذا البحر يحقق ما يشتهيه من أحلام . لقد ضاع عرش مملكة الأحلام من القرش – الثعلب " .

ألقت رنا بحزمة الطحالب الحمراء في البحر، أخذت تتأمل فراشات الضوء وهي ترقص على صفحة المياه المزركشة، تشارك الأسماك والكائنات البحرية فرحتها بالنجاة، ثم تصعد إلى السماء في شكل دائري . ظلت فراشات الضوء ترفرف بأجنحتها بينما يقترب بعضها من البعض الآخر، حتى تقلص قطر الدائرة، وتشابكت الأجنحة، وامتزجت الأبدان، وشكلت شمسا جديدة تشع بالضياء، وتنشر الدفء في أرجاء الكون، وتمد أشعتها على الأخوين الجالسين القرفصاء على الصخرة، تستحثهما على النهوض، وتساعدهما في خلع ملابسهما، وتدفعهما برفق ليقفزا في البحر، ويحققا حلميهما ويصبحا فراشتين مبرقشتين بالألوان .



دوامة الأعشاب الزرقاء

بعد أن اخفق القرش – الثعلب في اختيار حلم ملائـــم يستعيد به عرش مملكة الأحلام، خرج من كهفه الذي اعــتزل فيه، وجن جنونه حين حملق في عين الشمس الحمراء وشــفتيها اللتين ارتسمت عليهما ابتسامة ساخرة، وكاد يفقـــد عقلـــه عندما رأى الأسماك والكائنات البحرية الصغيرة التي كـــانت تلوذ بالفرار حين تحس باقترابه، أو تشم رائحته، تلهو حولـــه، وتمر أمام فمه المدجج بالأسنان القاطعة، بدون أن تبدر منـــها بادرة من الخوف، وأحس بإهانة بالغة حين استلقت على ظهره اسماك ذات عيون تلسكوبية جاحظة، وراحت تلتهم الغـــذاء المتساقط من سطح البحر غير عابئة به، ومتجاهلة وجـــوده، انتفض غاضبا، وانقض على تلك الأسمـــاك ليمزقـــها إربـــا، فأفلتت من أنيابه، ونبتت لها أجنحة، وطارت فوق سطح الماء، وسرعان ما استحالت إلى صقور حلقت فوقه، وحـــاولت أن

تنقر عينيه، إلا انه غطس تحت الماء قبل أن تناله وهو يــهذي ويهمهم .

" أنا لم افقد عرش المملكة فحسب، بل غذائي أيضـا ! ومن الممكن أن أتضور جوعا. كل كـــائن بحـــري ضعيـــف يستطيع الآن أن يصبح عصفورا أو تنينا أو نسرا حال اقـــترابي منه كي التهمه، وهذا بفضل طحالبي الحمراء التي ذابـــت في البحر، وجعلت الأحلام مشاعا للجميع ... لابد من أن اهتدي إلى حلم استعيد به العرش، وينقذني من هذه الورطة " .

استشاط القرش – الثعلب – غيظا وكمدا، إذ لمـــح الأخوين يسبحان سويا، ويرقصـــان الباليـــه مـــع الأسمـــاك والسرطانات، ويغنيان لهـــم أغنيـــة للبحـــر الـــذي تحـــرر، ولفراشات الضوء التي أضحت شمسا، وللشمس التي تضحك ملء شدقيها وترحل إلى الأفق الغربي – فـــاندفع نحوهمـــا في غفلة، من اجل أن يشفي غليله بافتراسهما، أوشكت أنيابـــه أن تفتك بهما لولا أن أضاءت بعض الأسماك مـــن أجســـادها مصابيح خضراء وزرقاء وصفـــراء في وجهـــه، وتراقصـــت الأضواء الملونة أمام عينيه، وضربت الغشاوة على بصره، ظـل يتأرجح يمنة ويسرة حتى اصطدم بوائل الذي شل الفزع يديـه وقدميه، وهدده الغرق .

صرخت رنا حتى بح صوتها، واستنجدت بالأسماك والسرطانات لتنقذ أخاها، فاستحالت تلك الكائنات البحرية من الفور إلى عشرات من النوارس والبجعات البيضاء، رفرفت فوق سطح البحر، ثم مدت مناقيرها، وحملت وائلا، وصعدت به إلى الفضاء قبل أن يفترسه القرش – الثعلب بعد أن استعاد توازنه .

قالت البجعات والنوارس لوائل بعد أن استشعرت ثقل جسده :

" لم لا تصبح بجعة أو نورسا مثلنا بعد أن خضبت جسدك بماء البحر ؟ ".

غمغم وائل قائلا :

" سأصبح أنا ورنا فراشتين تمتصان الرحيق من زهرة اللؤلؤ، وتستمتعان بدفء ذراعيها المخمليتين " .

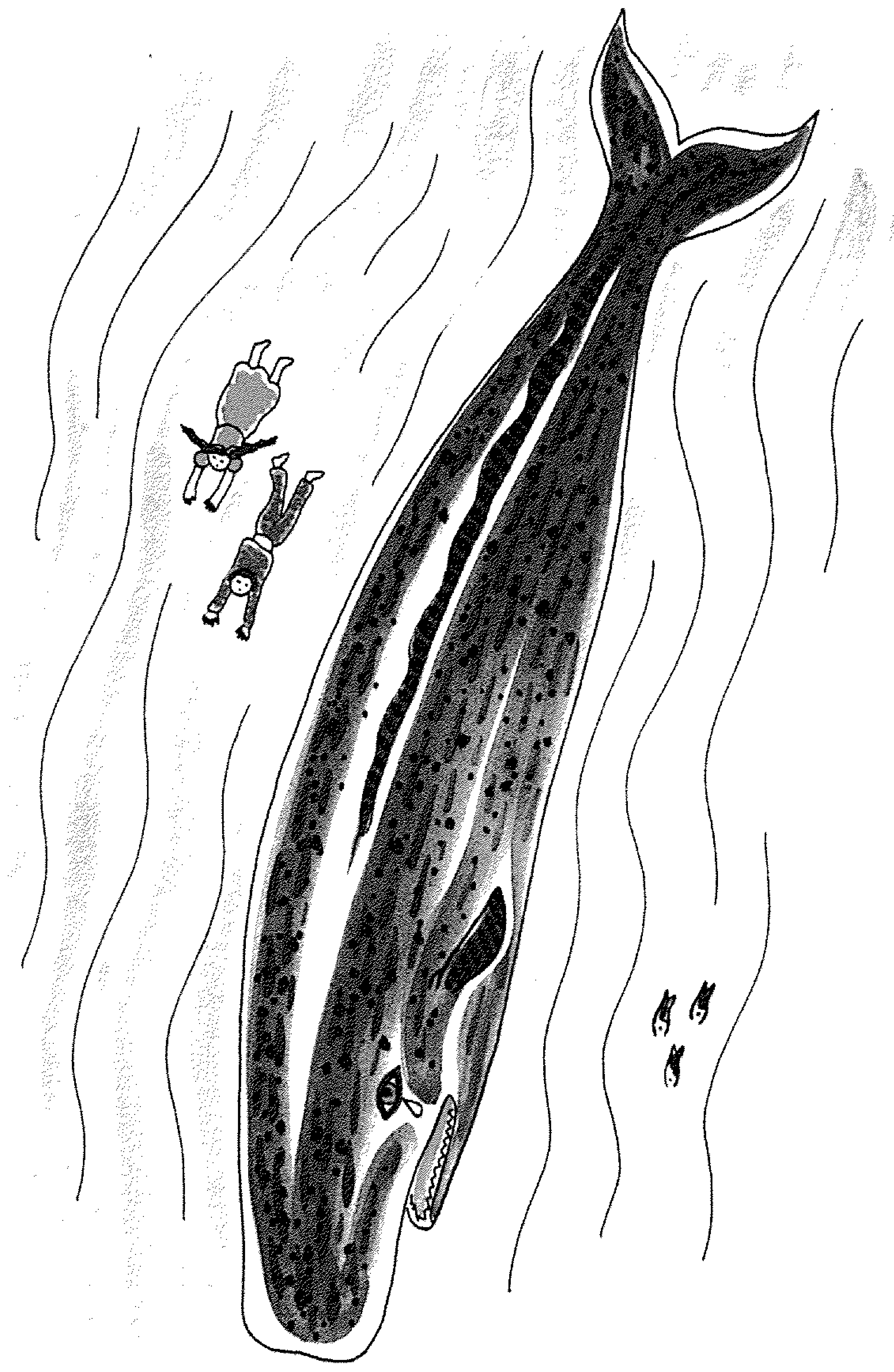
التفت وائل حواليه، فلم ير أثرا للقرش – الثعلب ولأخته أيضا، فصرخ باكيا :

" لقد افترس القرش – الثعلب أختي ! كيف أستطيع أن أحقق حلمي بدونها ؟ ! سوف اصبح فراشة وحيدة تضيع في الفضاء بلا رفيق !! وراح يضرب النوارس والبجعات بيديه

الصغيرتين حتى ناءت بحمله، فهبطت رويدا رويــــدا إلى أن اقتربت من سطح البحر وألقت به برفق .

سمع وائل صراخ رنا يأتي من بعيد خافتا، فسبح نحــــو مصدر الصوت وهو يرتجف من الحزن، ليكتشف أن أخته قــد أسرت في دوامة من الأعشاب الزرقاء الكثيفة ذات الشــكل البيضاوي . لم ير إلا يديها الممدودتين نحوه، فسارع بالإمســاك بهما، وراح يشدهما بأقصى ما يملك من قوة، ليجتذبها خــارج دائرة الدوامة، لكنها أسرته مع أخته، وأخذت تدور حــول نفسها في بطء وأناة . استسلم لليأس، واستلقى جوار أختـــه التي أغشي عليها . اغمض عينيه، وأحس بالدوار عندما بلغت سرعة الدوامة العشبية ذروتها، وفوجئ بأنها تلقـــي بهمـا في أخدود بحري عميق، تتساقط عليه سيول الوحل من قمة جبـل السمندل الأحمر الذي كان واقفا بلونه المزركش، يقهقه عاليـا كبهلوان عجوز، ويبرز لسانه اللزج إلى الأمام .

لم يشعر وائل بما حدث له بعد سقوطه في الأخــــدود، فلقد فقد وعيه من الخوف، ومن كرات الوحل التي تسـاقطت على وجهه . ولما أفاق بحث ببصره في هلع عن رنـــا، حـــتى وجدها ملقاة جواره مغطاة تماما بــالوحل اللــزج، فغســل جسدها بماء البحر، وربت على خديها حتى استفاقت – هــي



الأخرى وأخذت ترنو إليه في ذهول .

ارتعش جسد رنا، وتقلصت عضلات وجهها لـــدى انبعاث صوت انفجار رهيب من أحد الكـــهوف البحريـــة، كانت الحيتان الغاضبة تحطم باب الكهف الـــذي أوصـــده القرش – الثعلب على نفسه . غطت رنا وجهـــها بيديـــها، لكيلا تصيبها قطع الصخور المتطايرة، ثم دفنت رأسها في صدر أخيها الذي كان يحملق بدهشة إلى الحيتان المتجمـــهرة أمـــام الكهف، وكانت تعبر عن غضبها بإحداث زفير قـــوي عـــبر المنخرين تارة، وبلطم الماء بزعانفها تارة أخرى، وبدا أنهـــا تفعل ذلك لإجباره على الخروج من مخبئه .

ولم تكن الحيتان تعلم أن السمندل الأحمر المزركش قـد هبط من الجبل توا، وتسلل إلى الكهف الذي يعـــتزل فيـــه القرش الثعلب، ولم يعطه أية فرصة للتفكير في اختيار حلـــم ملائم، من شتى الأحلام المتناقضة التي تراءت له، وافـــرز في فمه المفتوح سائلا لاذعا يسبب إحساسا بالحريق، وعضـــه في ذنبه ثم لاذ بالفرار .

صرخ القرش – الثعلب من الألم، وخرج من كهفـــه غير مكترث بالحيتان المتجمهرة أمامه، وراح يـــدس انفـــه في أجسادها ويضحك بشكل هستيري، وهو يستحيل مـــرة إلى

سلحفاة بحرية تسبح ببطء حول ذيولها، ومرة أخــــرى إلى أفعى تتلوى أمامها ثم تسبح نحو جبل الخفافيش، ولحظـــة أن قررت الحيتان الفتك بالأفعى، استحالت إلى هدهد تنبعث منـه رائحة كريهة، اخذ طريقه إلى سطح البحر، وظـــل يرفـــرف بأجنحته، ويغرد بصوت أجش متقطع يشبه عواء ذئب جـلئع، أيقظ الخفافيش من نومها .

اطل خفاش عجوز من إحدى نوافذ كهفه، وأرســــل ببصره نحو ذلك الطائر القذر الذي اعتاد أن لا ينظف جسـده منذ الولادة حتى الممات، ولم يســـتطع أن يقـــاوم إحساســه بالغثيان فتقيأ، ثم قرر أن يفتك به، فطار نحـــوه، واعتــلاه، ووخز رقبته بأسنانه الحادة، وامتص دمه .

أمومة

رأى وائل ذيل حوت يتدلى أمامه من حافة الأخدود، ولم يجد أمامه مفرا من استخدامه حبلا للنجاة والخروج من هذا المأزق .

حدق إلى عيني أخته الزائغتين التي كانت لا تزال تنتابها حالة من الذهول، وصرخ في وجهها لعلها تستفيق، بيد أنها لم تعره التفاتا كأنما لا تشعر بوجوده، دفعها بيديه نحو ذيل الحوت، وحثها على الإمساك به لكنه لم يستطع أن يبسط يديها المتصلبتين، فهز جسدها بعنف حتى كادت تنكفئ على وجهها، وعندئذ استفاقت من ذهولها، وتفرست وجهه كأنها تراه لأول مرة، انحدرت دمعتان من مقلتيها، وصرت أسنانها، وأخذت تصدر نشيجا مكتوما . ضمها وائل إلى صدره، وهمس في أذنها :

" لابد أن نتسلق ذيل الحوت حتى نخرج من هذا

الأخدود قبل أن نتعرض للهلاك ".

تعرفت رنا إلى نبرات صوت أخيها، وبدأ الشعور بالأمان يتسرب في كيانها، وقالت : " لقد سمعت شقشقة عصفور تأتي من الفضاء البعيد، وسمعت أمي وهي تقلب قطعة من السكر في كوب من الحليب لتعطيني إياه.

ورأيتها وهي تجدل ضفيرتي، وتضع الفطائر في حقيبتي، وتصحبني إلى المدرسة، وأحسست بيديها الدافئتين دائما . لقد اشتقت إليها كثيرا – يا وائل – فهل ستتاح لنا فرصة لقائها قبل أن نموت ؟ .

أحس وائل بحزن دفين يتفجر في أعماقه، لكنه لم يشأ أن يستدرج إلى تلك المشاعر التي قد تشل قدرته على التفكير في هذه اللحظات الفاصلة من حياتهما، ولذلك، أمر أخته بلهجة صارمة بأن تبدأ في تسلق ذيل الحوت، نظرت إليه رنا في دهشة، ونفذت ما أمرها به وقلبها يكاد يسقط من الخوف، صعد وائل خلفها، وساعدها في الصعود حتى وصلت إلى حافة الأخدود . سبحت رنا برفق محاولة الابتعاد عن الحوت بدون أن يشعر بها، التقت عيناها بعيني الحوت فكادت تعصف بها الرهبة، وسرعان ما استعادت سكينتها ، إذ رأت حزنا جليلا ينبعث من عينيه، تملكها شعور بالتعاطف نحوه، واقتربت منه

وهي تنظر بلوعة إلى زعنفتيه اللتين يهزهما بيأس .

همس إليها وائل :

" أنها أنثى الحوت تفتقد صغيرها الذي افترسه القرش – الثعلب " .

قالت رنا بصوت متهدج :

" هل ستحزن أمي مثلها عندما يحدث لي مكروه ؟ " .

لاذ وائل بالصمت، وراح يقضم أظافره، فلقد اربكه هذا السؤال المفاجئ ... فهل ستشعر أمه حقا بهذا الحزن العميق عندما تفتقد ولديها أم سينتابها مجرد كدر أو ضيق للحظات، تنشغل بعدها في أبحاثها عن زهرة برية أو شجرة نادرة ؟

واعتصر الحزن قلبه لما لم يهتد إلى إجابة حاسمة عن هذا السؤال الذي اجتاح مشاعره، وأطاح برباطة جأشه، فدفن رأسه في كومة من الأعشاب، وانخرط في بكاء مرير .

لم تلحظ رنا ما جرى لوائل، لأنها انشغلت بتأمل أنثى الحوت التي حملقت في الماء، اغرورقت عيناها وقد تراءى لها صغيرها الذي رحل وهو يلهو بجذع شجرة عملاقة ويقذفه عاليا .

لطمت أنثى الحوت طين القاع بزعنفتيها القويتـــين، فأحدثت فيه فجوتين عميقتين ارتجف جســــدها حـــين رأت الطحالب الفضية تتشرب لون الدم الأحمر القاني، ثم أطلقـــت صرخة هائلة اهتزت لها مخلوقات البحر والبر، حتى الطيــــور البحرية التي كانت تحلق وقتئذ في الفضاء توقفت عن الرفيــف والزقزقة، وكادت تهوي في البحر .

نظرت أنثى الحوت بعينيها المحمرتين إلى الأخوين اللذين بدا عليهما الهلع، وأومأت إليهما بأن يقتربا منـــها، فســـبحا نحوها بحذر بالغ، وعندئذ ربتت بزعنفتيها على جسديهما برفق حتى تبث في قلبيهما الطمأنينة، وأشـــارت إليـــهما بامتطـــاء ظهرها، وصعدت بها إلى سطح البحر .



محاولة انتحار

تمدد الأخوان فوق الأعشاب المخملية التي تغطي إحدى الصخور، ليلتقطا أنفاسهما بعد المغامرة التي كانت ستودي بحياهما، سرى في كيانيهما شعور بالأمان لم يدركاه من قبل، حين أحاطتهما أنثى الحوت بزعنفتيها مثلما يحتضن الطائر أفراخه، خوفا عليها من الجوارح .

جلست رنا القرفصاء، وأطالت النظر إلى عينيها الزائغتين ووجهها الوديع . رأت بضع قطرات من اللبن تنساب على صدرها، فاجتاحتها رغبة عارمة في أن تمتص حلمتيها، أمالت رأسها على ثديها، وهمت بالرضاعة، إلا أنها تراجعت أمام ملمس جلدها الخشن الذي بدأ يتشقق بفعل حرارة الشمس .

نهضت رنا من جلستها وقد تركز بصرها على أنثى

الحوت، فإذا بعينيها تفقدان بريقهما، وإذا بزعنفتيها تـأخذان في الارتخاء .

قالت لوائل مندهشة :

" هل سمعت من قبل عن حوت يلجأ إلى الانتحـــــار حزنا على صغيره الذي رحل ؟!".

انتفض وائل واقفا، وطاف حول أنثى الحوت، وتحسس جلدها الذي تنتشر به الشقوق الغائرة والقروح . حـــدق إلى وجه الشمس كأنه يرجوها أن تخفف النار المستعرة التي تتلظى بلهيبها أنثى الحوت، وتضرع إلى السحابات أن تقطـــر مـــن ضروعه مطرا وبردا وسلاما عليها . انقبض صـــدره عندمـــا رأى قطرات اللبن تتخثر على أثدائها، وتستحيل إلى حبيبـــات صفراء، وشهق حينما أغمضت عينيها ببطء وخالها تحتضر .

تلفت وائل حواليه مشغوفا آملا في العثور على دلو أو إناء أو علبة فارغة، ليأخذ من ماء البحر ويرش على جســدها، ليقيها من حرارة الشمس، لكنه لم يجـد إلا بضـــع أصـــداف مهشمة وفروع أشجار يابسة . صرخ وائل في وجه رنا الـــتي استسلمت لبكاء يائس، فهرعت إلى مساعدته، وقفـــزت في البحر، وملأت فمها الصغير بالماء، وعادت لترشه على الجسد اليابس لأنثي الحوت . وحذا وائل حذوها عدة مرات من دون

جدوى، فلقد ظلت أنثى الحوت على حالها، ولم تبدر منها إيماءة أو حركة أو همهمة تدل على أنها على قيد الحياة .

خيم اليأس على الأخوين الملتاعين، فجلسا يترقبان موتها بين لحظة وأخرى .

فجأة خرج من البحر جيش من المحارات كانت تصعد في أفواج فوق الصخرة، وتفتح أصدافها وتطبقها بقوة، فتقذف بالماء – مثلما تقذف الطائرة النفاثة بالهواء – على جسد أنثى الحوت، وكررت ذلك مرات ومرات حتى فتحت أنثى الحوت عينيها وقفزت المحارات في البحر مرة أخرى .

سمع الأخوان أنينا خافتا وعويلا مكتوما ينبعث من جسد أنثى الحوت، ثم شهقة هائلة تشبه الصهيل الأخير لخيول تطويها الكثبان الرملية وارتج جسدها ارتجاجا عنيفا حتى خيل إليهما أن زلزالا رهيبا يقذف بالصخرة في الفضاء .

التقط الأخوان أنفاسهما، وراودهما الأمل في أن تعود أنثى الحوت إلى البحر، وتنضم إلى قطيع الحيتان الذي رحل خلف الجبال الزرقاء البعيدة . مرت عليهما لحظات ثقيلة من الترقب والانتظار، لم يطرأ خلالها أي تغير على موقف الأم التي بدا أنها فقدت رغبتها تماما في الحياة .

لم يستسلم وائل لليأس، ووقف على حافة الصخرة، وشرع في أداء أغنية الحيتان، فانطلقت من حنجرته حمحمة خيول وخوار بقر وهدير أنهار وصلصلة حديد وصليل سيوف، وشدا صوت رنا بهديل حمام وخرير مياه ورفيف فراشات وحفيف أشجار وهسهسة إبل، ثم كفا عن الغناء، وأخذا يقلدان نداءات الحيتان من هدير وصراخ وعواء ونقنقة ونباح، حتى بح صوتاهما، وانكفأ على الصخرة، وأجهشا بالبكاء.

اختلط بكاؤهما بضوضاء آتية من جهة البحر، رفعا رأسيهما، فرأيا جبالا من الزبد الأبيض وأهرامات زرقاء من الأمواج الهادرة تكاد تبلغ عنان السماء، كانت الحيتان تسبح نحوهما، وترفرف بزعانفها كأنها طيور خرافية بعثت من عصر آخر بعد انقراضها. غنت الحيتان - كما لم تغن من قبل - وجلجلت أصواتها حتى فاض البحر على شاطئيه، وأوشكت النجوم أن تغير مساراتها حول مجراتها، لتنصت إلى هذا الغناء المهيب لولا خشيتها من اصطدامها بالمجرات الأخرى، مما قد يؤدي إلى فناء الكون، فاكتفت بما ترامى إلى أسماعها من نغمات خفيضة.

نهضت أنثى الحوت بتثاقل، وأبصرت قطيع الحيتان



الذي اقترب من الصخرة وتمتمت بالغناء، فانطلق من حلقها صوت يشبه الحشرجة أحيانا والهمهمة أحيانا أخرى . صعد زوجها إلى الصخرة، فاعترتها قشعريرة هائلة، أومأ إليها بأن تقفز في البحر، فرفضت الامتثال لأوامره . أصدر زوجها هديرا غاضبا، ودفعها بزعنفتيه حتى اقتربت من حافة الصخرة، بيد أنها رمقته بتحد وزأرت زئيرا مخيفا، ثم أقصته بعنف حتى عاد القهقرى رغما عن إرادته، وربضت هي في مكانها، بينما تنشد الحيتان تراتيل تشبه نحيب الأمهات اللواتي فقدن أطفالهن في حروب خاسرة .

أغرقت رنا في البكاء، وارتعشت أهداب أنفها، وارتجفت شفتاها، وبدت كعصفور صغير يطوف حول عشه بعد أن اختطف النسر صغاره، ثم قفزت في البحر تاركة وائلا في دهشة من أمره . وبعد قليل صعدت جوار أنثى الحوت، وتمتمت بكلمات لم يستطع أن يتبينها وائل الذي خيل إليه أنها استحالت إلى فيل ابيض صغير، ظل يدور حول أنثى الحوت، ويدب على الأرض حتى تمخضت الصخرة عن سحابة من البخار الأزرق الكثيف، راح يرقص رقصا إيقاعيا على دبيب أقدامه . ورويدا رويدا خرج من البخار حوت رضيع رمادي اللون، فتح شدقيه، واندفع نحو أمه في لهفة يمتص ثديها

اليابس، فلما لم يجد به حليبا ضربها بزعنفتيه غاضبا، وكـــرر محاولته حتى انفجرت من حلماتها نافورة من الحليب الدافـــئ، كست وجهه وذراعي وائل الذي انتفض مشدوها . ولما شبع الحوت الصغير، قفز في البحر يلهو ببقايا قارب صغير دفعتـــه الأمواج نحوه، فقفزت أمه خلفه، وأحاطته بزعنفتيها، وانضمـا إلى قطيع الحيتان الذي كان يتأهب للرحيل مرة أخرى خلــف الجبال الزرقاء البعيدة . ولم يلحظ أحـــدا أن الحـــوت الأب رابض على الصخرة تنتابه حالة من الهذيان بعد أن رأى ابنـــه يبعث حيا، أو أن وائلا قد صفعته المفاجأة وعقدت لسانه، فمد ذراعيه كضرير ضل خطاه نحو أخته الـــتي صـــارت حوتـــا، وافترقت عنه من جديد .

فراشة الأميرة الحمراء

هاهو وائل الآن وحيدا على الصخرة شارد اللب محـير الفكر، بعد أن خذلته أخته ورحلت بمحض إرادها، لم تفسر له موقفها، ولم تودعه بكلمة أو إشارة هدئ روعه . ولقد رحــل الحوت الأب هو الآخر وراء أنثاه وصغيره الذي ولــد مــن سحابة البخار الأزرق، بدون أن يرهق عقله بتفسير ما حدث.

كيف يتخذ وائل قراره بعد كل هذا العنــاء الــذي كابده ؟ هل يصبح حوتا ويلحق ـ (برنا) أم يصبح فراشــة مزركشة الألوان تنهل الرحيق من زهرة اللؤلؤ التي يتــوق إلى الاسترخاء على ذراعيها المخمليتين، والنــوم علــى بتلاتهــا الدافئة؟ .

تذكر مذاق قطرات الرحيق التي تدفقت من تويجــها وانثالت على وجهه كحبات المطر، فلحس شفتيه . وتراءت له

زهرة اللؤلؤ كعروس البحر التي تشكلت من الزبد الأبيض واتكأت على حافة الصخرة، وقالت له بصوت يشبه مواء قطة تحتضر :

" إياك أن تتخير حلما يقصيك عني " .

انهمرت الدموع من عيني وائل، وامتزجت بقطرات الحليب التي تخثرت على وجهه، والتقطت أذناه أصواتا تشبه رجفة الناي وانين الكمان ورعشة الريح، وخال رنا واقفة على قمة الجبال الزرقاء البعيدة تشدو بأغنية الحيتان، فارتجف جسده، وساءل نفسه في حيرة :

" كيف احنث في وعدي لزهرة اللؤلؤ ؟ وكيف أصير كاذبا أمام الفراشة الملكة التي أقسمت أمامها أن أكون فراشة؟ قد تموت ما لم أحقق حلمي الذي اخترته بإرادتي ... لقد خذلتني رنا مرتين، مرة عندما تلكأت في المجيء معي إلى مملكة الأحلام في بادئ الأمر، والمرة الأخرى عندما جاءت واستقرت على حلم يحقق لها الفرح، ورحلت بمفردها بدون أن تعبأ بي .

اعتصرت الأحزان قلب وائل، وهصرت الأفكار المتضاربة عقله، وأخيرا، حسم أمره وقرر أن يصبح فراشة . غطس في البحر دامع العينين، ثم صعد مرة أخرى، ولم ينتبه إلى

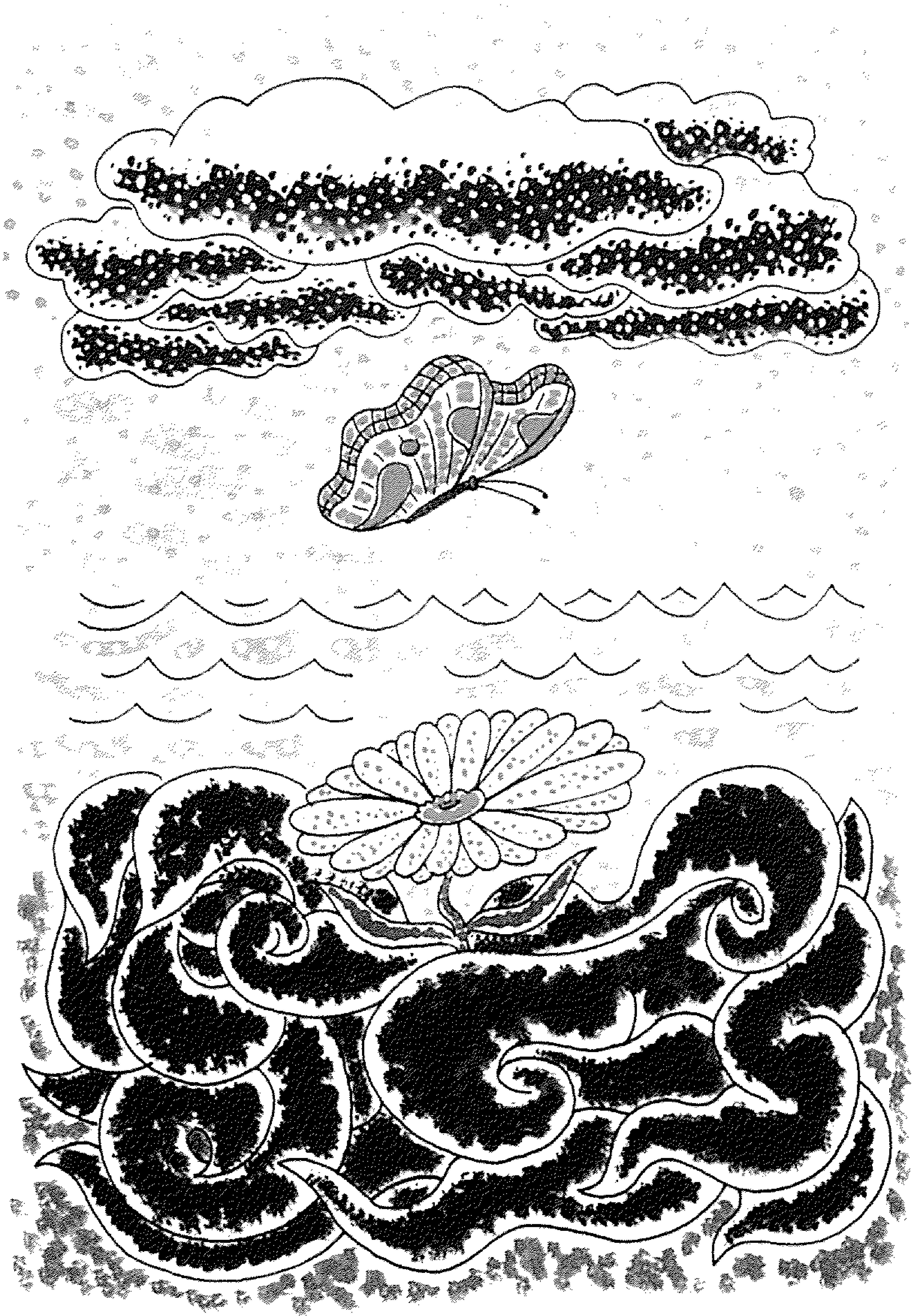
قطرات الحليب التي يبست على ذراعيه وحالت دون بللهما بالماء .

في بادئ الأمر تضاءل جسده حتى استحال إلى زهـــوة، ثم نبت من الأوراق جناحان، ومن الجذر ذيل مبرقش بالألوان ن ومن التويج رأس صغير لفراشة الأميرة الحمراء – مشـــى على الصخرة مزهوا، وحاول أن يختبر قدرته علـــى طـــيران الرفيف، بأن حرك أجنحته بشكل دائري، فارتفع قليلا عـــن الأرض ثم سقط . تطاير رذاذ الماء على جسده، وسرت فيـــه قشعريرة . عاود المحاولة لكنه سقط من جديد، وكاد جناحـــاه يتهشمان .

أصيب وائل بهلع، وتأمل جناحيه الشفافين الذي تـــبرز منهما العروق، جناحيه العاجزين عن امتصاص أشعة الشمس، وعندئذ أدرك سر عجزه عن الطيران، واكتشف أن قطـــرات الحليب التي حالت دون بلل ذراعيه عندما كان بشرا هي التي تسببت في تلك الكارثة. انزوى بين الطحالب الخضراء وهـــو يرتجف من البرد، وتذكر آلاف الحراشف الصغيرة التي رآهـــا تغطي جناحي الفراشة الملكة والتي بدت حمراء حين انعكســت عليها أشعة الشمس، برغم أن كل حرشفة منها كانت بلـــون يختلف عن الأخرى . امتلأ صدره حنقا إزاء الفراشة الملكـــة

التي تمتلك جناحين مزركشين، وندب حظه العاثر، فلقد فقد كل شيء، وصار حلمه كابوسا : الآن لن يستطيع أن يلتقي زهرة اللؤلؤ، ولن يستطيع أن يلحق بالحوت الصغير، أخته التي رحلت إلى الجبال الزرقاء البعيدة .

حملق وائل بحسرة إلى حواشي الظل الحمراء التي تتأرجح حول قرص الشمس، وقرر ألا يستسلم لليأس، وأن يبحث عن حل سريع يجعله قادرا على الطيران، قبل أن يتبدد أمله، ويروغ منه آخر شعاع للشمس التي بدأت في الرحيل إلى الأفق الغربي . اتكأ وائل على السعوف المموجة للطحالب الخضراء، واستغرق في تفكير عميق . أحس ببعض الدفء يتسرب في عروقه، وهلل من الفرح حين رأى بقعا خضراء تنتشر على جناحيه . نظر بامتنان إلى الطحالب الخضراء التي روت جناحيه بعصيرها الأخضر، وركض حول حجر ساخن ومرّغ جسده عليه، وامتص آخر شعاع للشمس قبل أن ترحل . حرك جناحيه بوجل، فارتفع عن الأرض رويدا رويدا ثم انزلق ببطء كأنه يهبط بمظلة . اشرق وجهه من الفرح، واختبر قدرته على الطيران عشرات المرات حتى ملأته الثقة، ثم قرر الرحيل إلى أرخبيل الفراشات، وطار بشكل دائري حول الطحالب الخضراء التي كانت بعض سعوفها قد تهدلت،



بعد أن منحته عصارها الخضراء والريح تذروها، وتلقي بها بين جبال الزبد البيضاء.

الشجرة القاتلة

خيل إلى الفراشات والزهور والأشجار والقواقــع – في أرخبيل الفراشات – أن الفراشة الخفاش قد رحلت إلى الأبــد بعد موت مليكها القرش – الثعلب، وأنها لن تزعجهم مــــرة أخرى .

ولقد خاب ظنهم، لأن الفراشة الخفاش لجأت إلى حيلة تستقر بها بينهم، من دون أن يشعروا بها، فلقد ملأت ســـرا عدة قنينات من ماء البحر – عندما تحرر – وسكبتها علــــى جسدها واستحالت إلى شجرة التين البنغالي الطفيلية الزاحفــة، وفي لحظات قصيرة كونت غابة كبيرة، تدلـــت خيوطـــها في الهواء مثل خيوط لعنكبوت عملاق، وتأرجحت هـــي مـــن النشوة، ومدتها باستخفاف نحو الأشجار التي تنتشر حولهـــا، وامتصت ما في خلاياها من الغذاء السكر، ثم خنقتها واحــدة

تلو الأخرى، وأحست بلذة كبيرة لدى سماعـــها طقطقـة الفروع المتكسرة وهسيس الجذوع التي هصرهـا هصـرا، وضحكت كساحرة عجوز حين رأت أوراق الزهور الذابلـة تتناثر حولها وهي تدوس عليها بجذورها القوية .

ألقت شجرة التين البنغالي نظرة سـاخرة إلى النمـل النساج، بعد أن فرغ من صنع قلعة من الكرتـون بعجينـة الخشب، من اجل فراشات الأحلام التي باتت عـاجزة عـن الطيران، لأنها لم تجد زهورا تمتص رحيقها، بيد أن الفراشـات رفضت الامتثال لأوامر مليكتها بالدخول إلى القلعة، برغـم تحذيرها لها من اقتراب الجذور الخانقة لشجرة التين البنغـالي . تجمهرت فراشات الأحلام حول الزهور الذابلـة، ومـدت خراطيمها داخل كؤوسها عساها تمتص رحيقـها وتسـتعيد قدرتها على الطيران، ولم تجد إلا بضع قطرات من الماء المشـبعة بالغبار وحبيبات الرمال . تلفتت الفراشات حولها بهلع فلم تجد إلا زهرة اللؤلؤ، وهي الزهرة الوحيدة التي بقيت على قيـد الحياة في الأرخبيل، زحفت نحوها غير عابئة بجذور الموت الـتي مدتها شجرة التين البنغالي لتحول بينها وبين زهرة اللؤلؤ .

تضرعت زهرة اللؤلؤ إلى الفراشات اللاتي تستنـزف رحيقها، بأن تترك بضع قطرات من الرحيق لفراشة الأمـيرة

الحمراء التي كانت تتطلع إليها وهي ترفرف في السماء، لكن الفراشات لم تعبأ بتضرعها، والتفت الجذور الخانقة حول أعناق بعضها فلفظت أنفاسها في الحال، بينما اكتفت الفراشات الأخيرات بما حصلت عليه من رحيق، ولاذت بالفرار من الأرخبيل .

ألقت زهرة اللؤلؤ بنظرة إلى الجذور التي حاصرتها وأحكمت عليها الحصار غير مبالية، كأنها لم تعد تكترث بالموت، وتابعت بعينيها الدامعتين فراشة الأميرة الحمراء التي كانت تجوب الأرخبيل بحثا عنها، وعجزت عن رؤيتها وسط زحام أوراق الأشجار الذابلة التي تناثرت حولها وشكلت تلالا صفراء .

شهقت فراشة الأميرة الحمراء حين تأرجحت أمامها ورقتان ذابلتان، ورقة صفراء بحواف بنية، وورقة مبرقشة ببقع الدم، وأيقنت أن أرخبيل الفراشات قد تعرض لكارثة مد حين رأت الخراب الذي حل به، وتلال الأوراق الصفراء التي تنتشر في كل مكان، وأدركت أنه لم يعد وطنا للفراشات والأشجار والزهور والأحلام، وتساءلت في حزن بالغ :

" ألن ألتقي بزهرة اللؤلؤ بعد كل هذا الرحيل ؟".

طافت حول الأرخبيل وهي تنقب ببصرها عن زهرة

اللؤلؤ، لكنها لم تتبين إلا شبكة الجذور الخانقة التي جثمت على صدر الأرض حتى ضاقت بها، كملاءة سوداء مثقبة نشرت على سرير من الصلصال الأصفر اليابس.

زاد اللون الأصفر إحساس فراشة الأميرة الحمراء بالإعياء والوهن، فتطوحت بعنف وأوشكت أن تسقط على أحد الأغصان اليابسة، بيد أنها استطاعت أن تستعيد توازنها قبيل أن تنالها الجذور التي امتدت نحوها كمخالب قط جائع. حمشت حراشف جناحيها، وحلقت إلى السماء بيأس، فإذا بالشمس تنتفخ حتى تصبح كرة كبيرة حمراء من نار، شعرت بأن لظاها يكاد يحرق جناحيها. حطت على شجرة صهباء عملاقة لم تصل إليها جذور الموت بعد، تحتمي بظلالها، غير أنها كانت شجرة بلا ظلال تتجه أوراقها الصغيرة عموديا نحو ضوء الشمس.

فارَ البحر كأن أحدا أشعل في قاعة آبارا من النفط. غمر الأرخبيل بماء زعاق شديد الملوحة، وفرت إلى الشاطئ أعداد هائلة من المحارات التي لم تحتمل ملوحة مائة وحرارته التي اقتربت إلى درجة الغليان. انتزعت الجذور الشرسة أصداف المحارات، واعتصرت أجسادها الطرية حتى تساقطت واحدة تلو الأخرى.

تأججت نار الشمس إلى حد أن شعرت فراشة الأميرة الحمراء بأنها تشوى في فرن، وانصهرت أجساد المحارات واستحالت إلى بركة من الغراء الشمعي الأصفر، غلّف الأشجار المهشمة والزهور الذابلة .

اعترت فراشة الأميرة الحمراء نوبة من النشيج والبكاء اليائس، وتتبعت بعينيها الذاهلتين مجرى الشمس المصهور، فرأته يتلوى كأفعوان يحاصر زهرة اللؤلؤ التي تهدلت أوراقها، واستسلمت للموت . زحفت نحو زهرة اللؤلؤ في لهفة كأنها تتقلب على جمرات من النار، مدت خرطومها في تويجها، فلم تجد إلا قطرات من الملح الأجاج الساخن، رقدت على الأرض وترقبت الموت بين لحظة وأخرى . فوجئت بالفراشة الملكية تجذبها بخرطومها إلى قلعة الكرتون، وظلت ترفرف بجناحيها فوق جسدها الملتهب حتى بردته .

ومن إحدى نوافذ القلعة اشرأبت، فرأت زهرة اللؤلؤ مغلفة برداء من الشمع الأصفر كأنها تمثال في متحف الشمع، أشاحت وجهها وتطلعت إلى السماء، حين سمعت هدير العواصف وزئير الرعد . رأت السحابات السوداء تلتف حول قرص الشمس الأحمر وتنصهر تباعا، ثم تنهمر مطرا مدرارا رطب وجه الأرخبيل المستعر، والعواصف الهوجاء تقتلع

شجرة التين البنغالي وتلقي بها في البحر - تأرجحت قلعة الكرتون حتى طارت في الهواء وتمزقت صفائحها، وسقطت الفراشتان في البحر على زورق صغير من قشور شجرة البلوط، والتاعت فراشة الأميرة الحمراء وهي تتابع زهرة اللؤلؤ بأوراقها الشمعية الصفراء، بينما كانت تختفي بين تل الفروع المهشمة، وتستسلم لنوم عميق .

الصُّحون الباردة

فرغ وائل من قص روايته فراشة الأميرة الحمراء علـــى أخته رنا . نظر بضيق إلى الصحون الباردة المرصوصة أمامـهما على مائدة الطعام، وقال لأخته :

" لقد فقدت شهيتي تماما ".

نهضت رنا متثاقلة ومن النافذة أبصرت قرص الشـمس الذي نشر ظلاله الحمراء على الزجـــاج المغبّـــش بالغبـــار، ترقرقت دمعتان في عينيها، وقالت لوائل :

" لقد أوشكت على الغروب ولم تأت أمي بعد " .

وعلق وائل مهموما :

لقد نسيت آخر مرة تناولنا فيها الطعام مع أمنا منذ أن رحل أبي إلى معمله البحري في البحار البعيدة، لكـــي يحقـــق



حلمه بسكنى البشر في قيعان البحار ... يبدو أنها كانت منذ شهور تقريبا " .

التقطت رنا رواية أخيها، ورسمت على غلافها الفراشة الملكة وحيدة في قلعة الكرتون، تطل من نوافذها دامعة العينين على أرخبيل الفراشات الذي حل به الخراب، ورسمت في صفحاتها الداخلية بحيرة الأحلام التي تتبخر بفعل حرارة الشمس، وزهرة اللؤلؤ التي ينثال رحيقها على الأرض وتمتصه التربة الصلصالية الصفراء، وفراشة الأميرة الحمراء لا تقدر على أن تنال قطرة واحدة منه، وشبكة الجذور الأفعوانية لشجرة التين البنغالي وهي تلتهم الصلصال المشبع بالرحيق .

كفت رنا عن تلوين لوحاتها حين سمعت صرير الباب . اخفت الرواية وعلبة الألوان تحت المائدة، وأصابها الارتباك .

دخلت الأم مهرولة وهي تحمل أوراق أشجار متنوعة، بدا أنها قد خضعت للفحص والتشريح .

رنا الأخوان بأسى إلى أوراق الشجر الصفراء التي برزت عروقها، والتقطا بضع لقيمات من الطعام بدون شهية .

لم تقدم الأم أي تفسير لغيابها المفاجئ وحنثها في وعدها، ونظرت بغضب إلى الصحون الممتلئة بالطعام، ثم

جالت أرجاء الغرفة ببصرها بحثا عن لعبة أو كتاب أو كراسة رسم، حتى عثرت على الرواية الملقاة تحت المائدة، قلبت أوراقها بعصبية، وقرأت بعض كلماتها بغير اكتراث، وقالت لهما بسخرية :

" الأحلام مفسدة للعقل، وهي تجعل الإنسان يستغرق في أوهام لا طائل من ورائها، والنوم الحقيقي هو نوم بلا أحلام، والإنسان العاقل هو الذي يلجأ إلى العلم لحل مشاكله، ولو كنتما تتسمان بعقل حصيف لتناولتما طعامكما بدلا من إهدار الوقت في الكتابة والرسم " .

ألقت الأم بالرواية بإهمال على الأرض، وهمت بمغادرة الغرفة، فأسرع وائل إليها وضمها إلى صدره، واستوقف أمه قائلا :

" متى يعود أبي من معمله البحري ؟" .

أجابت أمه بحزم :

" لا أعلم متى يعود، انه لم ينته بعد من أبحاثه " .

واستطردت قائلة : "لم تسأل ؟ !" .

قال لها وائل بتحد :

" لقد كان أبي يحلم دوما بالإنسان الذي يستطيع

التنفس في الماء مثلما يتنفس في الهواء " .

– لن أهدر وقتي معك في جدل سخيف فالأطفال يجب أن يلتزموا بأوامر آبائهم بدون مناقشة، لأنهم يعرفون صالحهم . سأستكمل أبحاثي الآن، وسوف أعود بعد قليل، وحينئذ تكونان قد فرغتما من تناول الطعام .

غادرت الأم الغرفة، خطواتها كدبيب أقدام الجنود في عرض عسكري . وغص حلق وائل بلقمة حاول أن يبتلعها غصبا، فلفظها من الفور، وقال لأخته محفزاً :

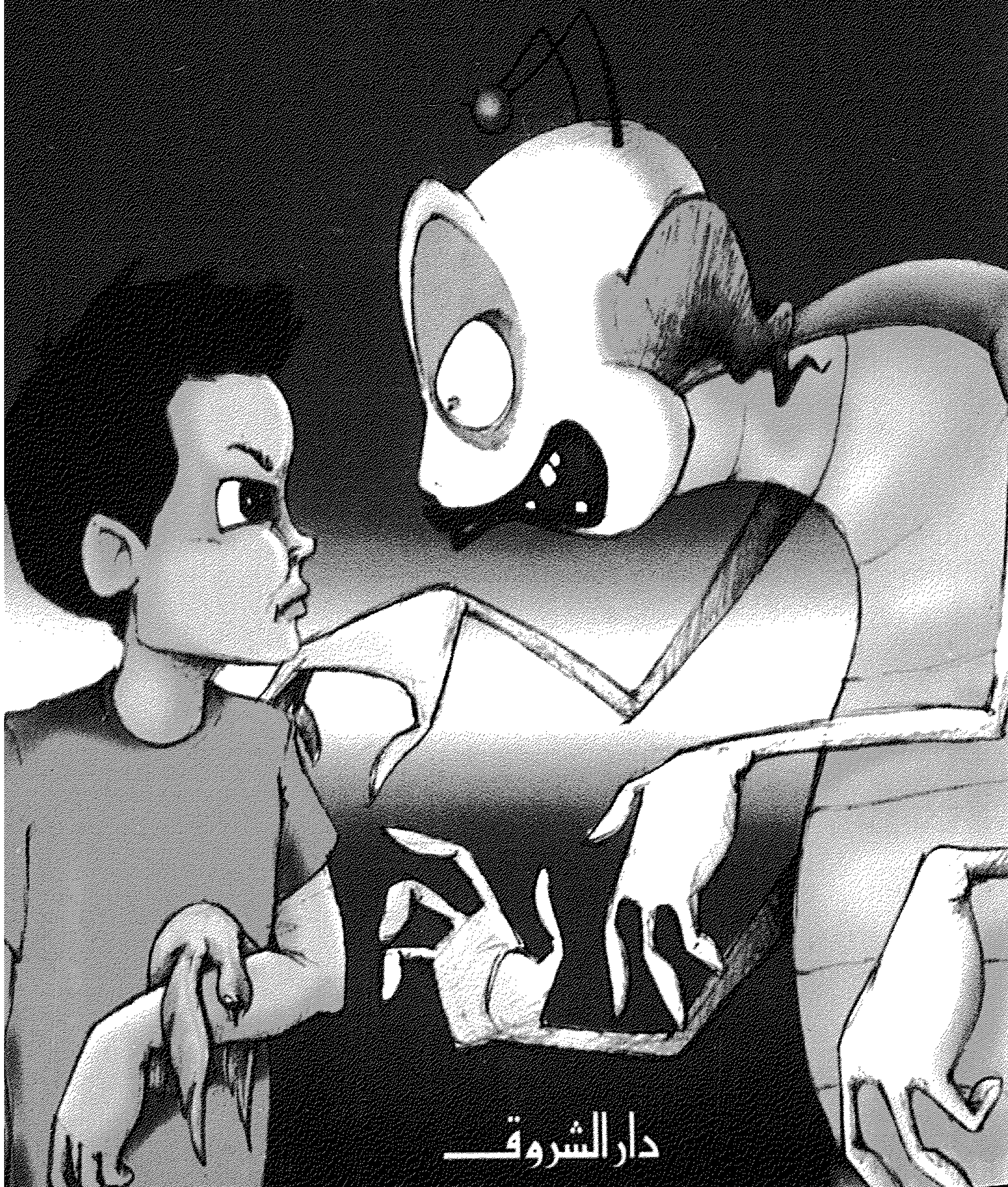
" لابد من أن نعود إلى أرخبيل الفراشات مرة أخرى علنا نجد زهرة اللؤلؤ، ونمتص رحيقها، وننام على بتلاتها الدافئة، وربما نجد أيضا شجرة يانعة نحتمي بظلالها من وهج الشمس " .

قالت رنا بصوت مرتعش :

" سأكون فراشة مثلك . لن أخذلك هذه المرة، ولن افترق عنك إلى الأبد " .

ثورة الأطفال

نبيل خلف



دار الشروق

ثورة الأطفال

ثورة الأطفال

نبيل خلف

رسوم: طارق علي

الطبعة الأولى ٢٠٠٢
دار الشروق، القاهرة
رقم الإيداع: ٢٠٠٢/١٣٠٥٣
الترقيم الدولي: !SBN 977-09-0841-X

(١)

شجرة "لا"

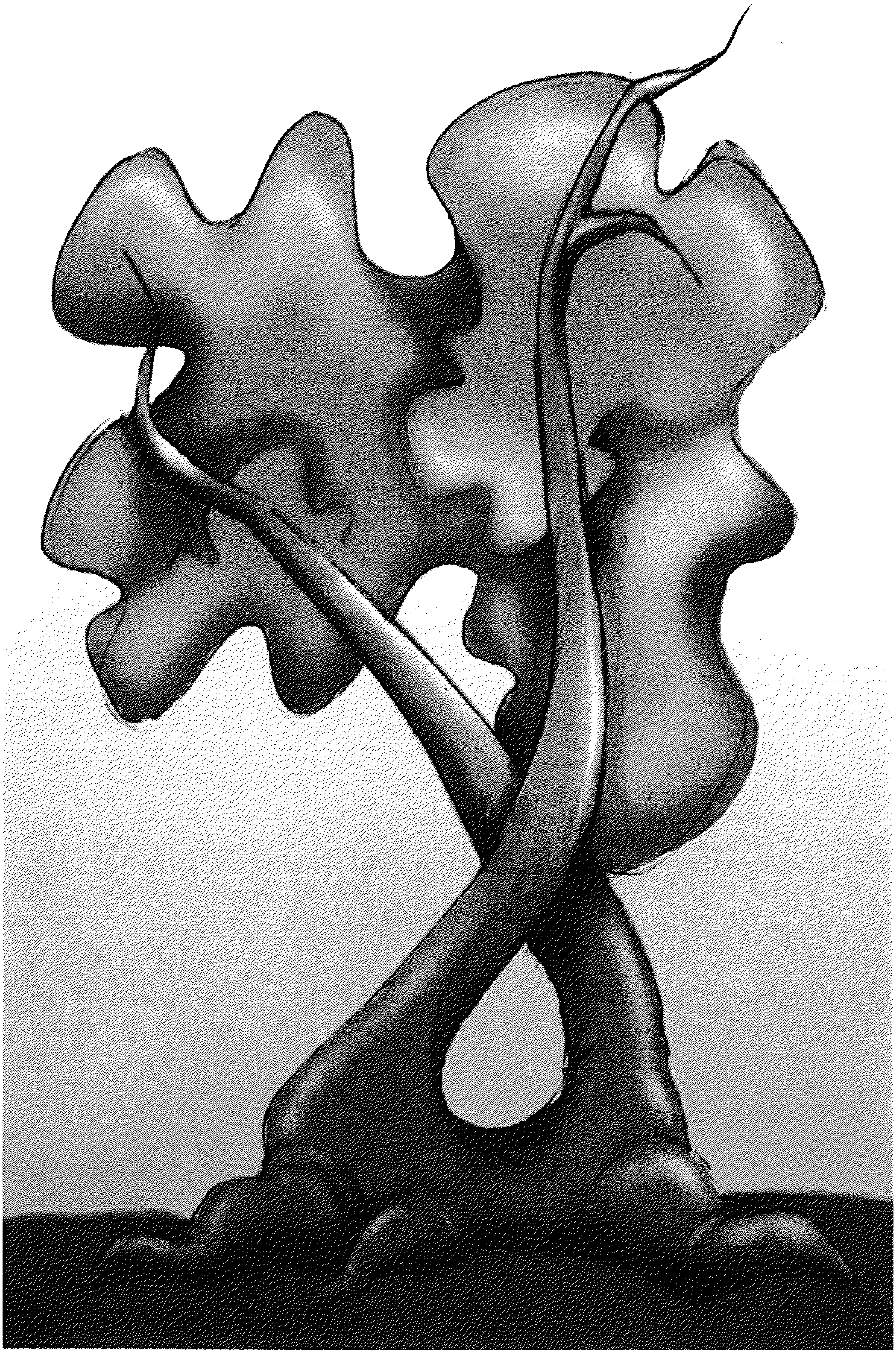
لم تعد العصفورة الام تخشى بطش الحاكم القزم الــذي اصدر قرارا بإلغاء الأمومة بين البشر والطيــور والحيوانــات والحشرات والكائنات الحية كافة.جند الحاكم القزم جيشـــا جرارا ، ليطارد العصفورة الام ، بعد ان رفضـــت الامتثــال لأوامره ، وهربت بفرخها ، عندما وقفت البيضة فوق شــجرة رابضة في فناء قصره ، وقد التفت فروعها على نافذة غرفــة

نومه ، وشكلت بأوراقها الخضراء كلمة لا بكـــل لغـــات العالم . كان الحاكم القزم كلما مزق تلك الأوراق بخنجـــــره الذهبي نمت من جديد ، وكبرت حروفها ، وتزايدت أشواكها التي أدمت أصابعه مرارا ، وبثت الذعر في قلبـــه ، وكـــادت تصيبه بالجنون والخبل ٠

استدعى الحاكم القزم علماء النبات من جميع أرجـــاء الدنيا ، وانفق ببذخ على بحوثهم في الهندسة الوراثية ، حـــتى يصلوا الى حل علمي يغير الصفات الوراثية لتلك الشـــجرة ، فتكتب بأوراقها كلمة نعم ، لكن جهودهم ضاعت سدى إلى الآن ٠

وهاهي تمعن في تمردها حتى أوت عصفورا مارقا بـــين فروعها ، رفض أن يتخلى عن فرخه ، واستطاع أن يعلمـــه الرفرفة والرفيف والتحليق والتدويم والتغريد أيضا ، برغـــم طلقات الرصاص التي انهالت عليه كقطرات المطر ٠

كان إصرار العصفورة الأم على تعليم فرخها التغريـــد والطيران يتزايد كلما نظرت إلى العصافير التي حرمت أمـــهاتها ، وأضحت صماء بكماء ، لأنها لم تجد أحدا يعلمـــها كيـــف تجرب مناقيرها وحناجرها وعضلاتها الرئوية ، تجر أجنحتـــها على الأرض ، وتتمسح في أقدام الحراس ، بعـــد ان فقـــدت



قدرها على الطيران .

لم تقبل العصفورة الأم بأن يلقى فرخها هذا المصير ، وبعد ان أنهت مهمتها المقدسة ، خرجت من مخبئها وأطلقت عصفورها الصغير في الريح ، ترى ريشه الأزرق يتلألأ تحت ضوء الشمس ، وتسمعه وهو يشدو بأغرودته الأولى التي تبدأ بكلمة لا .

(٢)

الخنفساء البلياتشو

نهض الحاكم القزم فزعا ، حين أحس بأن أغرودة العصفور الأزرق تنتشر في كل مكان في القصر ، وتكاد تصم أذنيه.ولم تكن تلك الأغرودة مجرد زقزقة خفيفة يشدو بها عصفور صغير نشوان بنور الصبح ، او بهزهزة الفروع الخضراء ، انما كانت نشيدا صاخبا لجوقة من الاف العصافير الغاضبة هز أعمدة القصر ، كأنه شجرة يابسة عصفت بها

الريح .

سد الحاكم أذنيه بقطع من القطن والفلين ، بـــدون جدوى ، وجرى كالمجنون صوب النافذة التي تلتــف حــول قضبانها فروع الشجرة المتمردة ، فرأى العصفورة الأم الــتي اغتالها الحراس ملقاة على الفروع .

وقد اصطبغت بدمها الأحمر القاني ، وشكلت كلمة لا. توهجت الحروف الخضراء الحمراء الزرقاء بضوء فســفوري أوشك ان يغشى عينيه ، فأسرع الحاكم بالفرار من غرفتــه ، وهرول الى فناء القصر .. اصطدمت قدماه بعض العصافــير الكسيحة التي كانت تتجول في القصر ، فداس على بعضــها ، ليشفي غليله فجأة ، توقف امام خنفســاء عملاقــة تشــبه البلياتشو تنتشر على جسدها علامات حمراء وبيضاء وسوداء. كانت الخنفساء تستند على الشجرة المتمردة ، بينمــا كــان جذعها يهتز بعنف تعبيرا عن نفورها واشمئزازها .

قهقهت الخنفساء البلياتشو كساحرة عجوز ، وقــلت للحاكم القزم : " لا تجعل القلق يسيطر عليك ويهز كيــلنك ، فلتهدأ قليلا ، حتى نستطيع ان نعقد اتفاقا يريحك مــن هــذا العذاب " .

(٣)

الأكذوبة

" لم يكن ذلك حلما بل حقيقة تتجاوز الكابوس بشاعة ، ومازالت تجثم على صدري الى الآن . . . كان عمري وقتئذ خمس سنوات . . . كنت مسترخيا على سرير معلق بين شجرتين امام قصر ابي الذي كان حاكما للمدينة .رأيت الناس يركضون بشكل جنوني ، وجدرانا لونها بني تتهاوى امام عيني ، وغبارا كثيفا يشبه بخار الزئبق يصبغ وجوه الناس بلون رمادي . . . تحطمت أرجوحة نومي وسقطت على الأرض.مددت يدي لأمي التي اندفعت نحوي ، فاذا بي امام طفل غريب ذي وجه عريض مسطح ، يقع رأسه مباشرة على جسده أي بلا عنق ، له عينان كبيرتان مائلتان بنهايات حادة ممتدتان نحو جنبي الرأس ، وانف صغير جدا ، والفم عبارة عن فتحة عادية خالية من الشفتين . . .

مد ذلك المخلوق الفضائي كفه المجهزة بثلاثـة رءوس حادة كالمسامير وغرزها في جسدي ، لم اشعر بألم ، واجتاحت قشعريرة جسدي ، كأن سيلا من الثلج المصهور يتدفـــق في دمي ، ثم اخذ عينة من بشرتي بعملية قشط في ذراعي وقلـــم أظافري نحا ذلك الطفل الغريب نحو جسم طائر مجهول كـــان يهبط ببطء وبث نورا بنفسجيا ، وأشار لعدد من الأطفـــال الشقر ذوي الشعر المصفوف بمادة صمغيـــة ، ودار بينـــهم حديث بلغة غريبة تشبه صرير أبواب صدئة ، فاتجه الأطفـــال نحو أمي التي كانت ملقاة على الارض ، من دون ان يحركـــا أيديهم وأرجلهم التي كانت ملتصقة بأجسادهم ، وجروها بلا عناء نحو ذلك الجسم الطائر المجهول ، وشممت بعـــد ذلـــك رائحة الكبريت ، فاستغرقت في نوم عميق ..

لم يكن الحاكم القزم يحكي تلك الحادثـــة للخنفســـاء البلياتشو التي كانت راقدة أمامه على مائدة الاجتماعات ، بل يتحدث الى نفسه ، ولذلك ، صعق من الدهشة حين قالت له:

- ((لكنك لم تذكر شيئا عن مصير !)) .

قال الحاكم القزم متلعثما :

- " قبض عليه الثوار ونفوه خارج البلاد ، لقد كـلنوا من الأطفال أيضا .



وعلمت من مصادر موثوق بها أن أطفـــال المدينـــة الثائرين تحالفوا مع أطفال الكواكب الأخرى للإطاحة بحكـــم ابي ٠

نظرت الخنفساء البلياتشو بسخرية الى جسده الضئيل، وهمست : ((يبدو انه صدق الأكذوبة التي نشرها عبر أجهزة الإعلام عن المخلوقات التي جاءت من الفضاء في طبق طـائر ، وحقيقة الأمر أن الذين ثاروا ضد أبيه هم الأطفال المســاخيط الذين اجروا عليهم تجاربهم الأولى الخاصة بهورمون النمو)) ٠

تنبهت الخنفساء البلياتشو الى ان الحاكم القزم يحملـق في وجهها بدهشة ، فقالت له :

-((هل كان أبوك قزما ايضا ؟)) ٠

أجاب الحاكم محتدا :

- " بل كان رجلا عملاقا كل الكائنات تخشـــى بأسه " ٠

انبعث من جسد الخنفساء البلياتشو ضوء اخضر يبـهر الأبصار ، وأخرجت من بين أجنحتها قنينة صغيرة ، وقـــالت للحاكم : " هذه القنينة مملوءة بهورمون النمو الذي أنتجتـــه المخلوقات البكتيرية ، إن شربت منها أصبحت عملاقا مثـــل

أبيك ومثلي " .

قفز الحاكم القزم من مقعده مادا يده ، لينتزع القنينـــة من الخنفساء ، إلا أنها رفعت زبانييها محذرة ، وقالت لــــه : " لن تشرب قطرة واحدة من هذه القنينة إلا بعد تنفيذ شروطي ، وإعلان ذلك في احتفال عام ، يحضـــره قنـــاصل الـــدول وسفراؤها وممثلون شعبيون من المدينة وطفل مـــن معســـكر الأطفال " .

(٤)

الاحتفال

لم تشهد المدينة منذ سنوات احتفالا فخما مثل ذلـــك الاحتفال ، فلقد خيمت الكآبة عليها منذ أن أصدر الحـــاكم قراره الشهير بإلغاء الأمومة ، وعزل الأطفال في معســـكرات تشبه معسكرات الاعتقال .

حشد الحاكم القزم جميع الإمكانات لجعل الاحتفال لائقا بتلك المناسبة العظيمة ، فاستدعى الطهاة من كل أرجاء العالم ، واستقدم فرق الرقص والفنون الشعبية ، والفرق الموسيقية التي تستخدم حزم الليزر الملونة ، ولاعبي الأكروبات والجودو ، واعد مفاجأة للخنفساء البلياتشو ، بأن حشد جميع الحشرات الموسيقية ، وكون منها أوركسترا من نوع عجيب ، تقوده الجرادة الضاربة على الطبلة •

ضحكت الخنفساء البلياتشو ساخرة من الحاكم القزم الذي كان يهرول من غرفة إلى أخرى ، ويتدحرج على الأرض مثل كرة من المطاط.وكلما قرب موعد الاحتفال زاد في ارتباكه وقلقه ، برغم انه تفقد كل شيء بنفسه عدة مرات ، بدءا من ترتيب المائدة وانتهاء بمكبرات الصوت •

كف الحاكم فجأة عن نشاطه المحموم ، وراح يتأمل ببلاهة زيه البرتقالي الذي يشبه زي المهرجين وحذاءه الأحمر الصقيل ، ومقعده الصغير ، ثم ساءل نفسه : كيف لم انتبه إلى ذلك ؟! هذا الزي لن يلائمني حينما اصبح عملاقا ، وهذا الحذاء لا يصلح إلا لدمية صغيرة ، أما المقعد فلا يسع إلا قردا صغيرا " •

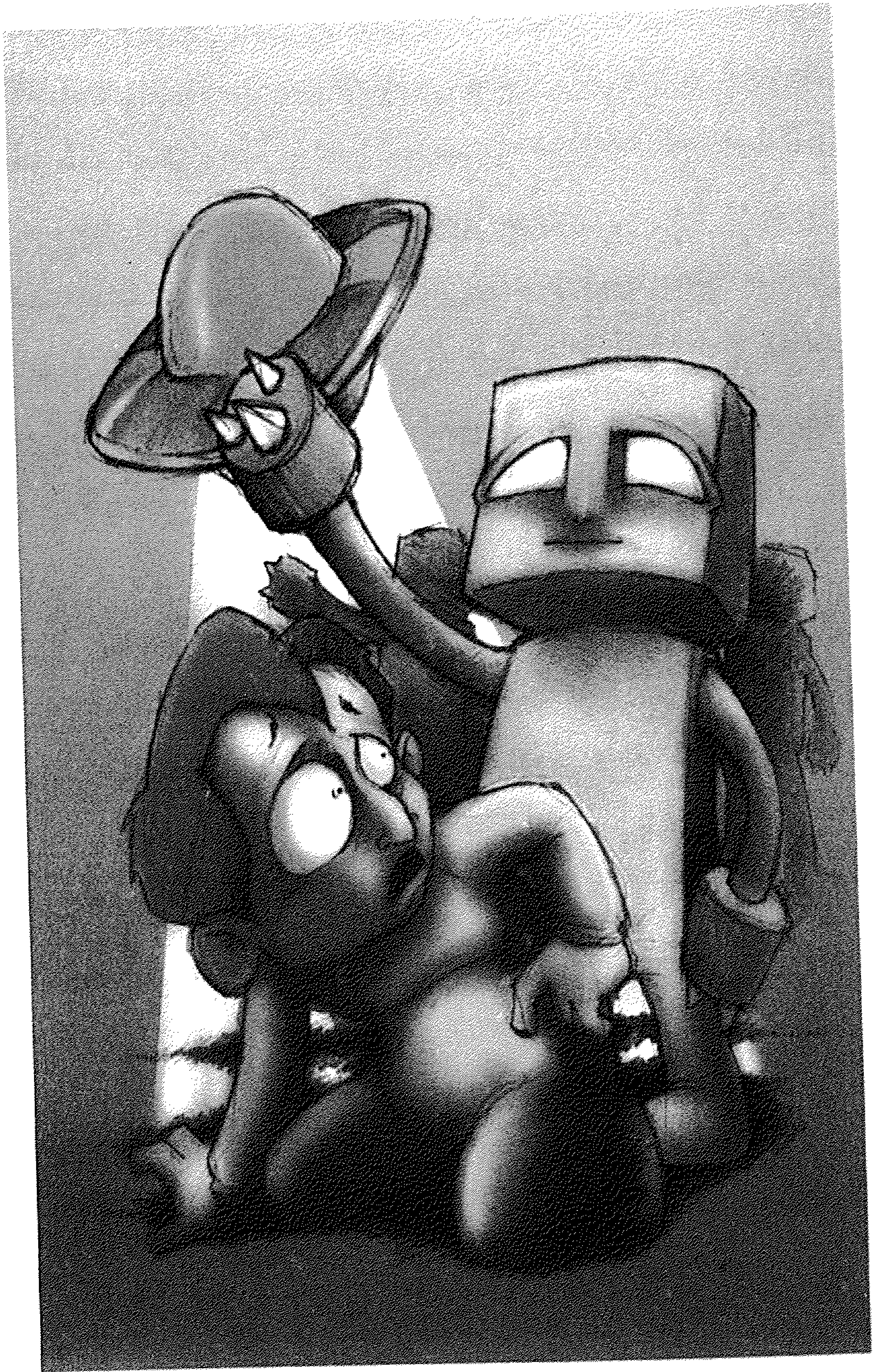
صرخ الحاكم القزم مثل إوزة بح صوتها مستدعيا

الحراس والوزراء والخدم ، لكي يحضروا حائكا يعد له ثوبا ملائما من الفرو .لكنه فوجئ بالخنفساء البلياتشو تمد زبانييها وتشده من ياقته وتقول ضاحكة : " لا تقلق .فلقد كلفت المخلوقات البكتيرية بأن تعد لك زيا حريريا فاخرا. وأعطيتها القياسات الجديدة لجسدك العملاق .أما المقعد فسوف تصنعه لك من حطام شجرة لا " .

صرخ الحاكم القزم حتى خرج الزبد من شدقيه وقال : " لا تجعليهم يقطعون هذه الشجرة ، فلا بد من أن تقول لي نعم ، بجذعها وفروعها وأوراقها ، قبل أن تموت " .

لم تعره الخنفساء البلياتشو اهتماما ، وأمرت العمال بالبدء في تقطيع الشجرة وفرمها ، حتى تعد المخلوقات البكتيرية مقعدا وثيرا من نشارة خشبها .

ضاع صراخ الحاكم القزم وعويله في الضجيج الذي أحدثه المنشار الكهربي ، وبددته تماما أوامر الخنفساء البلياتشو للعمال بأن يتوقفوا عن العمل ، مشيرة الى طفل صغير يحاول الاختباء خلف فروع شجرة لا ، وقالت بصوت يمتلئ غيظا : " اقبضوا على هذا الطفل حيا ، فهو الذي داس على جسدي الضعيف – بدون رحمة – عندما كنت خنفساء صغيرة الحجم ، هذا الطفل هو الذي جعلني أكره بعمق كل



(٥)

الحلم الذي ضاع

اجتاحت قاعة الاحتفالات الكبرى في قصر الحاكم عاصفة من الرعب ، عندما ابلغ الحراس الخنفساء البلياتشو بعجزهم عن القبض على الطفل الصغير الذي نجح في التسلل الى داخل القصر.لطمت الخنفساء البلياتشو الحراس بأجنحتها الضخمة ، ثم تمطت وراحت تخور ، واستحالت الى الخنفساء المدفعية ، وأطلقت عليهم سائلا تحول توا الى بخار ازرق له رائحة منفره. سكب السفراء وقناصل الدول الأجنبية زجاجات كاملة من العطر على ملابسهم ، وبرغم ذلك لم يحتملوا تلك الرائحة ، فلاذوا بالفرار وهم يسعلون سعالا حادا ، وحين أراد احد الصحفيين ان يحظى بسبق صحفي ويصور هذا المشهد النادر ، استحالت الخنفساء البلياتشو الى خنفساء الفقاقيع ، وأطلقت في وجهه سائلا زيتيا اصفر لاذعا

كالحامض من مفاصل أرجلها ، كـــاد يصيبــه بــالعمي ، وانتزعت بزبانييها آلة التصوير وحطمتها .

خشي الحاكم الذي كان يرتعش من الفزع ان يفســد الاحتفال ويضيع حلمه الى الأبد ، فانسل بين المقــاعد حــتى وصل الى المسرح ، وأعطى أوامره لفرقة الحشرات الموســيقية بالبدء في فقرها ، عسى أن تمتــص فــورة الغضــب الــتي استحالت معها الخنفساء البلياتشو إلى خنفساء هرقل الرهيبــة ذات الفك العلوي المشقوق التي يمكنها أن تلتهم أي شيء يمر أمامها ، أشارت الجرادة الضاربة على الطبلة بجناحيها لفرقتها الموسيقية لتبدأ في العزف ، فقام حفار المنازل – وهو مطــرب الفرقة بحك جناحيه معا ، ثم كتم الصوت الناتج من ذلــك ، فبدا كأنه يتكلم من بطنه ، لم تستطع الخنفساء البلياتشــو ان تحتمل تلك الأغنية السخيفة التي زادها حفار الغيط ســـخافة بإضافة نغمته المكتومــة " تشــورب ... تشــورب ... تشورب " ، بينما أرسل النطاط ذو الرأس المخروطي نغمـــة عالية بحك جناحيه على فخديه. أما عازفات الكمان – وهــي صراصير الغيط – فقد زادت الطين بلة بنغمتها العالية " تريت ... تريت ... تريت " ، ثم الأخرى الواطيــه " كــرى ... كرى ... كرى " ، والثالثة المكتومة " جــرو ...

جرو ٠٠٠ جرو ". لملمت الخنفساء البلياتشو جم غضبـــها واستحالت إلى الرعاشة المسماة بإبر الشـــيطان ، فاكتســـى جسدها باللون القرمزي ، وطارت نحو المسرح ، وانقضــت على فرقة الحشرات الموسيقية والتهمتـــها ، حشــرة بعــد الأخرى ، ثم نظرت شذرا نحو جمهور الحاضرين ، وأرســلت من عينيها ومضات صفراء أصابتهم بحالة من النعاس والخمول ، ثم انقضت عليهم وأفرزت على أجسادهم سائلا حارقـــا ، فأفاقوا من غفوهم ، وأسرعوا يقفزون من نوافذ القصر وهـــم يصرخون من الألم ٠

أما الحاكم القزم ، فقد اختبأ تحت أحد المقاعد ، وراح يولول ويلطم خديه ويبكي حلمه الذي ضاع ٠

(٦)

عصفور العواصف

أطلق الأطفال على العصفور الأزرق الذي أخفـــوه في معسكرهم بعيدا عن عيون الحاكم وجواسيســـه – عصفـــور

العواصف .فمنذ أن تعلم التغريد ، وسط طلقات الرصلص وتهديد الجنود ووعيدهم ، وهو لا يبدع في تغريده إلا عندما تتعرض المدينة لكارثة أو محنة أو مأساة .

وقد اعتاد الأطفال أن يرهفوا السمع إلى عصفور العواصف الذي كان يشدو بأنشودة الغضب ليل نهار ، بعدما تسربت إليهم أنباء الاتفاق المخجل - بين الحاكم والخنفساء البلياتشو - الذي بموجبه يصبح لها حق الإشراف الكامل على معسكرات الأطفال ، وإعطاء المخلوقات البكتيرية حق السيادة على البشر والطيور والحيوانات ، وتزويد مستعمراتها بالإمكانيات التكنولوجية الحديثة التي تتيح لها زيادة إنتاجها من اللبن الآدمي ، والبترول، وترفع قدرتها على إنتاج هورمون النمو الذي حقق حلمها فأصبحت كائنات عملاقة .

لم يكن صوت عصفور العواصف يشبه شقشقة العصافير بل جؤار الفيلة ، وصفير النسور .وأزيز المرجل عند الغليان ، وهدير الريح وجلجلة الرعد.وكان أمير يشارك عصفور العواصف شدوه : صوته يشبه -أحيانا - تغريد عصفور الكناريا ، وأحيانا أخرى صوت الشلال الذي يتدفق من شرخ في جبل.والأطفال ينصتون إليهما معا .

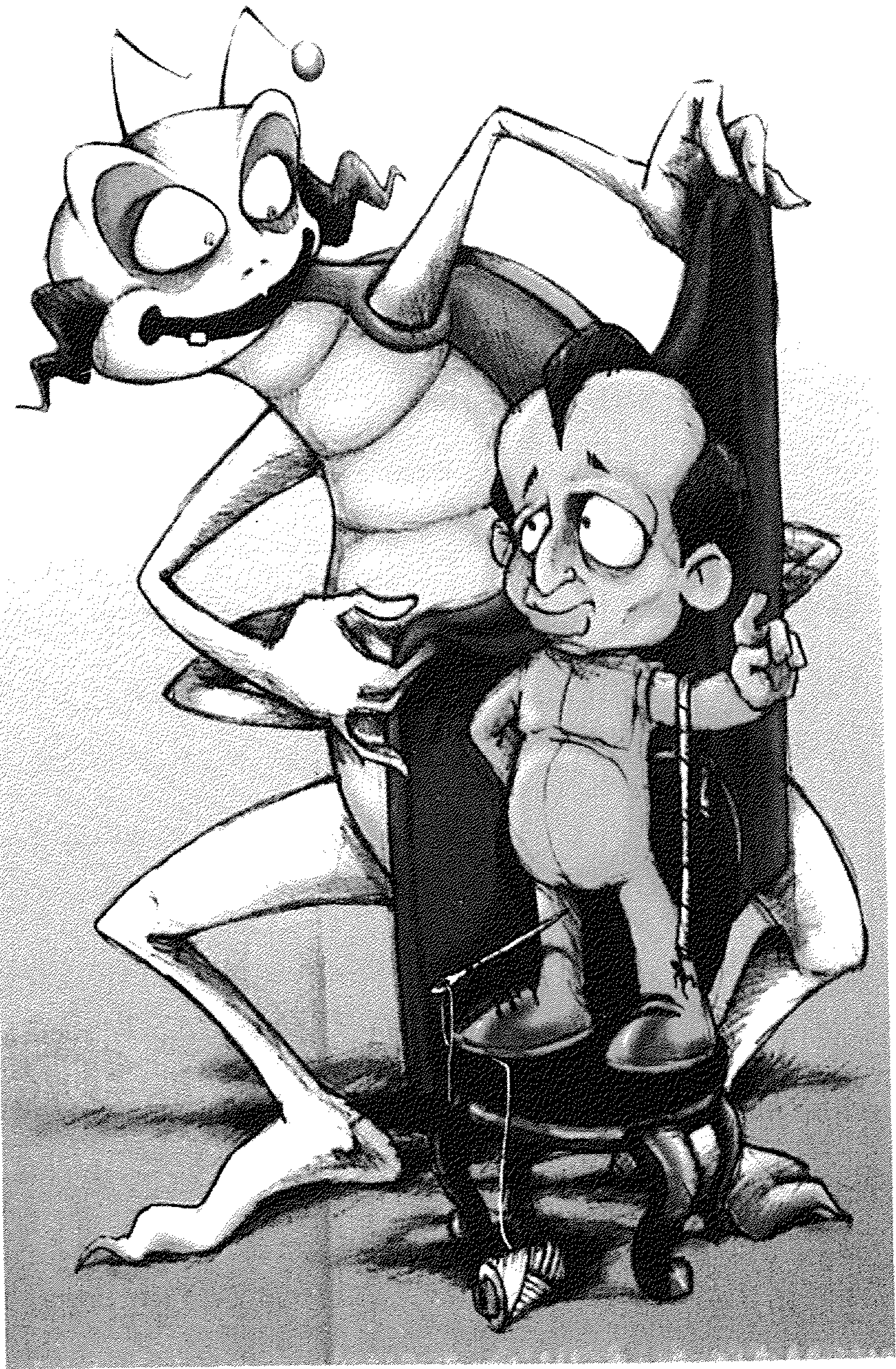
ولما كف كلاهما عن الغناء ، أيقن الأطفال أن مكروها

قد أصابهما ، فمن الممكن أن يكون أمير معتقــــلا في أحــــد السجون ، ومن الممكن – أيضا – أن يكون الحاكم قد أرسل قناصا فظ القلب قام باغتيال العصفور الأزرق ٠

سيطر القلق على الأطفال الذين اعتادوا الاستغراق في أنشودة الغضب كل يوم ، وهم يحلمون بيوم يتحررون فيــه من هذا السجن ، وينامون في أحضان أمــــهاقم مســتمتعين بأغاني الهدهدة والحكايات الخرافية.حتى الأطفال الرضع الذين كانوا يرضعون من أثداء صناعية ملأى بلبن البكتيريا ، كفــوا عن الرضاعة ، عندما توقف العصفور الأزرق وأمــير عــن الغناء.حان موعد الغداء فقرر الأطفال الإضراب عن الطعــام الذي تنتجه مصانع البكتيريا من النفايات ونشارة الخشــب ، والقوا بالأواني والصحون في وجه الحراس الذيــن حــاولوا إجبارهم على تناول الطعام ٠

أسرع الحراس بإخطار قائد المعسكر الذي أمرهم بعدم استخدام العنف ، موضحا أن هؤلاء الأطفــال يرســلون إلى قصر الحاكم كعبيد وخدم حينمــا يكــبرون، وحــاول – بمختلف الوسائل – أن يهدئ ثورة الأطفــال ، وان يمتــص غضبهم ٠

قال أحد الأطفال لقائد المعسكر :



(٧)

الشجرة الأم

فتح أمير كل منافذ القصر لعصافير العواصف الـــتي لم تتراء له بعد ، لكنه سمع هفيف أجنحتها وأنغام شدوها تـــتردد في الفضاء كصوت الشلال.أطل من إحدى النوافذ ، فـــرأى أشجار (لا) تلتف حول القصر كعباءة خضراء .

انتفضت جذوع الأشجار ، وبرزت من خلاياها أثـــداء تتقطر بلبن النبات .

زحفت العصافير الصماء البكماء بلهفـــة ، وراحـــت تعب من الحلمات ، وتتجرع جرعات كبيرة مـــن الحليـــب الطيب المذاق ، حتى شرقت من حلاوته .بســـطت أشـــجار (لا) من أوراقها الخضراء فراشا وثيرا استلقت عليه العصافير التي اعترتها حالة من الخدر الخفيف. وبرغم أن أميرا قد تعلـــم النقش في الحائط ، والرقش في الورق ، والطبع في الشـــمع والطين ، كلما رأى مشهدا يهز كيانه – إلا أن يديه ارتجفتـــا

حين أراد أن يرسم على الجدران هذا المشهد .

لاحت طلائع عصافير العواصف في الأفق. شهق أمـــير من الفرح لرؤية العصافير الكسيحة تنتفض وتنهض فجــأة ، وتحاول تحريك أجنحتها وأرجلها ، لكي تطير .

مسدت أشجار (لا) ريش العصافير المتصلب ، ورفعتها بفروعها وحثتها على الرفيف ، ثم أطلقتها عاليـــــا. هللــت أشجار (لا) للعصافير التي استطاعت أن تطير.

أما العصافير التي لم تحتمل تجربة الطـــيران وســقطت محبطة ، فلن تدعها أشجار لا تستسلم لليأس.ورفعتـــها مـــرة أخرى ، حلقت كل العصافير وشكلت كلمة (لا) وراحـــت تجرب مناقيرها وحناجرها ، حتى استطاعت أن تشارك عصافير العواصف في إنشاد أنشودة الغضب .

انقضت العصافير على القصر ، وطاردت الحاكم الذي كان يمشي متبخترا في دهليز رخامي وقد امســـك بـــأوراق الاتفاقية وزجاجة حبر متجها نحو غرفته الحصينــــة ، ليلتقـــي الخنفساء البلياتشو ، ويحقق حلمه ، هاجمت العصافير الحـــاكم ومزقت أوراق الاتفاقية بمناقيرها ، وسكبت زجاجة الحبر على ملابسه البرتقالية ، ولم تأبه لطلقـــات الرصـــاص وهـــراوات الحراس التي انهالت عليها .

خرجت الخنفساء البلياتشو من الغرفــة الحصينــة ، فتساقط على جسدها الريش المخضب بالدم ، ونظرت شـذرا إلى أمير الذي كان ممسكا بعصفور يحاول تضميد جراحـــه ، فحدق أمير في وجهها متحديا .لم تطق الخنفســـاء البلياتشـــو نظراته ، وأطلقت نحو عينيه سائلها الزيتي الأصفر ، فســـقط مغشيا عليه .

(٨)

قطرات المطر الحمراء

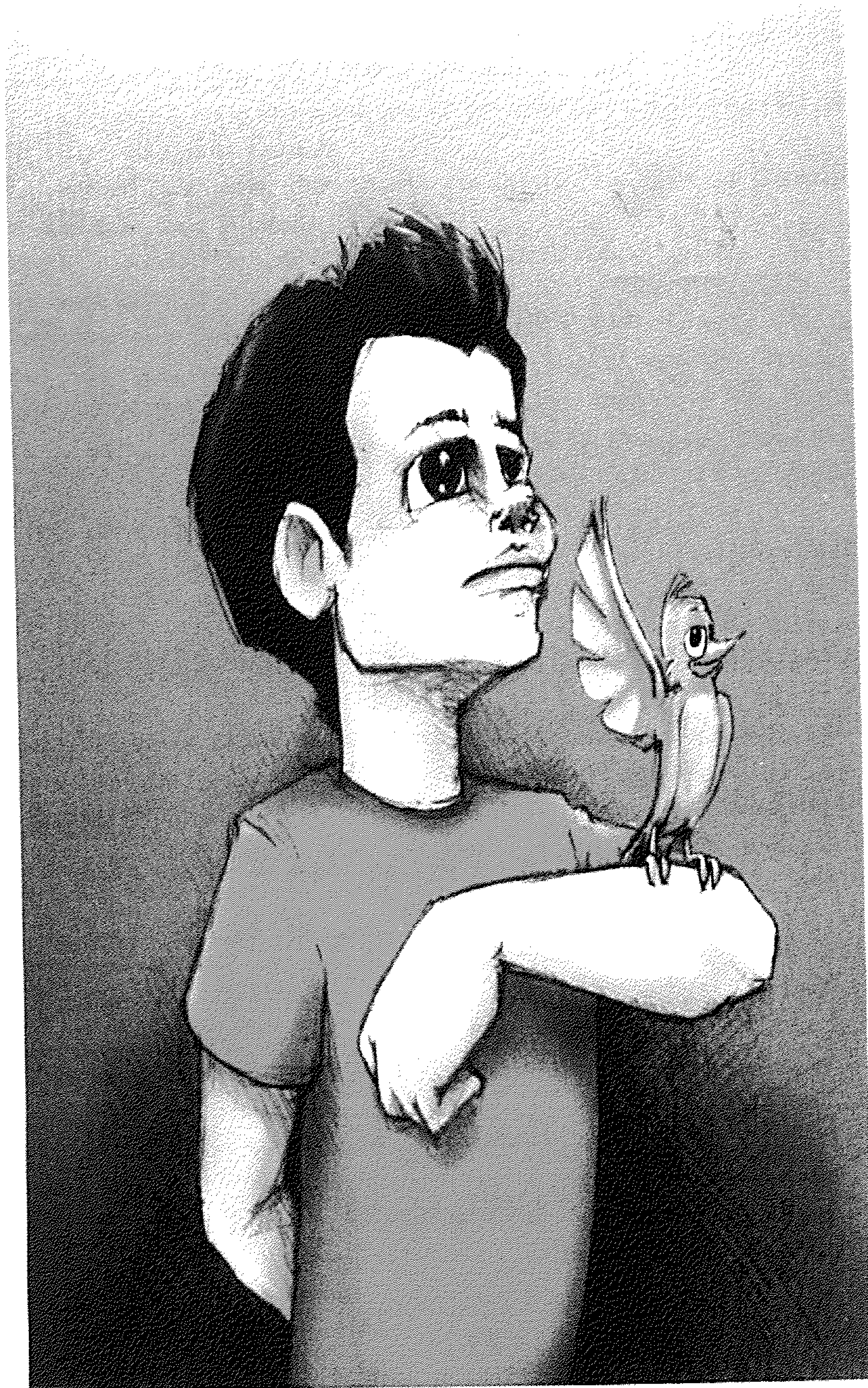
اكتست السماء فوق معسكر الأطفال بلـــون الـــدم الأحمر القاني حيث امتلأت بمئات من عصافـــير العواصــف الجريحة التي انثال دمها على وجوه الأطفال الملتفـــين حـــول الأسلاك الشائكة .

كان الأطفال ينتظرون بلهفة عودة امير مـــن قصـــر الحاكم وقد اخذوا يتحرشون بالحراس غير مبالين ببنادقـــهم المصوبة نحو صدورهم ، بينما كانت أشجار لا المنتشرة حـــول

المعسكر وداخله تشد من أذرهم وتحثهم على الصمود ٠

سقطت بعض العصافير الجريحة علـــى أشـــجار (لا) فاحتضنتها بفروعها وقطرت من أثدائها عليها لبنا دافئا لتـــبرأ من جراحها وانهمرت بعض العصافير الأخرى مثل قطـــرات مطر حمراء على صـــدور الأطفـــال وأكتفـــاهم ورؤوســـهم فاغرورقت عيونهم وانخرطوا في نشيج مكتوم. تأفف الجنـــود المدججون بالسلاح من قطرات الدم التي علقت بملابســـهم فازدراهم الأطفال وشرعوا يحفرون الأرض بأياديهم الصغـــيرة حتى تهشمت أظافرهم. اعدوا قبرا جماعيا لشهداء الثورة مـــن العصافير ٠

تعلقت عيون الأطفال بالسماء وقـــد انبعثـــت منـــها صرخات حادة تصم الآذان ومن كبد السماء خرج طـــائر ارقط رأسه حمراء عارية من الريش وله منقاران مدببان يبلـــغ طول الواحد منها نحو المترين وأربعة أجنحة لا يقـــل اتســـاع الزوج الواحد منها عن ثلاثة أمتار. انقض الطائر الأرقط على العصافير الجريحة التي كانت تترنح في الفضـــاء ووضعـــها في منقارية ومرر على جروحها لعابه الذي كان له مفعول السحر في علاجها ، تصور الأطفال الملتاعون أن الطائر الأرقط التهم العصافير وانتابت أحد الأطفال رعدة تشبه رعدة الحمـــى



وصرخ في وجه رفاقه الذين فغروا أفواههم مـــن الدهشـــة وجرى نحو إحدى أشجار (لا) واخرج صررا من تجويف بهـــا كانت الصرر تحوي أسلحة الحرب من حجارة ومقـاليع ، وفي غضون دقائق قليلة كان كل طفل قد تسلح بمقلاع وحفنة من الأحجار .

تلألأت السماء بالحجارة البيض التي كانت تلمـــع في وجه الشمس والحجارة التي أطلق عليها الأطفال اسم بصـاق القمر وحجارة المرو والبلور والمرمر وكلها التهمـــها الطـائر العملاق بنهم في لمح البصر وانقض على الصرر وازدرد مـــا بقى فيها من حجارة من دون أن يمس أي طفـــل بســـوء ثم التفت الى الأطفال بامتنان وأطلق العصافـــير مـــن منقاريـــه فرفرفت حولهم وقد برئت من جراحها .

وبمزيج من الإعجاب والدهشة هلل الأطفال للطـــائر الأرقط الذي طار نحو الحراس فالقوا ببنادقهم فزعـــا ولاذوا بالفرار لكن الأطفال لم يغفـــروا للطـائر الأرقـط التهامـه لحجارتهم.

وعند بوابة المعسكر الرئيسية فوجئ الأطفال بسـلحفاة مدرعة عملاقة لها قبعة من العظم على قمة رأسها ، وذنـــب ثقيل مزود بأشواك ضخمة وتطلق من عينيها ومضات تشـــبه

البرق.طوحت سلحفاة البرق ذنبها الضخم بشدة الى اليمين واليسار مثل صولجان الحرب فأطاحت بالحراس المتجمهرين عند بوابة المعسكر.أما الحراس الآخرون الذين افلتوا من هذا المصير فقد سقطوا مغشيا عليهم عندما ظهرت أمامهم آلاف من الحيات تشبه عمدانا سميكة من الفضة تخرج من ثقوب بالأرض وتلتحم معا لتشكل جبلا شاهقا بسد عليهم الطريق.

(٩)

المساومة

أفاق أمير من غفوته فاذا به يجلس الى مائدة فخمة زخرفت حواشيها بماء الذهب يتوسطها غزال مشوي وضع على صحن بيضاوي من الفضة تحيط به ثمار الرمان والتفاح والتين والسفرجل ولأنه كان بين النائم واليقظان فقد اعتبر ما يراه مجرد حلم من أحلام الجوعى وهو لم ير لحوما او فواكه طبيعية منذ سنوات ، فالحاكم القزم لم يشأ أن يضيع وقته مع

النبات أو يرهق شعبه بمتـاعب الحـرث والبـذر والـري والتسميد والحصاد – حسب ادعائه – مـبررا ذلـك بأنـه يستطيع عن طريق خبرائه تفكيك النباتات إلى خلايا منفردة ، ونقلها للبكتيريا التي تقوم بإنتاج محصول وفير مـن أنـواع النباتات كافة في وقت قصير ومن دون الحـادة إلى أرض أو شمس أو هواء ، وهذه الطريقة كانت تدر عليها ربحا طـائلا خاصة انه كان يحتكر بيعها وتوزيعها وتصنيعها وتصديرها، أما المنتجات الأخرى التي ابتدعتها المخلوقات البكتيرية كـاللحوم المصنوعة من النفايات البشرية – وهـي لا تـزال في طـور التجارب – فقد كان يرسل بها ا

ألى معسكر الأطفال لاختبار ردود أفعالها على الصحـة الآدمية قبل المجازفة بتصديرها للخارج .

رأى أمير الخنفساء البلياتشو تحرك زبانييها بانفعـال ، وهي تتحدث إلى الحاكم القزم عن الاتفاقية وعـن الطـائر الأرقط وسلحفاة البرق اللذين خالفا التعليمات وانضمـا الى معسكر الثائرين وعن مخاوفها من نشوب ثورة الأطفال الثانيـة التي من الممكن أن تطيح به مثلما أطاحت ثـورة المسـاخيط الأولى بأبيه .

بدا صوت الخنفساء البلياتشو كأنه زمجرة ذئاب تنهش

في جسد غزال محتضر واعترت أمير حاله من الغثيان حتى كاد يفرغ ما بجوفه وسعل سعالا حادا فتوقفت الخنفساء البلياتشو عن حديثها مع الحاكم القزم والتفتت إليه قائلة :

– " لقد اعددنا لك طعاما شهيا تكريما لشجاعتك في القتال ضدنا بغض النظر عن الخصومة التي بيننا ... فنحن نوقر الأطفال الشجعان ونحترمهم ".وذيّل الحاكم القزم كلامها ساخرا :

– " من حقك أن تستمتع بهذه الأصناف النادرة من الطعام بعد المعركة الشرسة التي خضت غمارها ضدنا ".

التقط الحاكم القزم تفاحة وقضم منها قطعة كبيرة وازدردها بنهم وهو يرمق وجه أمير ويتفحص ملامحه .

أحس أمير – من شدة الجوع – بأن حلقه مرا كأن أحدا عصر فيه ثمر صبار فشرب جرعة من الماء حتى لا يقهره الشعور بالجوع ثم أطلق زفيرا عميقا وقال للحاكم القزم بازدراء :

" لن أستطيع أن آكل هذه الأصناف الفاخرة فلقد اعتدت – أيها الحاكم على مذاق الطعام الغث الذي ترسل به إلى معسكر الأطفال " .

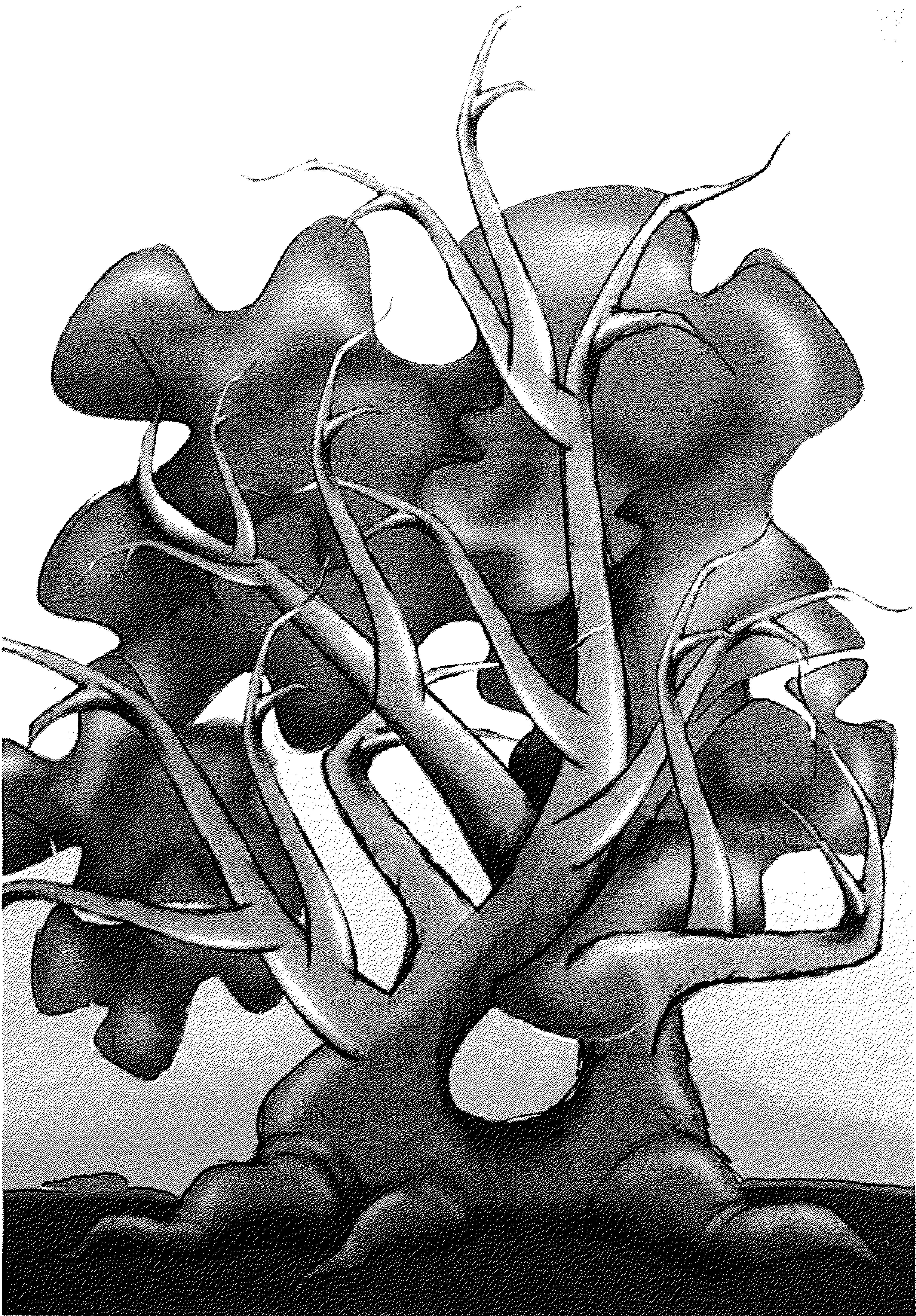
مدت الخنفساء البلياتشو زبانييها والتقطت ثمرة تِين وضعتها عنوه في فم أمير الذي بصقها في وجهها فاهتز جسدها غضبا وقبل أن تلطمه بجناحيها تمالكت نفسها وقالت بصوت يشبه خوار البقر : " لا تكن مكابرا لقد سمعت قرقرة أمعائك وزمجرة جوفك ... فأنت تكاد تهلك من الجوع لابد أن تنتهي من هذا الأمر بسرعة لأنني أريد أن أناقش معك بعض الأمور التي تهم المدينة " .

أخرج الحاكم من خزانة المستندات أوراق الاتفاقية التي استنسخت من جديد وفحصها – بعناية – ثم ذيلها بتوقيعه وغمست الخنفساء البلياتشو زبانييها في زجاجة الحبر وحذت حذوه ، بينما هرول الحاكم ليحضر منشفة نظف بها قطرات الحبر التي علقت بزباني الخنفساء ثم اقترب من أمير وهو يحمل أوراق الاتفاقية وريشة من الذهب قدمها إليه قائلا " سوف أعينك وزيرا ، وسأخصص لك قصرا تعيش فيه مع أمك وأبيك ، وسوف أعطيك قنينة من هورمون النمو لئلا تعود قزما مثل بقية الأطفال ولكن شريطة أن توقع الاتفاقية كشاهد على هذا الحدث التاريخي الجلل ". اغرورقت عينا أمير حين تذكر أبويه اللذين كانا يهربان من مستعمرات البكتريا ليرياه في المعسكر كل شهر أو شهرين من خلف

الأسلاك الشائكة. واستعاد بأسى مشهدا كان يتكرر في كل مرة حينما يحاول أبواه تقبيله أو تحسس جسده فتدمي الأسلاك وجهيهما وأصابعهما وتملكه الكمد، فتناول الريشة الذهبية من يد الحاكم وغرسها مباشرة في بطن الغزال المشوي، فتناثرت بقع الحبر على المائدة وانتفض واقفا ، وهو يقول بغضب " لا ... لن أوقع هذه الاتفاقية ... لابد أن يعود الآباء والأمهات من البشر والطيور والحيوانات لأبنائهم ويعيشوا في بيت واحد. لن يصبح أي طفل ينعم بحنان أبويه قزما ".وأضاف أمير وهو يشير الى الخنفساء البلياتشو :

"لن نسمح لهذه المخلوقات وللمخلوقات البكتيرية بأن تسيطر على مصير مدينتنا " .

اهتاجت الخنفساء البلياتشو ، وأصدرت هديرا مخيفا، ورفعت أمير بزبانييها وقالت له حانقة: " المخلوقات البكتيرية هم سادة الأرض ... وانتم – أيها البشر – ستصبحون عبيدا لها " ، ثم فتحت باب الغرفة الحصينة ، وألقت به الى الحراس آمرة إياهم بإيداعه الغرفة السرية مع الأطفال المساخيط ، حتى يلتهموه حيا .



(١٠)

الطيور تحتل القصر

مشى الحاكم في أروقة القصر متبخترا متغطرسا يـــهتز بدنه من الجذل والابتهاج بعد أن شـــرب هورمـــون النمـــو وأضحى عملاقا تكاد تتزلزل الأرض تحت قدميه. وتمنى لـــو يستطيع أن يتجول في معسكر الأطفال عاريا كما ولدته أمـــه فيراه الأطفال المشاكسون الذين يطلقون عليه سخرية "رجـــلا خزنبل" لأنه مفرط في القصر. وقف أمام مرآة كبيرة ، ولطـــم صدره بكلتا يديه كالغوريلا الترقة، لكنه أصيب بالإخفاق فقد أحبطه مشهد رأسه الأصلع وحاجبه الأمرط وذقنه الأمـــرد ؟ فقرر أن يلجأ إلى الخنفساء البلياتشو علها تجـــد لـــه لـــدى المخلوقات البكتيرية دواء يعيد إليه شعره المفقود.فجأة وجـــد نفسه يلتفت كالممسوس حين ظهر في المرآة سرب الغربـــان

السود أخذت تلتف حوله وتكـــثر مـــن نعيبـــها ونعيقـــها وصياحها كأنها تواجه صقرا كبيرا أو بومة أو ثعلبا انقضـــت الغربان على رأس الحاكم القزم الأصلع بمناقيرها ومخالبها حتى صرخ من الألم وضرب المرآة بقبضة يده فتحطمت وتنـــاثرت شظاياها على الأرض الرخامية. قعد الحاكم القرفصاء والتقت قطعة من الزجاج المكسور ، وظل يطعـــن الغربـــان الـــتي استوطنت رأسه حتى ادمي بعضها وصرع البعض الآخـــر ثم جرى وهو يرتعد نحو دهليز طويل يفضي إلى سلم حلزوني إلى أن تجمدت قدماه. وقف متصلبا يحملق بذهـــول في أســـراب الطيور التي احتلت الدهليز وهي تحمل في مناقيرها وأقدامـــها أحجار المرو والمرمر وبصاق القمر ، والأزهار ، والأصداف ، والحصي ، وأوراق الشجر ، وقطع الإسفنج التي اقتلعتها مـــن الوسائد ، وراعه أن يراها تبني أعشاشها في الجدران وفـــوق الأرائك وتنشئ الأرصفة ، والأنفاق والجسور لتيسر ســـبل الاتصال بينها •

دومت أسراب من عصافير الطنان حول الحاكم القـزم الذي لم يستطع أن يحتمل طنين أجنحتها برغم من انـــه ســـد أذنيه بقدميه. تعثرت قدماه وترنح إلى نهاية الدهلـــيز حـــتى تدحرج على السلم الحلزوني ليسقط مثل كرة رخـــوة مـــن

الدهن ، نهض متثاقلا وهو يشعر بأن ضلوعه قد تهشمت وبأن رأسه قد شج ، وأخذ يخور كبقرة تتهيأ للنحر ويهذي كالمعتوه : " الاحتلال ... الغزو ... الخيانة ... المؤامرة ... أين الحراس ... الوزراء ، أين الخدم والعبيد ؟ احتلت الطيور القصر " .

كاد الحاكم القزم يموت كمدا وهو يرى أميرا ممتطيا سلحفاة البرق يتبعه جيش من أطفال المعسكر مسلحين بالمقاليع والأطفال المساخيط الذين اعتقل معهم أمير في الغرفة السرية والذين ادعى كذبا انهم أتوا من الكواكب الأخرى وأطاحوا بحكم أبيه تقدم الأطفال يحملون الهراوات التي انتزعوها من الحراس ويطلقون من حناجرهم سيلا من الهمهمات الغاضبة تحميهم مظلة جوية من الغربان الصقور والنسور والنوارس وعصافير العواصف ، بقيادة الطائر الأرقط ومن دون أن يعترض طريقهم أحد غادر الجميع قصر الحاكم القزم .

(١١)

المعركة

ما إن غادر الأطفال القصر ، حتى فوجئـوا بوحـش عملاق له ستة قرون يعترض طريقهم ويحدث صوتـا يشـبه صوت الرعد ، تصدت سلحفاة البرق لوحش الرعد واختبـأ الأطفال خلفها وهم يرتجفون من الرعب .

دارت بين وحش الرعد وسلحفاة البرق معركة ضارية استخدم فيها كل منهما أسلحته التقليدية فأشهر وحش الرعد قرونه الستة وكشر عن نابيه المقوسين المدببين اللذين يـبرزان الى اسفل من جانبي فكه العلوي ولجأت سلحفاة الـبرق الى قبعة العظم التي تعلو قمة رأسها تارة وتارة أخرى الى أشواكها الضخمة التي تبرز من طرفها كسيوف مبرزة. حملت سـلحفاة البرق على وحش الرعد حملتها الأخيرة فلطمته بذنبها الثقيـل حتى طرحته أرضا. احدث سقوطه حفرة عميقة علـى قـدر ضخامة جسده ، وقفت سلحفاة البرق على حافة الحفرة ترنوا

بأسى إلى وحش الرعد الذي كان يوشك على الاحتضـــار وانخرطت في نوبة من النشيج فاهتزت قبعة العظم حتى خيـــل الى الأطفال أنها سوف تنفصل عن رأسها .

قال لها أمير بدهشة :

- " لم تبكين ؟ " .وردت سلحفاة البرق بصـــوت متحشرج :

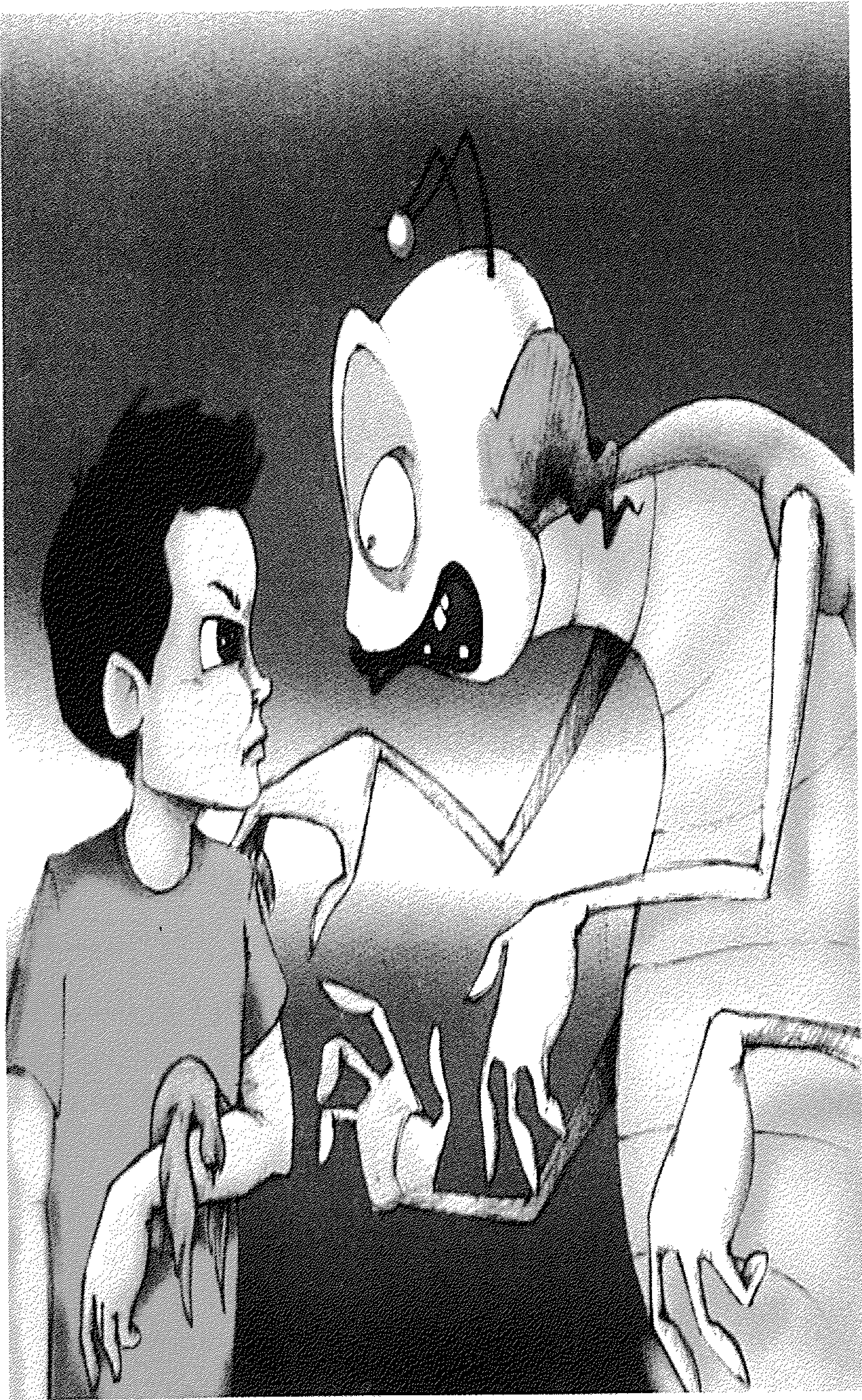
لقد كان خرتيتا مسالما ... لا ذنب له فيما حدث . إنه مجرد ضحية من ضحايا الحاكم القزم والخنفساء البلياتشو، فقد أحالاه إلى مسخ يثير الرياء والسخرية عن طريق جرعـــة زائدة من هورمون النمو. وأضافت سلحفاة البرق وهي تشـــير الى الأطفال المساخيط : " وهؤلاء الأطفال المسالمون الوادعون مثل الملائكة هم أيضا من ضحايا هورمون النمو " .

تناهى إلى سمع الأطفال الزئير الغـــاضب للخنفســـاء البلياتشو التي كانت تهرول نحوهم وتطلق سيلا دافقـــا مـــن سائلها الزيتي الأصفر وسائلها الحارق. فغر الأطفال أفواهـــهم من الدهشة عندما تقدم الأطفال الملائكـــة نحـــو الخنفســـاء وانقضوا عليها يضربونها بأيديهم التي تشبه أظلاف الثـــيران ، بينما يتناثر الزبد من أشداقهم على جسدها العمـــلاق غـــير مبالين بأجنحتها او درعها الصلب او زبانييها اللذين أشهرتهما

في وجوههم .

نظم أمير صفوف رفاقه وجهزوا مقاليعهم وأطلقوا وابلا من الحجارة المدببة على رأس الخنفساء البلياتشو التي استشاطت غضبا فأطاحت بالأطفال المتشبثين بجسدها وهرولت نحو القصر لتخرج بعد لحظات يصحبها جيش من الوحوش الخرافية التي تشبه الماموث والنمر السيفي الناب ، متجهة نحو الأطفال الذين تجمدت أقدامهم من الهلع وسدوا آذانهم بأياديهم ، حتى لا يسمعوا الزئير والهدير والجؤار والخوار الذي أطلقته تلك الوحوش. وبعقب الوحوش الخرافية ، خرجت من القصر كائنات صفراء بلون الكركم تقطع مسافات كبيرة بوثبات سريعة وبمجهود بسيط كأن بعضها مكعب الشكل له رأس مربع وأقدام تشبه خيوط العنكبوت ، لكنها صلبة للغاية ، والبعض الآخر أسطواني الشكل ذو رأس مستدير وأقدام تشبه عناقيد العنب .

صرخت سلحفاة البرق في وجوه الأطفال ليفيقوا من ذهولهم ، وأشارت عليهم بضرورة الانسحاب لكيلا يتعرضوا للهلاك. انحدرت دمعتان من مقلتي أمير وهو يقود عملية الانسحاب في الوقت الذي تتصدى فيه سلحفاة البرق بمفردها لجيش الوحوش الخرافية الذي تدعمه طلائع المخلوقات



البكتيرية والحاكم العملاق يجري نحو الخنفساء البلياتشو مذعورا مطاردا من الطائر الأرقط الذي ينقر رأسه الأصلع بمنقارية الحادين ويلطمه بأجنحته الأربعة ثم يتركه مضطرا ليساند سلحفاة البرق في معركته الشرسة مع الوحوش الخرافية .

(١٢)

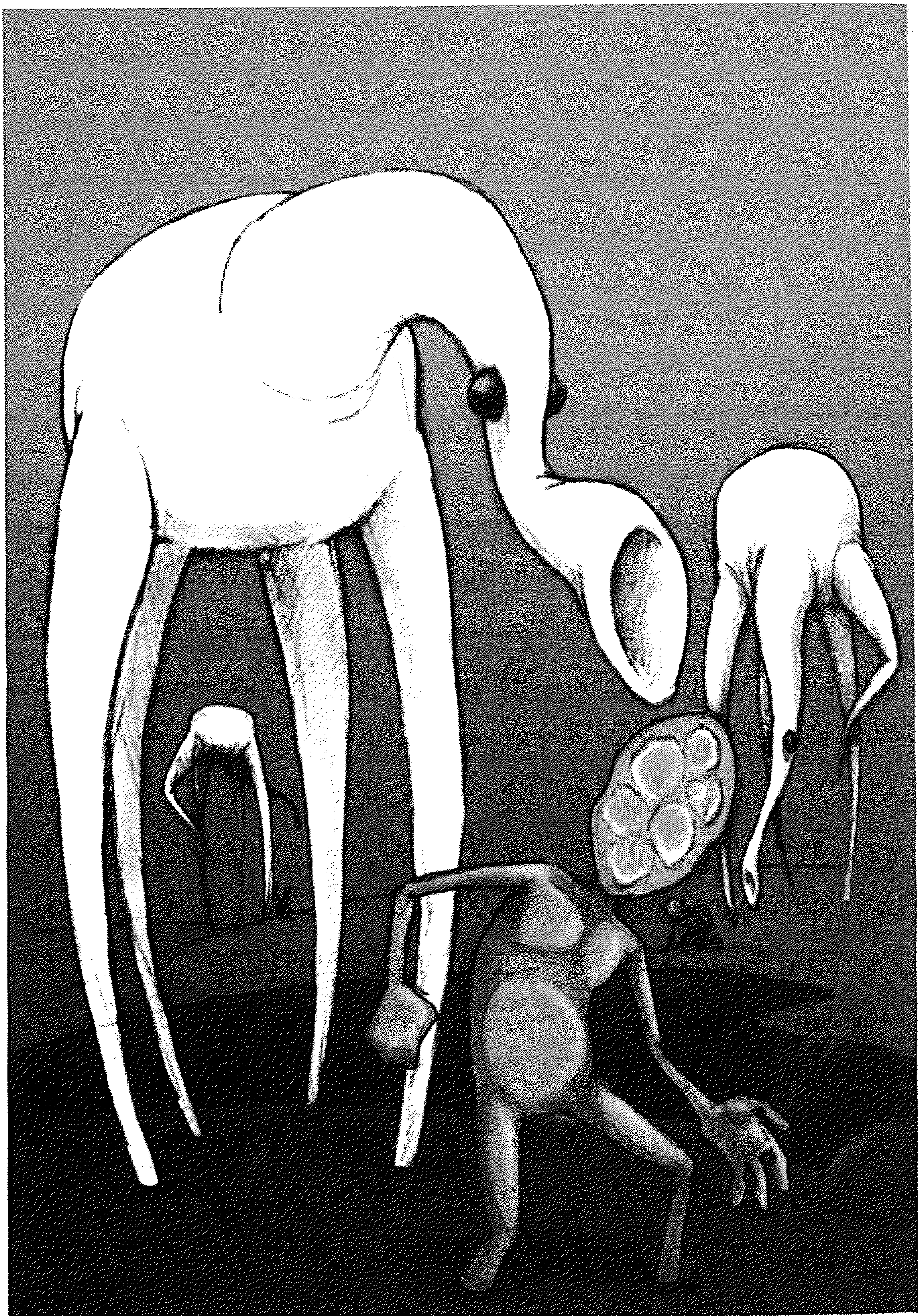
الثورة

لأول مرة منذ أن ولدوا – يصبح الأطفال سادة أنفسهم – فهم يلعبون الآن كما يشاءون ويجوبون المعسكر من دون أن يردعهم حارس ، أو يصرخ في وجوههم أحد المشرفين القساة القلوب.لقد صنعت لهم عصافير العواصف أراجيح معلقة بين أشجار "لا" ، وحشيات رخوة ووسائد

والأطفال الرضع الذين التفوا حول أشجار "لا" يرضعون من أثدائها.ولم تكتف العصافير بذلك بل إنها ساعدت أميرا في صنع تمثالين من الصلصال للطائر الأرقط وسلحفاة البرق اللذين استشهدا في ساحة المعركة وهما يزودان عن الأطفال ويؤمنان انسحابهم ، ووضعت العصافير التمثالين فوق قمة جبل الحيات الفضة الرابض أمام المعسكر حتى تراهما كل المخلوقات الحية في المدينة .

أضحى معسكر الأطفال من اغرب المعسكرات التي عرفها التاريخ، فهو يضم إلى جانب الأطفال وعصافير العواصف فيلة وغزلانا وزرافات واسودا ونمورا وأحصنة وصقورا ونسورا ونوارس وحماما ومخلوقات أخرى متنوعة، وقد وحدهم جميعا موقف واحد هو تحرير المدينة من سيطرة المخلوقات البكتيرية والخنفساء البلياتشو وعزل الحاكم القزم وإلغاء القرارات التي عزلت الأطفال من مختلفة المخلوقات الحية عن آبائهم وأمهاقم ، وإيلاء سدة الحكم مجلسا ثوريا من الأطفال يتم انتخابه بالاختيار الحر.

دار العصفور الأزرق على جميع المخلوقات في المعسكر وابلغهم بضرورة عقد اجتماع فوري لبحث السبل الكفيلة بتأمين الغذاء، وحماية المعسكر من الهجوم المرتقب من



المخلوقات البكتيرية والوحوش الخرافية، وتلقي وعدا من الطيور والحيوانات آكلة اللحوم بألا يضطرها الجوع إلى التهام الحيوانات والطيور الأخرى آكلة الأعشاب، وبأن تتنازل مؤقتا عن طبيعتها وتصبح كائنات نباتية. واختارت الحيوانات الفيل ممثلا عنها واختارت الطيور العصفور الأزرق، أما الأطفال فقد استقروا جميعا على اختيار امير، وتقرر أن يكون الاجتماع في الساحة الكبرى .

بدأ الاجتماع بكلمة تحدث فيها أمير عن ضرورة إلغاء الدستور الحالي ، ووضع دستور جديد يضمن كل الحقوق والحريات لكل المخلوقات الحية, وفي نهايتها فوجئ المجتمعون بأشجار لا تلتف بكليتها ، فروعها تطقطق ، وجذوعها تنحني ، وعلى مرمى البصر ، كانت جموع هائلة من البشر تهرول نحو المعسكر ، وقد ضمت جنودا وخدما وعبيدا وطهاة ونجارين وحدادين وبنائين ونساجين وأناسا آخرين من مختلف المهن. واستبان الجميع صررا وأجولة وعصيا وأسلحة أخرى متنوعة يحملها القادمون وهم يلوحون بأيديهم لأبنائهم وترامت إلى الأسماع أنشودة الغضب بأصوات تخنق بالبكاء ، بينما العيون تنظر بأسى إلى تمثالي الشهيدين الرابضين على جبل الحيات الفضة.ركضت الأمهات حتى تجاوزن الجموع

الزاحفة وعدون باتجاه أبنائهن الذين كانوا يمصون أثداء شجرة "لا" . مزقت الأمهات ثيابهن وقد تفجرت الأثداء بالحليب ، فتدفق كنهر يروي الجذوع والفروع ووجوه الأطفال الذين حبوا نحو صدور الأمهات ، وتشبثوا بالحلمات، وراحوا يعبون بنهم من اللبن الدافئ وهم يبكون ويصرخون ويضحكون في آن واحد !

(١٣)

المطر الأسود

عثر كل الأطفال في المعسكر على آبائهم وأمهاتهم عدا أمير والأطفال الملائكة .

انحدرت دمعتان من مقلتي أمير لما رأى الأمهات يهزهزن أطفالهن، وينشدن لهم أغنيات الهدهدة ، ويداعبن أشجار (لا) التي رقصت فروعها ، وتمايلت جذوعها مع إيقاع الأغنيات العذب.ولشد ما اندهش لرؤية الأطفال

الملائكة الذين لم يعثروا مثله على آبائهم وأمـــهاهم وســـط الجمع يشاركون الأمهات عنــــاءهن ، ويلتفــون حولهـــن ، ويرقصون. في البدء انطلق شدو ا

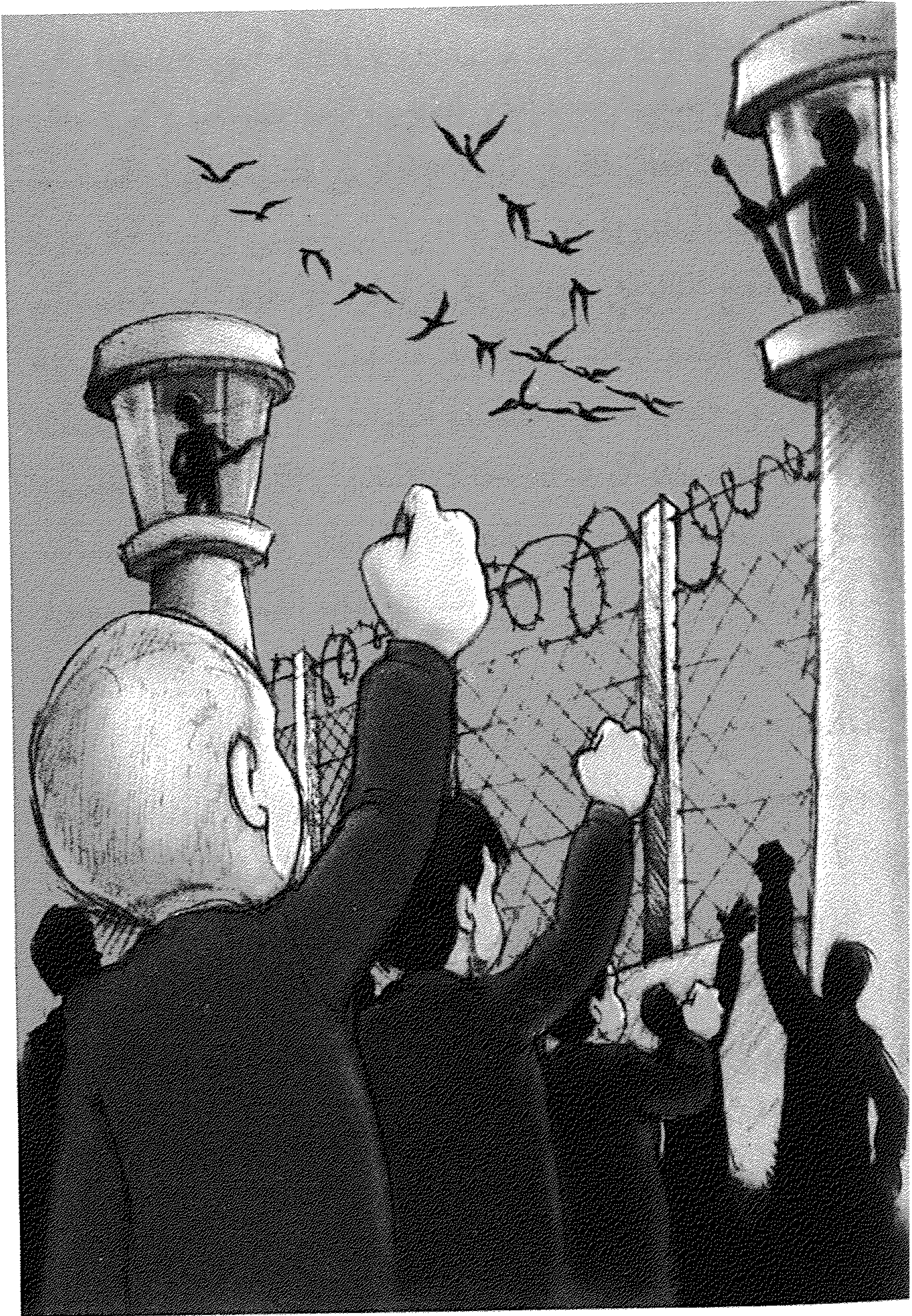
أمير همهمة فهمسا ، حتى أضحى كصهيل الأحصنـــــة وهي تركض في مياه الشلال المتدفقة من الجبـــل ، ثم اختنـــق صوته بالدموع وانخرط في النحيب والصـــراخ والصيـــاح ، التف الأطفال الملائكة حول أمير، وراحوا يربتون على خديـــه ويمسدون شعره ويقبلون جبهته ويرجونه بالإيماءات والصيـــح المبحوح أن يكف عن البكاء .

أصدرت الريح أنينا مكتوما ، وتشكلت فروع أشجار "لا" على هيئة اكف متضرعة إلى السماء ، وتدفق الحليب من أثدائها ، فحملته الريح إلى الذرا من فوق جبل الحيات الفضة، ومن حليب أشجار (لا) ، تشكلت ســـحابات بيضـــاء لهـــا أجنحة زرقاء ، ووجوه بشوشة كوجوه الغزلان.حمـــل طفـــل ملائكي أميرا على كتفية وقذفه لأعلى.ضحك أمـــير كمـــهر وليد ، حين التقطته سحابة بيضاء ورفرفت به فوق أشــــجار (لا) التي نثرت عليهما عصارها وأوراقها المخملية الخضراء .

زمجرت الريح وأصدرت صفيرا يشبه صفير الإنــــذار وارتجت أشجار (لا) واحدث ارتجاجها صوتا يشبه صلصلـــة

السيوف، فوضعت السحابة البيضاء أميرا على إحدى أشجار "لا" بيدها المرتجفتين. لمح أمير غبارا كثيف الاصفرار يتصاعد من خلف جبل الحيات الفضة، تدفعه رياح هوجاء نحو المعسكر، فانقبض صدره وارتعدت السماء وجلجلت واسودت وجوه السحابات البيضاء من الغضب وطارت نحو الغبار الأصفر تتصدى للمخلوقات البكتيرية التي كانت تشق طرقها إلى الثائرين بوثبات متلاحقة .

قفز أمير من فوق الشجرة وفي خارج المعسكر شاهد آلاف المناقير والمخالب والحوافر والأكفّ والأقدام والأظافر والأظلاف تحفر خندقا عميقا حول المعسكر لتصد زحف المخلوقات البكتيرية، فحذا أمير حذوها وشاركها في الحفر حتى نزفت يداه دما.وعلى حافة الخندق وقف أمير مندهشا لمنظر السحابات السوداء وهي تهاجم المخلوقات البكتيرية وتنقر رؤوسها المربعة وتلطم أجسادها المكعبة بأجنحتها ، تملك اليأس أمير من جراء ما رأى. كانت السحابات السوداء كلما قتلت مخلوقا بكتيريا خرج من جسده مخلوقا آخر يشبهه تمام الشبه يستكمل زحفه نحو المعسكر، لكن السحابات السوداء لم تيأس ولقد رفرفت نحو الخندق ، وشرعت تسكب مطرا اسود من القطران الساخن. عبرت المخلوقات البكتيرية



خندق القطران بلا مبالاة ومن دون أن يمسها ضرر، ثم انتظمت في صف واحد أمام الطيور والحيوانات والرجال والنساء والأطفال الذين كانوا متحفزين لقتلها. خرج قائد المخلوقات البكتيرية ذو اللون البرتقالي على رأس الحشود وقال لجمع الثائرين بصوت يشبه قرقرة الأمعاء " لن نمسكم بسوء إذا قبلتم الاعتراف بأن المخلوقات البكتيرية هي سادة الأرض ورضيتم بحكم الخنفساء البلياتشو ، وقد امتلكت ناصية الملك بعد أن عزلنا الحاكم المخبول الذي اختل عقله عقب هروب الجميع من القصر ، ثم أشار قائد المخلوقات البكتيرية نحو أمير بيديه اللتين تشبهان القوس المشدود وأضاف :

" وشرطنا الأخير أن يتم تسليمنا هذا الطفل المشاغب لينال جزاءه " .

(١٤)

لحظة يأس

كان الفيل حكيما حين طلب إلى قـــائد المخلوقـــات البكتيرية مهلة للتشاور مع المجلس الثوري للأطفال قاصدا من ذلك أن يلتقط الجميع أنفاسهم ، بعد أن صعقتهم المفاجـــأة ، وشل تفكيرهم الخوف . لقد بدا أن الجيش الذي يواجهونه لا يقهر وإن كان في حوزهم مدافع الليزر . فكل مخلوق بكتـيوي ينقسم إلى اثنين وفي غضون ساعات قليلة يصبـــــح الجيـــش جيشين ثم أربعة جيوش ثم ثمانية وهكذا. إلها مخلوقات تتكـــاثر بجنون من دون حاجة إلى متاعب الحمل الولادة ، مخلوقـلت لا يتدرج نموها عبر مراحل الصبا والشباب والكهولـــة ، وإنمـــا يخرج الوليد لتوه شابا يافعا قادرا على الحـــرب والقتـــال ، ولحظة أن يموت تتجدد حياته في مخلوق آخر يخرج من جســده له الملامح والصفات ذاهّا .

أحس الفيل بدوار ، وهدل خرطومه مـــن الدهشـــة

عندما انقسم قائد المخلوقات البكتيرية الى قائدين ثم أربعة قواد ثم ثمانية ، وقال له القادة الثمانية بصوت واحد يمتلىء صلفا وغرورا : " لقد وافقنا على المهلة المطلوبة مدة ساعة فقط ، وان كنا على يقين من انه ليس أمامكم خيار آخر غير القبول بشروطنا ، لكننا أعطيناكم هذه الفرصة ، لكي تخرسوا الأصوات التي تتشدق بالعبارات الثورية الجوفاء التي لا طائل من ورائها " .

وأشار الفيل بخرطومه الى الجموع المحتشدة من الرجال والنساء والأطفال والطيور والحيوانات فدخلوا المعسكر بخطى وئيدة متثاقلة وهم يصدرون همهمات غاضبة ، لكن أمير لم يبرح مكانه وجهز مقلاعه ليطلق حجارته على المخلوقات البكتيرية فمد الفيل خرطومه وحمله عنوة ودخل به المعسكر قسرا. حاول أمير أن يتخلص من خرطوم الفيل ، بيد أن محاولته ذهبت سدي ، ظل يضربه بيديه الصغيرتين ، ويعضه ويخمشه بأظافره ، حتى أصابه الإعياء واستسلم لنوبة من النشيج والبكاء. حرر الفيل أميرا من قبضة خرطومه ، وأنزله الى الأرض برفق واصدر هديرا غاضبا وقال له : " لا تكن أحمق ! نحن في حاجة إلى هذه المهلة لنفكر في وسيلة غير مألوفة لقهر هذا العدو الرهيب .لكننا لن نستسلم أبدا مهما

كانت العواقب " .

نكس أمير رأسه صاغرا ، ومشى داخل المعسكر وهو يوزع نظراته الساخرة بين مقلاعه وكومة الحجارة التي يضعها في كيس من القماش ، ثم طوح بهما بغيظ ، فسقط في خندق القطران.اتكأ أمير على إحدى أشجار (لا) ، وراح يقدح عصارة ذهنه متلمسا وسيلة لقهر المخلوقات البكتيرية قبل انتهاء المهلة المحددة ... لقد قرأ من قبل عن حيوانات تأكل النمل ، وزهور تلتهم الذباب ، وطيور تفترس الحشرات .. فمن المنطق أن توجد كائنات تأكل البكتيريا !

انتفض أمير واقفا ، وقرر للوهلة الأولى أن يخبر رفاقه بهذه الفكرة التي ومضت في ذهنه ، ثم عاد وجلس مرة أخرى محبطا ! إذ بدت له فكرته محض خيال ، فأين يمكنه العثور على أكلات البكتيريا ، وان هو عثر عليها فكيف يكون بمقدورها أن تلتهم مخلوقات بمثل تلك الضخامة العددية ؟ !

كاد أمير يقع على ظهره ، عندما انحنت شجرة "لا" التي يتكئ عليها بكامل جذعها غير آبهة بالبخار الساخن الذي لفحها وحرق أوراقها ، وامتدت كجسر يعلو خندق القطران. ولم يصدق أمير عينيه وأبواه يعبران ذلك الجسر ، شهق من الهلع وهو يرى فرقة من جنود البكتيريا تطاردهما.وبمجرد أن



وطأ جنود الفرقة جنسر شجرة (لا) اقشعر بدنها ، ولم تطق خلاياها دبيب أقدامهم العنكبوتية وملمسها اللزج ، وانتفضت انتفاضة هائلة قاذفة بهم في الفضاء ، حتى سقطوا على جبل الحيات الفضة وهم ينفجرون غيظا ٠

(١٥)

آكلات البكتيريا

لم يستمتع أمير كثيرا بشعوره بالفرح الذي هز كيانه عندما التقى بأبويه ، لأن الشعور بالخطر تملكه تماما ، وطغى على مشاعره الأخرى ٠

تأهب الجميع للقتال وبعد أن أخبرتهم طلائع الصقور المتربصة فوق أشجار (لا) بأن المخلوقات البكتيرية تتقدم نحو المعسكر ، وقد استقرت نيتها، على الأرجح، — على اقتحامه قبل انتهاء المهلة المحددة ٠

استعد الرجال والنساء والأطفال بأسلحتهم المتنوعة من عصي وسياط وحبال وحجارة وخناجر ، برغم تيقنهم من

أن تلك الأسلحة لا تستطيع أن ترد عدوهم ،لكنهم قرروا ان يكافحوا إلى آخر قطرة من دمهم، من اجل نيل حريتهم .

تشابكت أشجار (لا) فروعا وأغصانا وجذوعا ، وصارت سدا شجريا يحيط بالمعسكر من جوانبه كافة.وخلفه السد ، اصطفت الأفيال متأهبة بخراطيمها ، لملاقاة جنود العدو الذين ينجحون في تخطي هذا الحاجز ، والتسلل الى داخل المعسكر .

كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق ، وفق الخطة التي رسمها واقرها المجلس الثوري ، وقد خيم الصمت على المعسكر إلا من أصوات قرع الأسلحة وهي تنقل خلف الاستحكامات ، ودقات الثائرين على الأرض وهم يتحركون الى مواقعهم المحددة. وفجأة ، قطع الصمت صراخ أبوي أمير وهما يهرولان نحو الصرر التي كان الآباء والأمهات يحملونها عند قدومهم إلى المعسكر.لحق أمير بأبويه عند موضع الصرر ، فبادرته أمه قائلة وهي تلهث : " يا ولدي ... لو القينا بهذه الصرر الملأى بهورمون النمو في خندق القطران لنمت آكلات البكتيريا فورا الى الحجم الذي يمكنها من افتراس المخلوقات البكتيرية وإعاقة تكاثرها " هلل أمير من الفرح وزعق في الفضاء : " إن الفكرة التي داعبت خيالي

من قبل حقيقة وليست محض خيال " .

احتضنته أمه ، وربتت على خده ، وقالت له " لكننا ، يا ولدي ، لا نعلم كيف نستطيع الخروج من المعسكر بهذه الصرر ، وجنود العدو يحكمون علينا الحصار " .

تلفت أمير حوله في حيرة ، وقد سمع رفيف أجنحة العصفور الأزرق العائد توا من جولة استطلاعية خارج المعسكر .

همست شجرة (لا) في أذن أمير بفكرة راقت له ، وأثلجت صدره ، فأسرّ بها إلى العصفور الأزرق الذي نقلها بدوره إلى الطيور المقاتلة .

بدأت الطيور من الفور وبحماسة بالغة في تنفيذ مهمتها انقضت أسراب الصقور والنسور والنوارس وعصافير العواصف تلتقط الصرر بمناقيرها ، وتلقي بها في خندق القطران ، تشبثت بعض الأمهات بصررهن ، إذ أتين بها معهن ليسقين الأطفال هورمون النمو، لكيلا يصبحوا أقزاما ، وحال أمير بينهن وبين الطيور التي كادت تنقر وجوههن في سبيل إنهاء مهمتها في الوقت الملائم .

قال أمير للأمهات معاتبا : " كيف تصدقن تلك

الأكذوبة التي أطلقتها الخنفساء البلياتشو ؟! لن يصبح أي طفل في المدينة قزما عندما يعود إلى أحضان أبويه " .

نظرت الأمهات إلى أمير بريبة مشوبة بالحذر ، وخبأ بعضهن عددا من الصرر في جيوبهن ، وسمحن للطيور بأن تحمل ما تبقى منها .

جن جنون المخلوقات البكتيرية حين رأوا أسراب الطيور تحلق فوق خندق القطران ، لأنها أدركت بذكائها الفطري جوهر الخطة المدبرة ضدها. اقتربت الطيور من الخندق فاشتبكت معها المخلوقات البكتيرية واستطاعت أن تفتك بطائر النورس وعصفور من عصافير العواصف وأحد الصقور، وبرغم ذلك استطاعت الطيور الأخرى أن تتم مهمتها بنجاح ، وتعود إلى المعسكر سالمة .

أرسل خندق القطران بريقا يشبه لآلئ الشمس والقمر وتألق البرق وأصدر أزيزا يشبه صوت البركان قبل تفجره ثم أطلق حمما من النار المستعرة تقاطرت على جبل الحيات الفضة، فتفسخت عمدانه رويدا رويدا وانصهرت حتى استحالت إلى بركة من الفضة تفور من الغليان .ومن ألسنة النار خرجت آكلات البكتيريا الحمراء ذات الأقدام المخروطية وانقضت على المخلوقات البكتيرية التي شلت



أقدامها من الذهول ، وقف الأطفال والرجال والنساء على السد الذي إقامته أشجار (لا) يتابعون المعركة وهم متحفزون، كانت آكلات البكتيريا تلتصق بأجساد المخلوقات البكتيرية ، وتلف أقدامها المخروطية حولها ، وبعد لحظات تنتفخ المخلوقات البكتيرية كمنطاد كبير ثم تنفجر وتتناثر خلاياها الصفراء في الفضاء •

لم يكن في حسبان أحد أن تأتي الخنفساء البلياتشو في هذا الوقت ، فترى رأي العين اندحار سادهًا من المخلوقات البكتيرية . وقد هال الجميع قدومها وهي تعدو نحو المعسكر بينما يطاردها جيش من الوحوش الضارية التي أصرت على الفتك بها، وبمنتهى الحقد والعنفوان دفعت الخنفساء البلياتشو بالوحوش الضارية إلى بركة الفضة المنصهرة التي أغشت عيونها فسقطت فيها صرعى.ومنذ ذلك الحين صارت تماثيل فضة في متحف من متاحف التاريخ الطبيعي •

ووقفت الخنفساء البلياتشو تحملق ببلاهة في آكلات البكتيريا التي تشبه سادهًا تماما وتقف أمامها صفا واحدا. فردت أجنحتها العملاقة وطارت قاصدة أميرا الذي كان واقفا على السد الشجري لكن الأفيال تصدت لها بخراطيمها وأنيابها ودارت بينهما معركة رهيبة.فتكت خلالها بعدد من الأفيال ، وتوجهت صوب أمير تحملها الرغبة في الانتقام منه.

ألقى عليها الأطفال وابلا من حجارهم المدببة ، وانقضت عليها الطيور بمناقيرها وأقدامها.حتى النساء اللاتي خبأن الصرر من أطفالهن ، قذفن بها في وجه الخنفساء البلياتشو بيد أنها تجاوزت كل هذه العقبات ، وأخيرا بدون تفكير تصدى لها الرجال بالعصي والخناجر ، فأطاحت بهم يمنة ويسرة ومدت زبانييها لكي تمسك بأمير وتفتك به ، وحينما رأت أبويه يقفان حائلا بينها وبينه ، أصدرت هديرا مخيفا ، أطلقت عليهما سائلها الزيتي الأصفر، فسقطا مغشيا عليهما واقتربت الخنفساء البلياتشو من أمير ببطء ، وقالت بصوت يشبه فحيح الحية " لقد حانت لحظة انتقامي ••• لن يستطيع أحد أن ••• " •

لم تكمل الخنفساء البلياتشو جملتها ! تحشرج صوتها ، واخذ جسدها يتضاءل بالتدريج ! فعند هذه اللحظة ، انتهى مفعول هورمون النمو. وشيئا فشيئا ، عادت خنفساء صغيرة الحجم تافهة لا حول لها ولا قوة . نظر أمير إليها بسخرية وهمّ بأن يطأها بقدمه ، لولا أن آفاق أبواه من غفوهما، فتركها لحالها واندفع نحوهما، وارتمى في حضنيهما، ثم انضم ثلاثتهما إلى الجموع المحتشدة التي كانت ترقص طربا فرحة بالنصر •

النهر الذي يعزف الموسيقى



دار شرقيات

نبيل خلف

النهر
الذي يعزف الموسيقى

النهر الذي يعزف الموسيقى

نبيل خلف

رسوم: طارق علي

الطبعة الأولى ٢٠٠٢

دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة

رقم الإيداع: ١٥٣١٦/٢٠٠٢

الترقيم الدولي: ISBN 977-283-118-x

(١)

امتلأت السماءُ بألوف من الكلاب الطائرة، وأصـــدرتْ عُوَاءً مخيفاً لَم تسْمعهُ من قبل السحاباتُ التي كانَتْ تـتربَّضُ في الفضاء.

قالت سحابةٌ لرفيقتها، وهي تسدُّ أذنيها :

"لقد أتينا إلى هنا لنستمتع بخفيفِ أوراقِ الأشجار وتغريدِ الطيورِ وخريرِ مياه الجداول، ولنريح أعصابنا المتعبة من جـوّاء العملِ الشاق طَوَال العام، فما هذا الصوت المخيـــف الـــذي

نسمعه الآن ؟!"

فأجابتْ رفيقتُها بانفعالٍ :

"إنَّ هذا العُوَاء يُرهِقُ جهازيَ العصبيِّ، ومن الممكــن أنْ يُصيبنا بأمراض شتَّى، وقد يقتلنا، فلنهرب من هذا المكان قبل أنْ نَلقَى حتفنا" .

مدَّ زَعيمُ الكلاب الطائرة بُوزَه الذي يشبه بوز الثعلــب والْتَهَمَ تفاحةً بعد أن عصرها بأســنانه ثم أشــار إلى جماعتــه ليتوقفوا عن العواء وقال آمراً :

"لقد اقتربنا من مدينة السكون، فليكف الجميــع عــن إحداث أي صوت حتَّى لا يلحظ أحدٌ وجودنا " .

أردفَ كلبُهُ المرشد :

"الناسُ في هذه المدينةِ يغطُّونَ في النومِ ليلاً ونهاراً، فعندمـا أتيتُ إلى هنا لاستطلاع المكان لم أرَ أثراً لإنسان أو حيـوان أو حشرة، فلنفعل إذن ما نشاءُ ولنرقص ونغني. كَيــف تــرى الجماعة كل هذه الأشجار التي تمتلئ بشتىً أنواع الفواكـه ولا تعبر عن فرحتها بالرقص والغناء ؟!"

صاحَ الزعيمُ غاضباً :

"حينما آمركم بأن تصمتوا فلتصمتوا، وحينما آمركم بأن تغنوا فلتغنوا . كيف تجرؤ أن تعصى أوامري أيـــها الكلـــب الغبي!" .

قال الكلب المرشد متلعثماً :

" أنا.. لم أقصد ذلك !"

وزادَ الزعيمُ متجهماً :

"لقد خالفتَ التعليمات من قبل ولم تحضر لي عينات مـــن مختَلِف أنواع الفواكه المنتشرة في هذه المدينة، لأذوقها، وأقـــرر مدى صلاحيتها لنا معشر الكلاب الطائرة – وقد علمتُ مـــن إحدَى فصائل المخابرات التي كانت ترقبك أنك الْتَهمتَ سلةً كاملةً من الفواكه، وهذا جُرْمٌ لا يُغْتَفر !" .

أجابَ الكلبُ المرشدُ وهو يكادُ يموت رُعباً :

"لقد سَقَطَتْ من طفلٍ صغيرٍ، ارْتَعَبَ لدَى رؤيتي، وفـــرَّ بعيداً، وكنت بدوري خائفاً .."

أسكته الزعيم بأن ألقَى قشورَ التفاحةِ في وجهِهِ وقال :

"لقد ارتكبتَ جريمتين : أولاهما أنك أكلتَ الفواكهَ قبل أنْ أذوقها أنا، وثانيتهما أنك كذبت إذْ قُلتَ - منذ قليل - إنك لم ترَ إنساناً أو حيواناً أو حشرةً. وبعد أن تُنْجز هذه المهمة ونعود إلى الجبل، سوف أُلقنكَ درساً قاسياً"

(٢)

حَمْلَقَ زعيمُ الكلابِ الطائرةِ في الأشجار المنتشرة تحته بدهشةٍ وقالَ:

"إنَّ هذه الأشجارِ صمَّاء، بكماء، عمياء، لا تهتزُ لضوء الشمسِ. ونحن نعلمُ أنَّ الأوراقَ الخضراءَ الحيَّة تنقبضُ وتنبسطُ وترقصُ نحو أشِعَّة الشمس، كما أن النباتات المتسلقة

تنتفضُ وترتجِفُ وتلتوي – بشكل مدهش – حول السَّاند الذي تلتف عليه، بحثاً عن ضوء النهارِ. ولقد مررنَا بكثيرٍ من الغابات، والمراعي، والمستنقعات، ولم نَصادف شعاعاً واحَداً من الشمس يمرُّ عبَثاً، دائماً تحتضنه النباتات – بشتَّى أنواعها – وتضمه برفق!

في حياتيَ لم أشهد أشعة الشمس تتبدد بهذا الشكل العبثي حول أشجار لا تبالي بوجودها!"

صمت الزعيم لحظات، وأضاف:

"من المؤكد أنها أشجار صناعية من المعدن، أو البلاستيك، أو ما شابه ذلك".

ثم التفت إلى كلبه المرشد ورمقه بغضب، وقال في سخرية:

"هل تسمح بأن تقدم لي تفسيرا لذلك كله؟"

ردَّ الكلبُ المرشدُ بصوتٍ خفيضٍ :

"فلنهبط فوق هذه الشجار وننظر في الأمر" .

أجابه الزعيم وقد استشاط غضبه :

"قد يكون كميناً أيها الأبله!" .

تدخَّل قائدُ المخابرات وقال بخبث لزعيمه :

"لقد أتى الكلب المرشد إلى المدينة مرات عديدة، وأكل من فواكهها وبذلك فإنه الكلب المناسب يا زعيم الذي يصلح للهبوط على الأشجار . لن يكون هناك أدنى خطر عليه : فهو على حد قوله يعرف كل شيء عن المدينة " .

ضحك الزعيم قائلاً :

"إنها فكره رائعة" .

مص الكلب المرشد إبهامه، وهي عبارة عن عقدتين، تنتهي بمِخْلب، وقاومَ رغبتَه العنيفة في التبول دون جَدْوَى، حتىَّ سقطَتْ قطراتُ بَوْله على إحدَى الأشجار. فقال له الزعيم وقد أغرق في الضحك :

"فلتهبط على هذه الشجرة الآن"

(٣)

انتفَضَ سهيل من الفزع! فقد سقطَ الكلبُ المرشدُ أمـــام قدميه تماماً وهو يَئِنُّ من الألم، ممسكاً برجليه تفاحةً من الجبــس والدم ينسال من بوزه .

التقط سهيل أنفاسَهُ ووضعَ سلةَ الفواكهِ جوار الشـــجرة وأخذ يُحَمْلقُ في الكلب المرشدِ بدهشةٍ وقد اجْتَذَبَتْهُ ألوانـــه الصارخة وعيناه الكبيرتان، ثم حاول أنْ يساعده في النـهوض، ويمسح قطرات الدم التي تسيل من بوزه، إلا إنَّه تراجع علـــى صراخ الكلب المرشد .

قال سهيل بدهشة :

"ماذا حدث لك ؟ "

مدَّ الكلبُ المرشدُ رجليه اللتين يستخدمهما كأيدٍ ليشاهد

سهيل أسنانه التي تكسَّرت حينما حاول أن يقضم تفاحـــــه الجِبْس ويعتصر ما بداخلها، وقال له باكياً :

"لن أستطيع أن أستمتع بعصير الفواكه الشهيٍّ بعد الآن، وسوف أموت جوعاً فالفواكه هي غذائي الوحيد" .

ربَّتَ سهيل على رأسه وأحضر ثمرةً من الجوافة من ســلَّة الفواكه، وقرَّبها من بوزه وأخذ يعصرها بيديه، ثم عصـــر لــه تفاحةً وبرتقالةً، واستمر كذلك حتى فرغت سلَّته .

ساءل الكلب المرشد سهيل مستجدياً :

"ألا يوجد المزيد من الفواكه، فأنا لم أرتوِ بعد؟ "

وأجاب سهيل مستغربا :

"لقد التهمت سلة كاملة من الفواكه نأخذها كل عام من المتحف القومي للنباتات الطبيعية. ولقـــد أعطيتـك مــا لا أملك،وسوف يعاقبني أبي لذلك" .

قال الكلب المرشد متحايلاً :

"فلنقطف غيرها من الأشجار التي تحيط بنا "

ضحك سهيل وأجاب ساخراً:

"إنها أشجار من البلاستيك والألومنيوم والجبس، ولقد وُضِعت للزينة ليس إلا "

تحسس الكلب المرشد أسنانه المتكسِّرة وقال يائساً :

"لقد فهمت الآن لِمَ تكسَّرت أسناني. تصورت أنَّ الثمرةَ التي قضمتها كانت جافة، ولم أتخيَّل قَطُّ أنها تفاحة من الألومنيوم، أو البلاستيك، أو الجِبْس " .

وأضاف سهيل موضحاً :

"لقد قرر حاكم هذه المدينة – منذ سنوات طويلة – اقتلاع كل الأشجار والنباتات، لأن العصافير والطيور التي تحط عليها تحدث ضجيجاً يرهق جهازه العصبي، وألْزَم السكان أن يرتدوا خوذه آلية مزوده بأجهزة راديو، وجهاز خاص لتدليك الرأس، ورشاش للعناية بالبشرة، وسماعات من أجل الاستماع إلى الموسيقى، وحرم عليهم الاستماع إلى الراديو في منازلهم، أو مشاهدة التليفزيون، أو الفيديو؛ إلا من خلال سمَّاعات تُرَكَّبُ في آذانهم حتى لا يحدثوا أيَّ ضجيج يرهق أعصابه"

- "لكنك لا ترتدي الخوذة الآلية "

- "إنني أكره ارتداءها، فهي تجعلني أحسُّ بالاختناق"

- "ألا تخشَى عِقاب الحاكمِ" .

- "وهل تقبض الشرطةُ على طفلٍ صغير؟"

- " إنَّ الحاكم الذي يقتلع الأشجار من الممكن أن يضع الأطفال في السجون"

قاطعه سهيل والخوف يَدُبُّ في قلبه :

"ما العمل الآن ؟ أنا لا أستطيع العودة إلى أبي وأمي بِسَلةٍ فارغة، ولا أقدر على الذهاب إلى المتحف القومي للنباتات الطبيعية؛ لأستعطف مدير المتحف، وأُحْضَر غيرها، فرجال الشرطة يحيطون بالمتحف من كلِّ جانب" .

هرشَ الكلبُ رأسَه، وقال لسهيل بخبثٍ:

"سوف أذهب معك إلى المتحف فمن المؤكد أنه يحتوي علي أشجار كثيرة من الفواكه، ولن يضرهم شيء أن يعطوك سلةً أخرى، وإن حاول رجال الشرطة القبض عليك فسوف

أحملك وأطير بك " .

قال سهيل وهو ينظر إلى جسِده الضَّئيل :

"إنَّ جسَدَك يزيد قليلاً عن جسد الخُفَّاش فكيف أصـــدق أنك تستطيع أن تحملني ".

وأجابَ الكلبُ المرشدُ في دهاءٍ:

"لقد حملت من قبل غزالاً ودباً صغيراً، فكيف لا أسـتطيع أن أحملك .. أرجو أن تثق بي ... هيا بنا إلى المتحف "

وبينما كانا يأخذان طريقهما باتجـــاه المتحـــف، أصـــدر الكلب المرشد عُواءه المميز؛ حتَّى تتبعه الكلاب الطائرة لغـزو المتحف القومي للنباتات الطبيعية.

(٤)

نظر الكلب الطائر حوله بذهول؛ حيث رأى السيارات الكَهْرُبَائية المكعبة التي لا تصدر صوتاً، ولا تلوث الجو بالعادم؛ لأنها تستخدم محركات كهْرُبائية عالية السرعة، وتستمد التيار اللازم من بطاريات خفيفة وقوية، وازْدَادَ تعجبه من سقوفها الشفافة، والصبية يتطلعون منها وهم يأكلون بطاطس مشوية ذات لون وردي، ويلوِّحون لسهيل وهو يضحكون . سال لُعابُ الكلب المرشد، وقال لسهيل :

"لم أرَ من قبل هذا النوع من الفاكهة . فهل تستطيع أن تأتي لي ببعض منها؟ "

ضحك سهيل ساخراً، وقال موضحاً :

"ليست هذه نوعاً من الفاكهة، إنها بطاطس اصطناعية يتم صنعها من خلاصة الأعشاب المائية، ونواتج عصير البنجر وثمار التفاح التالفة، وتصنع في المصنع الذي يملكه الحاكم

وتباع بأسعار مرتفعة جداً " .

أَلَحَّ الكلبُ المرشد متوسلاً :

"أرجوك أن تشترى لي واحدة منها، وتعصرها في حلقي فأنا أكاد أُجَنُّ جوعاً!"

وأجابه سهيل :" أنا لا أقدر على شرائها بمصروفي الضئيل" .

قال الكلب الطائر وهو ينظر فوقه إلى أسراب الكلاب الطائرة التي تتبعه لغزو المتحف القومي للنباتات الطبيعية:

"فَلْتُقَدِّمْ إليّ معروفاً وتصف لي الطريق إلى أحد الحوانيت التي تبيع البطاطس المشوية، وسوف أسطو عليه، وأقدم إليك طعاماً شهياً مجاناً ".

قال سهيل محتداً :

"أتريد أن تحرضني على السرقة أيها اللص المخادع !"

قال الكلب المرشد متلعثماً :

" أنا لم أقصد ذلك يا صديقي وإنما قصدت أن أقدم إليك

مكافأة صغيره مقابل إنقاذك لحياتي" .

عنَّفه سهيل قائلاً : "لقد أنقذتُ حيـــاتَك لأنـــني أردت ذلك. وأرفض مكافأتك التي تجعلني سارقاً ".

وبصوت ناعم أجاب الكلب المرشد :

"أرجوك ألا تغضب وأن تغفر لي! لقد عرفتك منذ فـــترة قصيرة لكنني أحسست بأنني أعرفك منذ زمن طويل صديقـــاً وفياً، وإنساناً معطاءً، ولن أسمـــح لأي شـــيء بـــأن يفســـد صداقتنا" .

قال سهيل بعد أن هدأت ثورته:

"فلنكف الآن عن العتاب"

ولحظة أن اقتربا من المتحف؛ لمح سهيل رجالَ الشـــرطةِ يرمُقُونَه، فوضَع سلة الفواكه فوق رأسه؛ حتى لا يقبضوا عليه بتهمه عدم ارتداء الخوذة الآلية. وبينما هو يفعل ذلك شـــاهد أسراب الكلاب الطائرة تتجه نحو المتحف، فالتفت إلى الكلب المرشد، وزجره باكياً :

"لقد غرَّرت بي واستدرجتني إلى المتحف، حـــتى يقـــوم



رفاقك بغزوه والاستيلاء على ما فيه من فواكـــه ينتظرهـــا سكان مدينتنا كل عام بفارغ الصبر" .

هَمَّ سهيل بضرب الكلب المرشد، فطار نحو رفاقه الذيـــن يحلقون في السماء، ويحاصرون المتحف من كل جانب. وألقـى سهيل السلة من فوق رأسه وجرى نحو رجال الشرطة وهـــو يصرخ قائلاً :

"الكلاب الطائرة سوف تغزو المتحف، إنني مجرم خـــائن! لقد أرشدهم إلى مكانه بدون قصد. يجب أن تفعلوا شيئاً "

كرَّر سهيل جملته الأخيرة عدة مرات، ثم سقط مغشياً عليه .

(٥)

ضغط حاكم مدينة السكون على بعض المفاتيح في جـــهاز الفيديو – تليفون، فظهرت أمامه – على الشاشة التليفزيونيـــة – طبعات صُور للجرائد الصادرة في العالم بكل اللغات مـــع

ترجمة فورية لكل خبر، وأصابته دهشة بالغة حينما قرأ هـــذا الخبر العجيب:

(الفيلة البيضاء تمشي فوق النهر في وادي الموسيقى كأنها تمشي على الأرض، ولقد اجتمع العلماء في المنظمات الدوليـــة لبحث هذه الظاهرة الغريبة واطّلَعوا على آلاف الصُور الـــتي أرسلت بها الأقمار الصناعية عن هذا الوادي، بدون أن يصلوا إلى تفسير علمي معقول)

نظر الحاكم حوله فلم يجد إلا كبير مستشاريه يغـــطُّ في النوم فأيقظه بعنف وعاجله بالقول :"هل تعرف شـــيئاً عـــن وادي الموسيقى؟ "

فرَكَ كبير المستشارين عينيه وأخْفَي تَثَاؤبَهُ بصعوبة وقـــال وقد أخذه الموقف :

"هل هرب الموسيقيون من مدينة السكون وأنشأوا واديـــاً يمارسون فيه هوايتهم في العزف لكيلا يقلقوا راحـــة مولانـــا الحاكم ؟ "

قال الحاكم غاضباً : "من المؤكد أنك شخص مخـرِّف! ألاَ تعلم علم اليقين أنني أَوْدَعْتُ كل الموسيقيين في السجون؛ بعد

أن رفضوا ارتداء الخوذات الآلية. لقد حطمتُ آلاتهم الموسيقية، فأخذوا يجوبون الشوارع ويطلقون صفيراً مزعجاً، ويدقون على النوافذ، وكاد الضجيج يقتلني"

وعَلّقَ كبيرُ المستشارين متأسياً :

"إنهم كانوا يغنُّون النشيد الوطني للمدينة، يا مولاي" .

أجاب الحاكم محتدّاً :

"أَمِنْ أَجْل نشيد تافه يرهقون أعصاب الحاكم، ويتحدون إرادته"

قالها الحاكم وهو يتقدم نحو كبير مستشاريه في غضب ويجذبه بعنف نحو شاشة الفيديو- تليفون، ثم أشار قائلاً :

"لقد ثرثرت كثيراً بدون جدوَى . فلتقرأ هذا الخبر بتعمق، وتُبْدِي لي رأيك في هذه الظاهرة العجيبة" .

ارتدَى كبيرُ المستشارين نظارته السميكة وحَمْلق في الخبر المنشور أمامه بذهول، وارتسمت علامات التعجب على وجهه المتُغَضِّن، ثم التفت إلى الحاكم قائلاً :

"لا أصدق ما أراه! كيف يستطيع النهر أن يحمل فِيلاً؟!"

قال الحاكم وقد غلبَ تعقلُه غضبَه :

"إنَّ وَكَالة الأنباء التي أعلنت هذا النبأ موثوق بها"

ردَّ كبيرُ مستشاريه مفسراً :

"إن بعض الحشرات لها وحدها القدرة على الركْض على سطح الماء لصِغَر وزنها، ولكي يستطيع الإنسان ذاته أن يحقق حلمه بالعَدْوِ على الماء لابد من أن تعادل سرعته أَلْف قدر سرعته الحاليَة" .

تملْمَلَ الحاكمُ قائلاً : "أريد أن أعرف الحقيقة! لقد قررت أن أمتلك هذا الوادي. ولو أنك أطَّلعتَ على الخريطة لعرفت أنه كان جزءاً من مدينة السكون" .

قال له كبير مستشاريه :

"ولِمَ تُرِيد أنْ تمتلكه وأنت تملك كل شيء في مدينتنا"

وأجاب الحاكم من الفور : "ولِمَ يملكه أحد غيري؟ "

اتجه الحاكم نحو جهاز الفيديو– تليفون، وضغط على المفاتيح الخاصة بالمتحف القومي للنباتات الطبيعية ليتحقق من صحة النبأ . لم يصدق الحاكم عينيه وهو يرى طيور الصعو الصغيرة تبحث عن الحشرات في النباتات الأرضية، وتثرثر بصوت عال بشكل لا يصدق.

سدَّ الحاكم أذنيه بيديه وأخذ يصرخ قائلاً :

"من سمح لهذه الطيور الثرثارة التي لا تكفّ عن الحركة بالدخول إلى المتحف؟ سوف أفصل مدير المتحف، ومدير الشرطة، ومدير المخابرات، لتقصيرهم في تنفيذ المرسوم الذي أصدرته بمنع الطيور والحيوانات من دخول المدينة " .

أحضر كبير المستشارين قرصاً مهدئاً، وكوباً من الماء المثلج وناولهما للحاكم فألقى بهما على الأرض صارخاً. وبينما هو كذلك تسمَّرت عيناه بشاشة الفيديو – تليفون التي ظهر عليها أحد طيور الصَّعْو يقول لرفيق له :

"كيف يطردوننا من وادي الموسيقى وقد كنا نطَهِّر النباتات الأرضية من الحشرات الضارة" .

ورد رفيقه آسفاً : "إننا نستحق ذلك! لقد طردونا لأننا

نثرثر كثيراً وندس أنوفنا فيما لا يعنينا" .

قال الحاكم فرحاً لكبير مستشاريه :

"إن وادي الموسيقى حقيقة مؤكدة، وسوف أمتلكـــــه إن آجلاً وإن عاجلاً"

ثم التفت نحو الفيديو– تليفون، وضغط على أحد المفـلتيح فظهر مدير المتحف أمامه على الشاشة فبادره الحاكم بالقول:

"فلتأسر طُيُور الصَّعْو من الفور، ولتحضرهـــــا لي حـــتىَّ أعرف منها أسرار وادي الموسيقى" .

(٦)

أشاح الأطفال بوجوههم بعيداً عن البحيرة الصناعيـــــة، التي تُضْبط حركتها وأمواجها والأنوار التي تتلألأ على سطحها بواسطة الكومبيوتر.

وقال أحدهم في سأم : "لا أُحبُّ هذه البحيرة"

وقال طفل آخر : "لقد رأيت نهراً حقيقياً في أحد الأفلام"

التف الأطفال حوله بشغف وقال أحدهم :

"هل رأيت أفراس النهر و هي تلتهم الأعشاب "

وقال ثالث بعد أن ألقى بخوذته الآلية على الأرض :

"هل رأيت سمك السلمون المُرَقَّط بالنقاط الحمراء على جانبي جسمه، وهالةَ الضوءِ الملونِ التي تحيط بهما " .

وأجاب الطفل متفاخراً :

"لقد رأيت الكثير. ومن أغرب ما رأيت الأسماك التي تطير، إنها تسبح بسرعة كبيرة، ثم تضرب السطح وتفرش أجنحتها".

ترامى إلى أسماع الأطفال صوت غريب لم يسمعوه من قبل فانفضوا من حول رفيقهم الذي رأى النهر الحقيقي. كان نقيق الضفادع وقد حاول الأطفال الإمساك بأحدها، فانزلق في الهواء باستخدام الأغشية الموجودة بين أصابع القدم، وطار

نحو شجرة قريبة، ثم قال لهم :

"يبدو أنكم لم تَرَوْا ضفدعاً يطير من قبل "

أجاب الأطفال في صوت واحد :

"لم نرَ طيراً، أو حيواناً أو شجرةً من قبل! "

هبط الضفدع من الشجرة، فالتف حوله الأطفال، وأخذوا يتحسسون جسده الأملس، ويحاولون الإمساك بالكيس الصوتي الذي يمتد تحت حَلْقِه وينتفخ وينكمش بانتظام محدثاً النقيق .

قال الضفدع متعجباً :

"هل تخلو هذه المدينة حقاً من الطيور والحيوانات والحشرات "

ورد الأطفال بالإيجاب، فضرب الضفدع يداً بيد، واستدعى رفاقه بنقيقه المتقطع، فجاءوا والتفوا حوله وقال لهم:

"هل سمعتم هذا الكلام الخطير ؟"

شكّكت الضفادع في ما قاله الأطفال واتهموهم بالكذب فصرخ أحد الأطفال غاضباً، وقال منفعلاً : "نحن لا نكذب أبداً!"

وفي هدوء وترو سأله ضفدع عجوز :

"هل توجد في مدينتكم حديقة للحيوانات، أو نهر، أو أشجار ؟ "

قال الأطفال :

"لقد أغلق الحاكم حديقة الحيوانات، وردم النهر، واقتلع الأشجار، لأنه لا يحتمل هدير الأمواج وحفيف الأشجار، وتغريد الطيور" .

قال الضفدع العجوز وهو يهز رأسه :

"لذا أطلق الحاكم على مدينتكم اسم مدينة السكون"

قال ضفدع آخر بسخرية :

"كان من الأفضل أن يسميها مدينة الموت! فكيف يعيش الناس بدون طيور أو حيوانات؟!"

لمحت الضفادع الحراس قادمين وهو يحملون الأقفاص ليأسروا فيها طيور الصعو، وطيور الفردوس وطيوراً أخرى، فاختفت في لمح البصر، وجرى الأطفال نحو خوذاهم الآلية وارتدوها من الفور، وحملوا سلال الفواكه. وبينما هم يستعدون لمغادرة المتحف فوجئوا بآلاف من الكلاب الطائرة تعوي فوقهم وتكسِّر أغصان الأشجار، وتلتهم الفواكه والثمار الناضجة بِنَهَمٍ، ثم تخطف منهم السِّلال التي كانوا يتشبثون بها .

قال الكلب المرشد لسهيل ساخراً :

"شكراً يا صديقي! لقد أسديت لنا صنيعاً بأن أرشدتنا إلى المتحف" . رمق الأطفال سهيل بغضب قائلين :

"إنك طفل غشاش ومخادع .. ترشد الكلاب الطائرة إلى مكان المتحف، ثم تأتي لتحذرنا .. إنها لُعْبَة قذرة" .

حاول سهيل أن يشرح لهم ما حدث، إلا أنهم أَوْلَوا له ظهورهم، فأجهش بالبكاء وأخذ يلتقط الأحجار من الأرض ويلقي بها على الكلاب الطائرة التي أغرقته بوابل من قشور الفواكه .

(٧)

شاهد الحاكم عملية غزو الكلاب الطائرة للمتحف القومي للنباتات الطبيعية من خلال الفيديو - تليفون وعلق ضاحكاً :

"لقد استطاعت هذه الكلاب أن تفعل في ساعات معدودة ما لم أستطع أن أفعله في سنوات" .

وكان ذلك في حضور كبير مستشاريه الذي سأله متعجباً:

"هل أنت سعيد يا مولاي لما حدث ؟ "

أجابه الحاكم قائلاً : "إنه أسعد يوم في حياتي "

كتم المستشار غضبه بصعوبة وقال :

"لقد حرمت هذه الكلاب الجشعة سكان المدينة نصيبهم من الفواكه الطبيعية التي ينتظروها بلهفة مطلع كل عام.

خَرَّبت الأشجار وكسَّرت فروعها، فكيف تسعد مولانا هـذه الكارثة ؟ "

أجاب الحاكم حانقاً :

"كيف تحدثني بهذه اللهجة! إنك لا تفهم حقيقة الأمور"

دمعت عينا المستشار، وقال للحاكم :

"لقد أعطيت نفسي هذا الحق يا ولدى، لأنـني كنـت مستشاراً لوالدك وكنت أنت طفلاً صغيراً "

ربَّت الحاكم على كتفه وقال له برفق :

"أنت تعلم انك الشخص الوحيد في هذه المدينة الذي أثق به وأبوح له بما يجول في خاطري، وأتحدث معه كما أتحدث مع نفسي، فكل من يحيطون بي – إلا أنت – فاسدون وأشـرار متملقون "

قال كبير المستشارين بعد أن استعاد هدوءه :

"لكنني لا أفهم سر سعادتك بغزو المتحف ؟

قال له الحاكم ضاحكاً : "هل نسيت أنني أمتلك عـدة

مصانع للفواكه الصناعية! وأن إغلاق المتحف سوف يـؤدى إلى إقبال سكان المدينة على شرائها، فتزداد أربـــاحي جَـــرَّاء ذلك " .

قال المستشار مستنكفاً :

"وقد يؤدى ذلك – أيضاً– إلى غضب ســـكان المدينـــة وثورتهم " .

قال الحاكم مبتسماً : "سوف أمتص غضبــــهم بتقـــديم المسئولين عن غزو المتحف إلى المحاكمة العاجلــــة . وســـوف يتحول هذا المتحف إلى حديقة رائعة خاصة بالأطفال، فيــــها شلالات الماء الصناعية والمزالق الكبيرة وألعاب الحبال ونوافير المياه التي تُضْبَط بواسطة الكومبيوتر. ومكان هادئ مُزخــرف يكتشف فيه الطفل تكنولوجيا عـــالم الكومبيوتـــر والأقمـــار الصناعية. وكل ذلك مقابل رسم دخول لا يتعـــدى بضـــع جنيهات" .

قال المستشار متململاً :

"لقد كان الأطفال كلَّ عام يبتــــهجون عنـــد دخولهـــم المتحف لأنهم يعشقون الطبيعة، فيتحدثـــون مـــع الأشـــجار

والطيور التي تأتى خلسة والتي لا يرونها إلا في الكتب المصورة أو أفلام الفيديو المهربة. إنهم يختنقون مع التكنولوجيا لأن كل شيء في هذه المدينة مزيف ومصطنع وأخشى أن .. "

قاطعه الحاكم قائلاً :

"كيف نعيش في هذا العصر بدون التكنولوجيا ؟ كيف يمكن أن تستمر الحياة بدون الفيديو - تليفون والأجهزة الإلكترونية والأقمار الصناعية والسيارات الكهربائية " .

نظر الحاكم في الشاشة التليفزيونية، فرأى الحراس يحملون الأقفاص التي أسروا فيها طيور الصعو والكلب المرشد وطيور الفردوس والضفادع الطائرة. واستلفت انتباهه مدير المخابرات وهو يقيد بنفسه طفلاً صغيراً بقيود حديدية ويعنفه قائلاً :

"لقد خنت هذه المدينة.. لقد أرشدت الكلاب الطائرة إلى مكان المتحف.. سوف نقدمك إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى"



(٨)

ظلت "نهاد" تطوف حول قصر الحاكم وهي تبكي، بعد أن علمت من إحدى صديقاتها أن الحراس قبضوا على أخيها سهيل بتهمة الخيانة، وأخذت تهذي وتقول :

"إنهم يكذبون فأنا لا أصدق أن أخي يخون مدينته "

سمعت نهاد صوتاً ارتعشت له خوفاً كان الصوت يقول لها:

"لقد خدعه الكلب المرشد، واحتال عليه بمكره ودهائه ".

نظرت نهاد إلى قدمها فوجدت نملة الفِطْر تمشي عليها، فمسكتها برفق، وقالت لها بدهشة :

"لم أرَ في حياتي مخلوقاً بهذا الحجم الضئيل! من تكونين؟ "

قالت نملة الفطر ضاحكة :

"نملة صغيرة لكنني أنتج غذائي بنفسي، فأنا ورفاقي نمل الفطر نزرع محاصيل نقية من فطريات معينة في حدائق تحت سطح الأرض"

تساءلت نهاد : "وكيف أفلتم من يد الحاكم الذي لا يسمح بوجود أي نوع من الحشرات أو الطيور أو الحيوانات في المدينة ؟ "

قالت لها نملة الفِطْر :

"عجباً! هل يزرع هذا الحاكم أرضاً بنفسه ؟! هل ينتج غذاءه بنفسه أم تعد حاشيته مأكله وملبسه وشرابه ؟! "

أجابت نهاد و هي تضحك لفصاحة النملة الصغيرة :

"من المؤكد أنه يلجأ إلى الخدم في كل شيء "

وتابعت نملة الفطر بحسم :

"إذن نحن أفضل منه وأجدر بالبقاء في المدينة"

قالت نهاد بجديه : "فلنرجئ هذه المناقشة الآن .. ولتخبريني بما تعرفين عن موضوع آخي سهيل"

أجابت نملة الفطر :

"أنت لا تعلمين أن حدائقنا تمتد تحت سـطح الأرض في معظم أنحاء المدينة، وتحت بلاط قصر الحاكم ذاته، ولقد أخبرتنا طلائعنا القريبة من المتحف القومي للنباتات الطبيعية بأن أخاك سهيل قد ساعد كلباً طائراً جريحاً، وأرشده إلى مكان المتحف بدون أن يعلم خطته الدنيئة لغزوه. وقد حاول أن يمنع هذه الكارثة لمَّا تكشفت له أبعادها، لكن رجال الشرطة لم يصدقوه" .

طأطأت نهاد رأسها وقالت : "ولِمَ يبوح سهيل بأسرارنا للغرباء؟"

قالت نملة الفطر :

"إنه طفل صغير قليل الخبرة ولم يقصد ذلك بالطبع "

وأضافت نهاد بقلق : "لكنه ليس بخائن"

عقَّبت نملة الفطر محاولة أن تهدئ روعها :

"لقد أنقذ أخوك هذا الكلب الطائر الناكر للجميل من الموت، وكان جزاؤه الخديعة والغدر" .

وألحّت نهاد بالقول : "لكنه لم يخنْ مدينته"

قالت نملة الفطر :

"إن طفلاً يتحلى بهذه الصفات النبيلة لا يمكن أن يكون خائناً. ولعلّه يتعلم درساً من هذه الحادثة، فلا يتحدث مع الغرباء بعد ذلك".

وسألتها نهاد بلهفة : "وكيف أخلص أخي من هذه الورطة ؟"

قالت نملة الفطر :

"فلننتظر قليلاً حتى أتلقى تقريراً من طلائعنا التي توجد تحت بلاط القصر " .

حفرت نملة الفطر حفرة صغيرة، واختفت تحت سطح الأرض دقائق معدودة ثم عادت من جديد و هي تقول لنهاد التي كانت تفرك يديها من شدة القلق :

"لقد أمر الحاكم مدير المخابرات بأن يحرر سهيل من قيوده، وقابله بوجه بشوش وأعطاه قطعة من الشكولاته، ويبدى كاتب التقرير تعجبه من هذا التصرف الغريب؛ لأن

الحاكم رجل فظ القلب غليظ اللسان، حتى أن ابنته المريضة - نشوى - تتجنب لقاءه خشية قسوته. وحدث .. .

وقبل أن تتم نمله الفطر قراءة التقرير فوجئت نهاد بقدم أحد الحراس تدوس عليها، فماتت من الفور بدون أن تطلق صرخة واحدة. انخرطت نهاد في البكاء وانكفأت على الأرض وأهالت التراب على الحفرة التي ينطلق منها نمل الفطر حتى لا يعلم الحراس بمخبئهم، لكنها فوجئت بصوت الحارس الأجش يأمرها بالنهوض ويقول لها :

"من أنت ؟ ولماذا تطوفين حول القصر ؟!"

نهضت نهاد ومسحت دموعها وأجابت الحارس :

"لقد جئت أطمئن على أخي سهيل"

رد الحارس هازئاً : "سهيل .. الطفل الخائن الذي أرشد الكلاب الطائرة إلى مكان المتحف " .

اندفعت نهاد نحو الحارس وحاولت أن تضربه بيديها الصغيرتين وهي تبكي وتقول :

"لا تقل ذلك ! إن أخي ليس بخائن ! "

ضحك الحارس بعد أن احكم قبضته على يديها، وقال لها:

" من المؤكد أنك ساعدتيه في مؤامرته، وسوف أصحبك الآن إلى الحاكم لنعرف بقية الشركاء ونستكمل كشف خيوط المؤامرة التي تحاك ضد مدينتنا " .

(٩)

شهق المستشار جرَّاء شعوره بالخزي للحاكم الذي قطب جبينه وأخذ يوبِّخ مدير الشرطة، ومدير المخابرات، ومدير المتحف لتقصيرهم في حماية المتحف ويقول لهم :

"لقد ارتكبتم جريمة كبرى في حق المدينة فبرغم ما تمتلكونه من الأجهزة الإلكترونية الحديثة التي تراقب كل شيء يجرى في الأرض والسماء، إلا أنكم لم تتمكنوا من رؤية الكلاب الطائرة قبل أن تقوم بعملية الغزو " .

قال مدير المتحف متردداً :

"لقد حدث عطل فني في أجهزة الـــرادار الرئيســـية وفي أجهزة الإنذار الإلكترونية فلم نستطع ... " .

وقاطعه مدير المخابرات قائلاً :

"إنها مؤامرة مدبرة –يا مولاي– وقد نسجت خيوطـــها بدقة " .

ثم أشار إلى سهيل وأضاف :

"وهذا الطفل الماكر هو العقل المدبر للمؤامرة، ولابد مــن أن نعرف شركاءه" .

وقال مدير الشرطة مشيراً إلى نهاد :

"من المؤكد أن أخته قد ســـاعدته في تنفيـــذ مؤامرتـــه الحقيرة".

قال لهما الحاكم ساخراً :

"هل تحاولان إقناعي بأن طفلاً صغيراً وأخته قد دبرا كـــل ذلك؟"

قال مدير الشرطة محاولاً إخفاء ارتباكه :

"فلنسأل الكلب المرشد عن حقيقة ما حدث"

أصدر الكلب المرشد عواءه المميز فسد الحاكم أذنيه وامتقع وجهه من الغضب وصاح فيه :

"فلتكف فوراً عن إصدار هذا العواء في حضرة الحاكم".

قال الكلب المرشد مستعطفاً :

"أعتذر عن الإزعاج الذي سببته لمولانا الحاكم وليسمح لي ببضع دقائق من وقته الثمين أفسر فيها ما حدث ... حقيقة الأمر أنني زرت المدينة عدة مرات لكي أتعرف إلى معالمها وأستكمل خطة الغزو ولقد التقيت سهيل وأخته نهاد مراراً، واستطعت إقناعهما بأن يساعداني في عملية الغزو مقابل إمدادهما بحصة من فواكه المتحف الطبيعية تبلغ مائة كيلو جرام " .

صرخ سهيل قائلاً : " لا تصدقوه إنه كاذب وحقير"

وقالت نهاد بصوت يختنق بالبكاء :

"هل يصدق مولانا كلباً من الغزاة ؟"

واشتد نقيق الضفادع في أقفاصها فالتفت الحاكم قائلا :

" ما هذه الضجة التي تثيرونها؟"

قال الضفدع العجوز في تأدب :

" يا سيدي، لقد حاول سهيل إنقاذ المتحف .."

أشار الحاكم إلى الضفادع لتصمت ثم قال :

" لقد رأيت كل شيء على الشاشة التليفزيونية . وأعلم أن سهيل بريء من تهمة الخيانة فلا يمكن أن يكون طفلاً من أبناء مدينتي خائناً " .

هلل سهيل من الفرح. وجرت نحوه أخته نهاد وغمرته بالقبلات، وقالت له بصوت خفيض : "أرجو أن تكون قد تعلمت مما حدث "

أمر الحاكم مدير الشرطة، ومدير المخابرات بالانصراف. وبينما هما يخرجان صرخ الكلب المرشد فيهما :

"لقد تلقيت وعداً منكما بإطلاق سراحي مقابل شهادتي

الزور ضد سهيل، فماذا أفعل الآن ؟ "

تسمر الرجلان في مكانهما وتصببا عرقاً وقال الحاكم وقد أشاح وجهه عنهما :

"لقد علمت بذلك من أجهزتي الخاصة، فـــلا تحـــاولان التبرير والدفاع، وإلا أمرت بإيداعكما السجن"

هَمَّ الاثنان بالانصراف فاستوقفهما الحاكم قائلاً :

"لقد علمت -أيضاً- أن مخازنكم تمتلئ بالفواكه الطبيعية التي نهبتموها من المتحف قبل غزوه، وطلبـــت إلى الحـــراس إحضارها إلى مخازن القصر . وسوف أقوم بتوزيعها بنفســـي على أطفال مدينتي الذين حرموا هذا العـــام نصيبـــهم مـــن الفواكه الطبيعية فأنا لا أطيق أن أرى طفلاً باكياً في مدينـــتي بدون أن أمسح دموعه بيدي"

همس سهيل لنهاد :

"إنه حاكم عادل وعطوف وطيب القلب "

وأسرت إليه نهاد : "لست اعلم لم يكرهه أبي لكنني واثقة بأنه سيغير رأيه عندما يعلم بما حدث اليوم "

خيَّم الصمت على الجميع حين دخل الطبيب مــهرولاً، واستأذن قائلاً :

"عفواً – مولانا الحاكم – فلتحضر فوراً إلى حجرة ابنتك الأميرة نشوى فإنها مريضه جداً، وتريد أن تراك "

(١٠)

اصطحب الحاكم سهيل و نهاد إلى غرفة ابنته، لعلـــهما يسرِّيان عنها فتعود إليها ضحكتها التي كـــانت تجلجـــل في القصر قبل مرضها.

ولَشَدَّ ما رأَيا، فالممرض الذي يرعى الأمـــير ة نشـــوى إنسان آلي، وكان قد أخذها بين ذراعيــــه ووضعـــها علـــى السرير، ولما هَمَّ بوضع الأغطية عليها صرخت في وجهه قائلة:

"أُغْرُب عن وجهي! لا أريد أن تلمسني بيـــدِك المعدنيـــة الباردة "

وكلما أزاحت الأميرة نشوى الأغطية عن جسدها أعادها الممرض الآلي بطريقة متكررة الإيقاع. وأخيراً نهضت الأميرة من السرير وأخذت تضربه في صدره، بيد أنه ظل واقفاً أمامها متبلداً بلا حراك أو انفعال، ثم أخذها بين ذراعيه، ووضعها على السرير مرة أخرى، وانخرطت الأميرة في بكاء مرير!

بالطبع لم يلتفت الممرض الآلي إلى بكائها، ولم يعرها اهتماما، وإنما فتح صندوقاً في صدره وأخرج أنبوبة رفيعة وقال للأميرة بصوت متقطع : "لقد حان وقت الدواء"

بدأ الممرض الآلي في زرع الأنبوبة تحت جلد الأميرة التي حاولت أن تقاومه بيديها الصغيرتين الواهنتين بدون جدوى، فاستسلمت ونظرت نظرة لائمة نحو أبيها الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة وخاطبته وهي تبكي :

"لم أرك منذ أسبوع يا أبي"

قال الحاكم لابنته معتذراً :

"كنت منشغلاً بأمور الحكم يا ابنتي فأرجو أن تقدري ظروفي. لقد تركتك في رعاية الممرض الآلي الذي يعتني بك

مثلي تماماً "

قالت نشوى بحزن :

"لقد كانت أمي – قبل موتها – تهدهدني وتمشط شعري وتحكي لي حكاية قبل النوم. وما زلت أحس بيديها الدافئتين حتى الآن . فكيف تتركني بمفردي مع هذا الوحش الآلي البارد القلب ؟ "

قالت نهاد لأخيها سهيل همساً :

"كيف يمكن أن يكون هذا الممرض الآلي بديلاً عن الأم أو الأب؟ إنني انظر لعينيه الزجاجتين فأشعر بالخوف !"

قال سهيل : "إنه لا يستطيع أن يشعر بها مطلقاً أو بأي إنسان آخر؛ لأن قلبه من المعدن وعقله كومبيوتر صغير. إنه ينفذ المهام المكلف بها حسب البرنامج المعد له مسبقاً. وهذا كل ما في الأمر"

دخل الطبيب حجرة الأميرة في أعقاب الحاكم مصطحباً معه إنساناً آلياً يشبه النموذج الذي يدرسه طلاب كلية الطب. من جسده الشفاف تظهر للرائي أوردته وشرايينه

وقلبه الممتلئ بالدم الصناعي.

عاجله الحاكم قائلاً :

"نحن نمتلك احدث المعدات الطبية، ولدينا كبار العلماء في الطب وصناعة الدواء. وبرغم ذلك فأنتم عاجزون عن علاج ابنتي ؟"

قال الطبيب خجلاً :

"لقد اخترعنا هذا الإنسان الآلي خصيصاً من أجل دراسة حالة الأمير ة نشوى، وزرعنا في جسده الجُسَيِّم المسبِّب لمرضها، فإن أحست الأمير ة بالمرض تحول لون شفتيه إلى اللون البنفسجي، وعندئذ يقوم الممرض الآلي في الحال بالإسعافات اللازمة، وإن استعادت صحتها عادت شفتاه حمراوين من جديد "

قال الحاكم محتداً : "ومتى ستشفي من دائها يا طبيب ؟!"

قال الطبيب مرتبكاً :

"لقد درسنا الجُسَيم الدقيق المسبب لمرض الأميرة بواسطة الميكروسكوب الإليكتروني وحين شاهدنا صورة مجسمة لهذا

الجسيم على الشاشة التليفزيونية تأكدنا أنه ليس من البكتريا أو الفيروسات وإنما جسيم مجهول لم نعرفه من قبـــل، وهـــو ينشط في الجو الذي تقل فيه نسبة الأكسجين النقي. واقتــلاع الأشجار من مدينتنا ساهم في تقليـــل الأكســجين وأدى إلى انتشار هذا المرض العصبي اللعين بين الأطفال في مدينتنا " .

قال الحاكم غاضباً :

"فلتكف عن هذه الثرثرة فأنا لا يعنيني أطفـــال مدينتنـــا الآن، وكل ما يهمني هو شفاء ابنتي"

نظر سهيل إلى أخته نهـــاد، وبـــدت عليـــهما علامـــات الاستنكار والشك. وإذ انتبه الحاكم إلى وجودهما، اســـتدرك قائلاً للطبيب :

"وبطبيعة الحال فإنكم عندما تكتشفون علاجاً لهذا المرض الخطير فسوف يفيد جميع الأطفال في مدينتي " .

تطلع سهيل في وجه الإنسان الآلي الممرض فوجد شـــفتيه قد تحولتا إلى اللون البنفسجي، وبدأ جسده يرتعش بشـــدة. والتفت نحو الأميرة نشوى فوجدها ترتعش هي الأخرى ويهتز جسدها، كأنها تعرضت لصدمة كهربائية.

جرى نحوها سهيل وتبعته نهاد، ووقفا أمامها وهما يذرفان الدمع حزناً عليها. وبعد لحظات عادت الأميرة إلى حالتها الطبيعية، وقالت بصوت عذب : "ما هذا الصوت الجميل الذي أسمعه الآن، هل هو تغريد لطيور حقيقية أم آلية ؟"

قال سهيل :

"إن ما سمعتيه الآن هو تغريد طيور الفردوس "

قالت الأميرة : " أنا لا أصدق ذلك "

ثم التفتت نحو أبيها وأضافت:

" أرجوك يا أبي أن تحضر هذه الطيور إلى غرفتي فأنا لم أرها منذ أن ماتت أمي التي كانت تحضرها لي سراً "

نظر الحاكم إلى سهيل ونهاد ناقماً. وهرول مغادراً الغرفة بدون أن يعير ابنته التي كانت تلح في رجائها التفاتا"



(١١)

نهضت الأميرة نشوى من سريرها، ومشت على أطـواف أصابعها وأغلقت باب غرفتها، ثم اتجهت نحو خِزانة ملابسـها، وأخرجت جيتاراً صغيراً لا يتجاوز طوله ثلاثـين سـنتيمتر، وقالت لنهاد التي كانت تنظر إلى الجيتار بدهشة :

"إنه ميني جيتار أوتاره كأوتار الجيتار التقليدي تماماً لكنـه مزود بمكبر للصوت ولقد أحضره لي سراً بابـا المستشـار. ولذلك، أخبئه في خزانة ملابسي خوفاً من أبي الذي حطـم لي من قبل هرمونيكا، وأحضر لي جيتاراً ضوئياً لا يصدر أصواتـاً وإنما صور ضوئية ملونة فرفضته .

قالت نهاد : "هل يكره أبوك الموسيقى"

وأجابتها الأميرة نشوى :

"لقد كان في خلاف مستمر مع أمي؛ لأنها كانت تعشـق الموسيقى والغناء"

وتدخل سهيل قائلاً : "لقد كانت راقصة باليه"

قالت نشوى : "وكيف عرفت ذلك "

- "لقد كان أبي زميلاً لها في فرقة الباليه"

- "وهل تعلم أيضاً أن أبي قد سرح فرقة الباليه، وأحضر بدلاً منها راقصين آليين متشابهين تماماً. لقد كانت حركاتهم محدودة، وبرغم ذلك حاول أبي أن يجعلهم يقدمون عروضاً لباليه بحيرة البجع! ففشلوا فشلاً ذريعاً، وكانوا مثاراً للسخرية والاستهزاء"

قالت نهاد بعد أن لاحظت عينيها المغرورقة :

"هل تجيدين العزف على هذا الجيتار"

قالت نشوى بعد أن مسحت دموعها :

"علمتني أمي العزف على معظم الآلات، وقراءة النوتة الموسيقية، وعلمتني أيضاً أن الموسيقى تعبر عن كل شيء: عن مشاعرنا، عن ضجيج البحر الهادر، عن صوت العواصف في الكهوف، عن تغريد الطيور، عن طعم الهواء، عن خشخشة الأشجار وضحكات الأطفال .

قال سهيل :

"لقد رأيتُ باليه بحيرة البجع في جهاز الفيديو "

فردّت نشوى : "لو علم أبي بذلك لوضعك في السجن"

وأردف سهيل : "لقد أعدم أبي الشريط مباشرة"

وقالت نهاد وقد أخذها الحماس :

"فلتعزفي لنا يا نشوى باليه بحيرة البجع، ولنرقص سوياً على أنغام جيتارك الصغير" .

قالت نشوى : "إنني مريضه ولا أستطيع الرقص "

جذبها سهيل من يدها وقال لها : "لا بأس من المحاولة"

قالت الأميرة بتردد :

"أخشى أن يغضبِ ذلك أبي فتتعرضا للأذى"

شدَّت نهاد الجيتار الصغير من يد الأميرة نشوى وبدأت في عزف باليه بحيرة البجع . ولم تستطع نشوى أن تقاوم الموسيقى فأخذت ترقص على أنغامها، لكن رداءها المصنوع

من رقائق الألومنيوم كان يقيد حركتها فخلعته بدون تـردد، وارتدت رداءاً قطنياً بسيطاً، وعادت لتشاركهما الرقص مـــن جديد. إلا أنها لم تستطع الاستمرار في ذلك إلا لفترة قصــيرة، أحست بعدها بالإرهاق وبدأ العرق يسيل من جسدها الهزيل، فجلست على الأرض وقالت لهما بعصبية :

"قلت لكما إنني مريضه، ولا أستطيع الرقص"

نظر سهيل إلى الإنسان الآلي الممرض فوجد شفتيه قـــد تحولتا إلى اللون البنفسجي بينما جسده المعدني يرتعش بشـكل ميكانيكي. التفت سهيل نحو نشوى فوجـــد نهـــاد تحتضنــها وتبكي، وتحاول أن تساعدها في النهوض، وأصابه الهلع وهـــو يرى الممرض الآلي يقصى نهاد بلا تعقل، ويحمل الأميرة عنـــوة ويلقي بها على السرير، ثم يزرع أنبوبة الدواء تحت جلدهـــا ويضع عليها الأغطية .

فتح الحاكم باب الغرفة، واتجه صوب سهيل ونهاد تســبقه كلماته:

"لقد تجاوزتما كل الحدود"

ثم انتزع الجيتار من يد نهاد وألقى به من النافذة قائلاً :



"أنتما لا تعلمان أنني امتلك جهازاً للإنذار بـــــالصوت والصورة، ولقد رأيتكما وأنتما ترغمانها على الرقص وسمعتكما وأنتما تعزفان باليه بحيرة البجع"

فوجئ الأخوان بحارس آلي يحمل مسدساً غريب الشـــكل يتوجه إليهما فتراجعا إلى الوراء، واصطدمـــا بـــالممرض الآلي الذي دفعهما بعنف وقال الحاكم ضاحكاً :

"هذا المسدس لا يقتل ولا يجرح وإنمـــا يشـــل الحركـــة فحسب، إنه يحدث صدمة كهربية هائلة قد تبلغ قوتها خمســـين ألف فولت" .

ثم أشار بإصبعه إلى الحارس الآلي الذي أطلـــق عليـــهما مسدسه الكهربائي فشلّ حركتهما تماماً ليقعـــا علـــى الأرض مغشياً عليهما .

(١٢)

وقف حاكم مدينة السكون طويلاً أمام القفص الذي يمتلئ بطيور الصعو، إنها الوحيدة -حسب علمه- التي تعرف أسرار وادي الموسيقى. أخذ يطوف حول القفص وهو ينظر ساخراً إلى أجسامها البدينة وذيولها القصيرة، ثم حدثها قائلاً :

"ما الذي أتى بكم إلى مدينتي ؟"

لم يستطع الحاكم أن يفهم شيئاً من لغوها لانغماسها في الثرثرة والصياح بصوت مرتفع، ولذلك وضع يديه فوق أذنيه وهو يقول :

"أريد أن أحَدِّث واحداً فقط "

ثم أشار إلى أحد الطيور توسم فيه علامات الحكمة، وقال له :

"لماذا طردتم من وادي الموسيقى؟"

بدت على الطائر دلائل الدهشة الممزوجة بالحزن وأجاب الحاكم بقوله : "كيف عرفت ذلك ؟"

ورد الحاكم غاضباً : "أنا أَسأَل ولا أُسأَل"

قال طائر الصعو وهو يتنهد :

"لقد طردنا من الجنة لأننا لا نستحق أن نعيش بها "

قال الحاكم ساخراً: "الجنة؟!"

- "نعم جنة الله على الأرض، فإن كنت لا تستطيع أن ترى الجمال في الطبيعة فأنت لا تستطيع أن تبصر شيئا"

دق الحاكم على القفص من شدة الاستياء، فصرخت طيور الصعو، ووَلْوَلت وانكمشت رعباً، غير أن الطائر الذي كان يحدثه لم يستسلم للخوف وقال موضحاً :

"عفواً يا مولاي ! حينما تعلم كل شيء عن الوادي فسوف تستبيحني العذر فيما أقول"

هدأت ثورة الحاكم الذي كان يريد أن يعرف كل شيء عن وادي الموسيقى وقال متعجرفاً : "أكمل حديثك من دون

إبطاء"

واستمر طائر الصعو كأنه يترنم بأغنية عذبة :

"الوادي يغطس تحت جبل المَرْو الشفاف – هكذا يبدو! يَهلُّ الصباحُ فتمتزج أشعة الشمس بالألوان الثلاثة الرئيسية الأحمر والأزرق والأصفر – بنسب مختلفة – فيتلألأ وجه الوادي بكل الألوان، وتعزف الرياح سيمفونية الصباح"

قال الحاكم متهكماً :

"هل تقود الرياح الأوركسترا في هذا الوادي "

وتابع طائر الصعو :

"النهر يقود الأوركسترا، ويعطى كلَّ صخرة دورها بدقه، ويحدد الكورس الذي يغنى كل يوم من الحيوانات والطيور التي تسكن الوادي" .

قال الحاكم متعجباً : "الصخور تعزف الموسيقى؟!"

وأجابه الطائر قائلاً :

"نعم، فالصخرة المسماة "بيضة الأوزّة" تتخللها الريح

وهتز بداخلها؛ فتصبح آله من آلات النفخ . والصخرة المُشَرْشَرة التي يطلق عليها "أجراس الخلخال" تشكلت بحيث تصبح آله من آلات النقر. أمَّا الأشجار فتمدّ فروعها لكي تعزف على "الصخرة الإكسليفون"، و"الصخرة الرَّبابة"، و"الصخرة الكَمَان" .

وأما الطحالب النهرية فإنها تبنى كل يوم على إيقاعات الموسيقى أصدافاً من الطباشير تأخذ شكل الأهرامات أو المكعبات أو المثلثات".

أصدر الضفدع العجوز نقيقاً مزعجاً، وقال للحاكم :

"لقد علمت أنك – يا مولانا – تكره الموسيقى والغناء والفنون كافة، وعلمت أيضاً أنك أودعت الموسيقيين السجون لأنهم يعزفون النشيد الوطني للمدينة، والشعراء لأنهم ينشدون، والرسامين لأنهم رفضوا أن يرسموك وأنت تقطع الأشجار، وجئت بإنسان آلي رسام قام برسم الأشجار المحطمة"

عقّب الحاكم غاضباً : "ولِمَ كل هذه الثرثرة"

قال الضفدع العجوز :

"أقصد أن أقول لماذا يهتم مولانا بـــوادي الموســيقى، بالرغم من أنه يكره الموسيقى ؟"

صرخ الحاكم في وجهه متحدياً :

"لأنني أريد أن أمتلكه، وأريد أن أمتلك ما تبقّى من هــذه الأودية والغابات في العالم بأسره؛ حـــتى أحولهـا إلى مـــدن للسكون، فيشمل السكون والهدوء سائر العالم، وأقضي علـى الضجيج في كل بقعة في الأرض"

والتفت الحاكم إلى طائر الصعو وحدثه بتقدير لم يسـتطع إخفاءه: "لقد أطلت أيها الطـائر في الحديـث عـن النــهر الموسيقار، والرياح والصخور الموسيقية . و أنا لا يعنيني كـــل ذلك.. إنما أريد أن أعرف قدرة هذا الوادي على الدفاع عـن نفسه ضد الغزاة. فهل يملك – مثلاً – جيشاً من الحيوانــات المفترسة؟"

قال طائر الصَّعْو مستنكراً:

" لا توجد حيوانات مفترسة في وادي الموسيقى "

قال الحاكم ضاحكاً :

"تعنى أنه واد مستباح يفتح بابه لأوّل طارق من الغـزاة، مثلما حدث في وادي الطيور؟"

قال طائر الصعو متسائلاً : "ومـــاذا حــدث في وادي الطيور؟ "

قال الحاكم وهو يتفَرَّس في وجه الضفدع العجوز الــذي بدت عليه علامات القلق :

"لقد أرادت بعض الطيور الصغيرة أن تخلق جنة لنفســها، وأن تعيش بمعزل عن الحيوانات المفترسة، واستطاعت أن تحقق هدفها، واستقرت في أحد الأودية، وبمرور الوقـــت فقــدت قدرتها على الطيران، وعلى الدفاع عـــن نفســها بالمناقــير والمخالب. وذات يوم ضل أحد الصيادين طريقه ودخل وادي الطيور – بمحض الصدفة– يستريح من عناء الطريق. وتحــت أحد الأشجار أخذه النوم، وعندما استيقظ اكتشف أن كلبـــه أكل كل الطيور الصغيرة الموجودة بالوادي " .

قال طائر الصعو وقد تملَّكه الانفعال :

" وادي الموسيقى لا تقهره كلاب الصيـــد أو الجيــوش الجرارة. لقد أعطته الطبيعة أسلحة سرية لا تقهر" .

وعاجله الحاكم بالسؤال متلهفاً :

"وما هي هذه الأسلحة ؟"

صرخ الضفدع العجوز في وجه طائر الصعو مهدداً :

"إياك أن تفشي أسرار وادي الموسيقى! احترس أيها الطائر العابث !"

قال طائر الصعو مستنكراً :

"كيف تتخيل أنني أخون الوادي الذي قضيت فيه طفولتي وشبابي وكنت أتمنى أن أموت في رحابه ؟

رمق الحاكم الضفدع العجوز بغيظ، ثم ضغط على أحد المفاتيح في لوحه معلقة بالحائط، وما هي إلا لحظات وحضر إنسان آلي على هيئة فرانكنشتين، وآخر في صورة دراكولا، وثالث يماثل كنج كونج، وأخذوا يطوفون حول الأقفاص، فأثاروا الرعب بين طيور الفردوس وطيور الصعو، والضفادع الطائرة . أما الكلب المرشد فقد بالَ من الرعب فيما تقترب أنياب دراكولا من وجهه.

صرخ طائر من طيور الفردوس وقال مستعطفاً :

"أيها الحاكم! سوف أقول لك كل شيء عن الأسلحة السرية لوادي الموسيقى ولتأذن بإبعاد هذه الوحوش عنا " .

نهر الضفدع العجوز طائر الفردوس قائلاً :

" أتخون وطنك أيها الطائر الجبان! لخوفك من آلات بكماء تشبه الشخصيات السينمائية السخيفة التي تبعث على الضحك ؟!"

قال طائر الفردوس :

"لم يعد وطني أيها الضفدع الفيلسوف، لقد طُردنا منه ".

قال الضفدع :

"لقد طردتم منه لأنكم رفضتم أن تساعدوا زوجاتكم في بناء الأعشاش ورعاية الصغار، ووادي الموسيقى لا يقبل المتكاسلين. فلا تجعل غضبك يدفعك إلى الخيانة !"

قالت طيور الفردوس لرفيقها :

"إن الضفدع العجوز على حق فيما يقول فنرجوك ألا تفشيَ أسرار الوادي لأحد !"

لم يستطع الحاكم أن يتمالك نفسه من الغضب، فوضع يده في قفص الضفادع الطائرة وأخرج أحد الضفادع الوليدة، وحطه على المنضدة وأمر الحارس الآلي بأن يقتله . حاول الضفدع الوليد أن يطير هارباً، لكن خبرته المحدودة بالطيران لم تسعفه. مد الحارس الآلي ذراعه المفصلية ذات الأصابع الضخمة وضغط عليه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة!

وعلق الحاكم بينما الطيور والضفادع تبكي رفيقها الذي رحل :

"هذا جزاء من يدعى البطولة "

(١٣)

دخل المستشار العجوز غرفة الأميرة نشوى حاملاً سله من الزهور الصناعية، تهللت نشوى فرحاً وحاولت النهوض من سريرها كي ترتمي في أحضانه ولكنها سقطت على حافة

السرير من شدة الإعياء والوهن .

اتجه الممرِّض الآلي إلى الأميرة فصرخت قائلة :

"أرجوك أن تبعده عني !"

ضغط المستشار على أحد الأزرار الصغيرة في ساعة يـده، فانطلق شعاع بنفسجي اللون نحو قلب الممرض الآلي؛ فشُـلّت حركته تماماً، وأسرع المستشار يساعد الأميرة على النـهوض، وقبلها في جبينها وقال لها ضاحكاً :

"لقد تلقيت هذه الساعة الإلكترونية هديه من أمك رحمها الله، إنني أدْرَأُ بها شر هذه الآلات المجنونة، وأستخدمها أحيانـا لإضاءة المصباح وجهاز الفيديو وإشعال غلاية القهوة "

قالت نشوى بأسى :

"ليتني أمتلك واحدة مثلها، حتى أستطيع أن أسترد حريتي وأتجول في القصر كيفما أشاء، وأجوب شوارع المدينة وأحيـا كما يحيا البشر في كل مكان "

قالت الأميرة نشوى ذلك، ثم نظرت بغضب إلى ســـلة الزهور الصناعية التي يحملها المستشار وأشاحت بوجهها عنها.

قال لها المستشار ضاحكاً :

"لم أر أحداً يكره الزهور الصناعية بقدر ما تكرهينها !"

وردت نشوى بعصبية :

"فلِمَ جئتني بها وأنت تعلم مدى كراهيتي لها ؟!"

ألقى المستشار بالزهور على السرير، وأخرج من السلة جيتاراً صغيراً وساعة يد صغيرة تشبه التي يرتديها، وقال للأميرة :

"هذا الجيتار هديه لك بدلاً من الجيتار الذي قذفه والدك من النافذة، وأما الساعة فلقد كانت وديعة عندي منذ سنوات عديدة، وكنت أترقب اللحظة المناسبة لكي أسلمها إليك"

قالت نشوى بلهفة :

"هل هذه الساعة الإلكترونية هديه من أمي ؟"

– "نعم يا بُنَيَّتي"

– ولم انتظرت كل هذه السنوات ؟"

طأطأ المستشار رأسه خجلاً وقال لها :

"خشيت من عقاب أبيك، وأنا رجل عجوز لا أحتمل التعذيب في سجنه الرهيب "

قبلته نشوى في وجنتيه وقالت له :

"منذ أن ماتت أمي وأنت تفعل الكثير من أجلي، ولا أحتمل على الإطلاق أن يمسسك ضرر أو أذى "

دمعت عينا المستشار وقال للأميرة :

"فلترتدي ساعتك الإلكترونية الآن، وسأدربك على استخدامها"

أشار المستشار إلى الحائط الذي يقع خلف سرير الأميرة، وطلب إليها أن تضغط على زر صغير، ففوجئت بنافذة صغيره تنفتح!

قال المستشار، وقد أصابت الأميرة الدهشة :

"إنها تُطِلُّ على صالة الإبداع والتأمل التي يعتكف فيها أبوك حينما يواجه مشكله عويصة " .

نظرت نشوى من النافذة تستطلع هذه الصالة العجيبة التي صُمِّمت على شكل كرة عملاقة كُسِيَت جدرانها برخام الجرانيت، وسقفها بصفائح من البلور تعكَس لون السماء ونور الشمس وتراجعت قليلاً حينما رأت أباها يتجه نحو صالة الإبداع والتأمل مصطحباً شخصاً مكفهر الوجه يصيح في وجه أبيها :

"إني اعترض على غزوك لوادي الموسيقى "

التفتت نشوى نحو المستشار، وقالت له :

"لأول مره أرى في هذه المدينة إنسانا شجاعاً يتحدى إرادة أبي!"

قال المستشار ساخراً : "إنه إنسان آلي"

وتعجبت نشوى وقالت: "لكن ملامحه تشبه الإنسان تماماً"

قال المستشار بصوت متهدج :

"أرجوك ألا تفشى هذا السر وإلا تعرضت للموت شنقاً"

صاحت الأميرة بعد أن تفحصت وجه الإنسان الآلي بدقة :

"لقد رأيته من قبل في التليفزيون ....إنه الوزير الـ..."

قال المستشار ساخراً :

"الوزير المشاكس المختص بشئون الثقافة، المعترض دوماً على جميع القرارات"

قالت نشوى : "إن كل سكان المدينة يتحدثون عن شجاعة هذا الوزير ولا يعلمون أنه إنسان آلي"

قال المستشار :

"لقد صُمِّمَ عقل هذا الإنسان الآلي – وهو عبارة عن كمبيوتر صغير – بحيث يعارض الحاكم في البداية، ثم يتفق معه في النهاية على القرارات كافة، وبذا تبدو مدينة السكون أمام أجهزة الإعلام الأجنبية مدينة للحرية، تفتح صدرها لكل إنسان ليعبر عن رأيه بصراحة، والناس لا يعلمون أنَّ كل ذلك مجرد مسرحية هَزْلِيَّة"

قالت له نشوى :

"أي مجرد دمية يحرك أبي خيوطها كما يشاء "

ثم صمتت لحظة وأضافت :

"لكنني لا أفهم لم اصطحبه أبي لصالة الإبداع والتأمل؟"

قال المستشار في تهكم :

" لقد ألفَّ أبوك هذه المسرحية الهَزْلية وصدقها. أصابه الملل من المنافقين المحيطين به، الذين يقولون " نعم " على الدوام، ووجد نفسه في حاجه إلى من يقول له" لا "، حتى يستطيع أن يشحذ ذهنه ويفكر في مشكلاته العصية، ومن أجل ذلك، أمر بصناعة عدد من الوزراء الآليين على شاكلة الوزير المشاكس "

قالت نشوى بذهول :

"تعنى أن كل شيء حولي مزيف! يا إلهي! أرجوك أن تساعدني على الفرار من هنا !"

لم يستطع المستشار أن يتمالك نفسه فاحتضن الأميرة نشوى وأجهش في البكاء ..



(١٤)

دخل المستشار صالة الإبداع والتأمل، تلبية لاستدعاء وَصَلَهُ من الحاكم لأمر عاجل. استأذن المستشار، فأشار إليه الحاكم بالدخول بدون أن يلتفت إليه. كانت عينا الحاكم أسيرة الوزير المشاكس الذي يصرخ في وجهه قائلاً :

"لن أسمح لك بغزو وادي الموسيقى لأنك تريد أن تشوه وجهه الجميل باقتلاع أشجاره وزهوره وردم أنهاره وقتل حيواناته وطيوره كما فعلت بمدينتنا – التي كانت في الأيام الغابرة وطناً للأشجار والزهور، وللأنهار والطيور والفنون والآداب. لقد امتدت يدك الطويلة لتجعل نصف العالم على الأقل وادياً للسكون والموت والخراب " .

وأخذ الوزير الآلي يكرر اعتراضه بدون كلل أو ملل، ومن دون أن يتراجع عن موقفه كالمعتاد ويؤيد رأى الحاكم.

اكفهر وجه الحاكم وامتقع لونه وقال للمستشار :

"هذا الوزير فَقَد عقله ! لقد كنت أحترمه من قبل؛ لأنه كان الإنسان الوحيد الذي يعارضني ولكنني كنت أنجح دوماً في إقناعه بتغيير موقفه، ولم أتصور مطلقاً أنه يوجد إنسان واحد في هذا العالم يصر على تحدى إرادتي بهذه الجرأة والوقاحة"

قال المستشار مأخوذاً :

" هل نسيت يا مولانا أنه مجرد إنسان آلي صممه العلماء بحيث يبدو معارضاً لك في البداية ثم يؤيد رأيك في النهاية .

الواضح أنه قد حدث في عقله الإلكتروني خلل فني. من الممكن أن نرسل به إلى المصنع لإصلاحه على وجه السرعة "

قال الحاكم ثائراً :

"إنسان آلي ؟! لقد جننت أيضاً ! كيف تتصور بعقلك المشوش أنني أُعَيِّنُ إنسانا آلياً وزيراً للثقافة ؟"

وأجاب المستشار في هدوء :

"لقد أصدرت أمراً منذ أيام قليلة لصنع عدد من الوزراء المشاكسين على شاكلته في مصنع الوزراء الذي يديره مدير

آلي، يقوم بصنع المخلوقات الآلية، وفيه عمال آليون أيضاً، ولا يوجد به بشر على الإطلاق " .

وزّع الحاكم نظرات مترددة بين المستشار والوزير الآلي، الذي لم يتوقف عن الكلام، وعن إبداء اعتراضه على غزو وادي الموسيقى ثم صرخ مستدعياً الحراس وقال لهم :

"فليعدم هذا الوزير في الحال في الساحة الكبرى بتهمه الخيانة العظمى والتحالف مع أعدائنا في وادي الموسيقى " .

صرخ المستشار قائلاً :

"كيف تصدر أمراً بإعدام إنسان آلي ؟! إن من حقه أن يحمي وجوده طبقاً لقانون المخلوقات الآلية، وقد يؤدى ذلك إلى كارثة لأنه مسلح بمسدسات الصدمة الكهربائية التي تشل الحركة، وبقنبلة النيوترون التي ترسل إشعاعاً مميتاً للكائنات الحية ولا تدمر المنشآت، وسلاح الليزر الذي يرسل إشعاعاً يستطيع أن ينفذ من الحوائط الصلبة بدون عناء، , ..."

قاطعه الحاكم متسائلاً في حيرة :

"من زوّده بكل هذه الأسلحة الحديثة "

أجابه المستشار :

"العمال الآليون في مصنع الوزراء هم الذين فعلوا ذلك طبقاً للتعليمات التي صدرت إليهم من الحاسوب الإلكتروني المركزي " .

تقهقر الحراس إلى الخلف خوفاً وهلعاً مما سمعوه، لكن الحاكم صرخ في وجوههم قائلاً :

"فلتقبضوا عليه فوراً أيها الجبناء"

تقدم أحد الحراس يجر أقدامه جراً نحو الوزير الآلي، وهَمَّ بالقبض عليه، فأطلق الوزير حزمةً من الليزر اخترقت يده وأسقطت منها المسدس، ففر الحارس مذعوراً وهو يصرخ من الألم، وتبعه الحراس الآخرون يرتعشون من الرعب غير مبالين بصيحات الحاكم وتهديده .

لم يتوقف الوزير الآلي عند هذا الحد، وبدا أنه سيهاجم الحاكم ليقضي عليه . تجمد الحاكم من الفزع، وقال للمستشار بصوت مرتعش :

"فلتفعل شيئاً إنه سيقتلني !!"

ضغط المستشار علـــى أحـــد الأزرار في ســـاعة يـــده الإلكترونية فتوقف الوزير الآلي في مكانه، وفقد القدرة علـــى الحركة. أفاق الحاكم من صدمته، وسأل المستشار مندهشاً :

"كيف استطعت أن توقف هذا الوحش"

أشار المستشار متردداً إلى ساعته الإلكترونيـــــة، وقـــال للحاكم :

"أوقفته بهذه الساعة الصغـــيرة – يـــا مـــولاي– هـــل تذكرها؟"

قال الحاكم شارد الذهن :

"لقد صنعها أحد العلماء منذ سنين طويلة لكي يقهر بهـــا المخلوقات الآلية، وقد أصدرت أمرا بإعدامه "

قال المستشار بصوت متهدج :

"لقد كان هذا العالم الجليل يخشى أن يصبح الإنسان عبداً للآلة، وفقد عمره من أجل أن يوقف هذا الكابوس"

قال له الحاكم متنبهاً :

"لقد أخفي هذا العالم ساعته الإلكترونية، وفشل الحراس في العثور عليها لأنهم لم يفتشوا بيتك أيها المستشار المُبَجَّل !:

قال المستشار : "أنقذتُ بها حياتَكَ الآنَ "

قال الحاكم معنفاً : "لكنك خُنْتَني حينما أخفيتها عنى "

وصمت الحاكم لحظة وأضاف :

"هذا العالم صنع ساعتينِ، فأين هي الأخرى ؟"

أجاب المستشار في ثبات : "لا أَعلمُ"

قال الحاكم مهدداً :

"سوف أعزلك من منصبك إن لم تذكر الحقيقة الآن "

أجاب المستشار بإصرار : "لا أعلم"

أمسكه الحاكم من كتفيه وهزه بعنف قائلاً :

"سوف أُلقي بك في غياهب السجون "

وكرر المستشار بهدوء: "لا أعلم "

صرخ الحاكم :

"سوف أُصدرُ أمراً بإعدامك."

وأصرَّ المستشار على موقفه، ولم يُضعِف هـذا الوابل المستمر من التهديد والوعيد موقف المستشار، الذي أحس بالارتياح العميق واحترام الذات لأنه استطاع أن يفعل ذلك لأول مرة في حياته .

(١٥)

نظر الحاكم صوب الباب فوجد ابنته نشوى تقف أمامه دامعة العينين فسألها مترعجاً :

"كيف استطعت المجيء إلى هنا ؟!"

قالت الأميرة نشوى وهي تبكي :

"رأيت الحراس يفرون مذعورين مـــن صالـــة التـــأمل والإبداع فخشيت أن يكون قد حدث لك مكروه فأتيت مـــن الفور "

وواصل الحاكم أسئلته محتداً :

"كيف استطعت الإفلات من الممرض الآلي والأبـــــواب الإلكترونية والحراس الآليين، من المؤكد أن هـــذا المستشـــار الخائن قد أعطاك الساعة الأخرى التي أبحث عنها "

تراجعت نشوى إلى الخلف وقالت بصوت مخنوق :

"كلا لم يعطني شيئاً. أرجوك ألا تؤذى بابا المستشار!"

قال الحاكم هازئاً :

"بابا المستشار ؟! إنه ليس بأبيك أيتها الأمير ة، إنه واحـــد من العاملين تحت إمرتي وبإشارة من إصبعي يحيا أو يموت " .

اقترب الحاكم من ابنته وهو ينظر إلى ساعتها الإلكترونية ومد يده لينتزعها من يدها، فتقهقرت إلى الخلف صارخة :

"كيف تكون أبي وتفعل بي ذلك ؟! منذ أن ماتت أمـــي لم

أرك إلا قليلاً، حرمتني الحياة وحبستني في غرفتي وحطمت آلاتي الموسيقية واقتلعت الشجرة التي كنت أطل عليها من نافذتي، وجعلتني أشيخ وأنا ما زلت في العاشرة "

أحس الحاكم بالارتباك وتصبب عرقاً، وقال لابنته بصوت متحشرج : "لقد أصابك مس من الجنون فأنت ابنتي التي أحب أن أصنع مستقبلها الباهر بيدي ".

قال لها ذلك وهو يقترب منها رويداً رويداً

وردت الأمير ة و هي تتراجع إلى الخلف رويداً رويداً :

"لم تعطني الفرصة لصنع مستقبلي مثلما أحب أنا. حرمتني إبداء رأيي في أي شيء يخصني، في ملبسي ومأكلي ومشوبي، حتى السرير الذي أنام عليه والموسيقى التي أحبها، وأخيراً أودعت السجن الطفلين اللذين مدا إليّ يد الصداقة، والآن تريد أن ترحمني بابا المستشار الذي كان عطوفاً عليَّ كأمي، ويحترم رغباتي، وقد يعترض على بعضها دون أن أغضب "

قال الحاكم بصوت بارد : "لقد خانني أيتها الأمير ة ولابد من إيداعه السجن "

قالت نشوى دامعة العينين :

"سوف أترك لك هذا القصر أيها الحاكم وسوف أذهب إلى وادي الموسيقى "

التفت الحاكم نحو المستشار وقال له :

"لقد أفشيت لها بكل الأسرار، وزينت لها الضلال، وجعلتها تتمرد ضدي. إن عقابك سوف يكون أغرب من الخيال أيها المستشار العجوز الماكر "

انتقل إلى ابنته وأضاف : "أما الأمير ة فلن تستطيع مغادره القصر فهي تعلم انه محصن بنظم الإنذار بالصوت والضوء والأبواب الإلكترونية والحراس الآليين"

وردت الأمير ة نشوى و هي تبتسم :

"يكفيني شرف المحاولة أيها الحاكم! "

(١٦)

وقف الكلب المرشد مذهولاً أمام السيارة الفارهة، الـتي يبلغ طولها نحو عشرين متراً، المزودة بفيديو -تلفون،ومكتبـة، وتليفزيون، وصالون، وحمام سباحة، وتجـرى علـى عشـر عجلات .

قال الحاكم الذي كان يستعد للقفز في حمام السباحة .

"مرحباً بمستشاري الجديد الذكي !"

ولما قفز الحاكم في الماء تناثر الرَّذَاذ على وجـه الكلـب المرشد، الذي ما إن أفاق من صدمته حتى فوجئ بتيـار مـن الهواء الساخن يجفف وجهه في لمح البصر، فاعتدل في مكانه في وقار .

جلس الحاكم في صالون سيارته الفاخرة، واسـتدعى الكلب المستشار للمثول أمامه، بعد أن رشَّتِ السيارةُ جسـدَه بزجاجة عطر كاملة وقال ضاحكاً .

"كل من يدخل مدينتي يحدث له هذا الانبهار بـــالتقدم المذهل الذي تلاحظه في مختلف جوانب الحياة "

قال الكلب المرشد منافقاً :

"لقد طفت بمدن كثيرة، ولم أرَ مدينة متقدمة مثل مدينـــة السكون"

ربت الحاكم على كتفه مغتبطاً، وقال له :

"إن تقديرك لمدينتي يؤكد أنك كلب ذكي، تســاير روح العصر، وأما الأغبياء الذين مــا زالــوا يحلمــون بالطبيعــة والأشجار والأنهار والطيور التي تهاجر عبر القارات، وعطـــر الزهور في الغابات، فليس لهم مكان في مدينتي" .

قال الكلب المرشد متملقاً:

"هل أُسِرُ لمولانا الحاكم بالقول إنــــني لم أذق في حيـــاتي فواكه أحلى من الفواكه الصناعية التي تنتجها مصانعكم!"

قال الحاكم متودداً وهو يخرج من ثلاجته تفاحة صناعيــة ويناوله إياها .

"أيها الكلب! لقد عينتك مستشاراً لي، مكافأة لإخلاصك وولائك، وتقديراً لخطتك الماكرة في غزو وادي الموسيقى"

قال الكلب المرشد، بعد أن أحدث ثقباً في تفاحته بأسنانه الصناعية التي ركبها له الطبيب الخاص للحاكم .

"لقد انتشر خبر هذا الوادي بين الناس في مدينتكم، والكثير منهم يحلمون بالسفر إليه. ولأنني مقتنع تماماً بأن وجوده يشكل خطراً على مصلحة مولانا فقد شحذت قريحتي ليلاً ونهاراً حتى توصلت إلى خطه لغزوه. فلو هرب كل الناس من مدينة السكون إلى وادي الموسيقى لما بقى لمولانا شعب يحكمه"

قال الحاكم متأففاً :

"لقد ضلَّلتني الصور التي أرسلت بها الأقمار الصناعية عن هذا الوادي. فتارة نراه مجرد نهر كبير تظهر على جانبيه أشكال غريبة من صفوف الأعمدة المدورة والمستوية عند القمة، وتارة أخرى نراه مجموعه من القِلاع البيضاء. وإحدى الصور التي أذهلتني أظهرت هذا الوادي كمجموعة من الصخور الفضية المكعبة، شديدة اللمعان. وأما آخر الصور

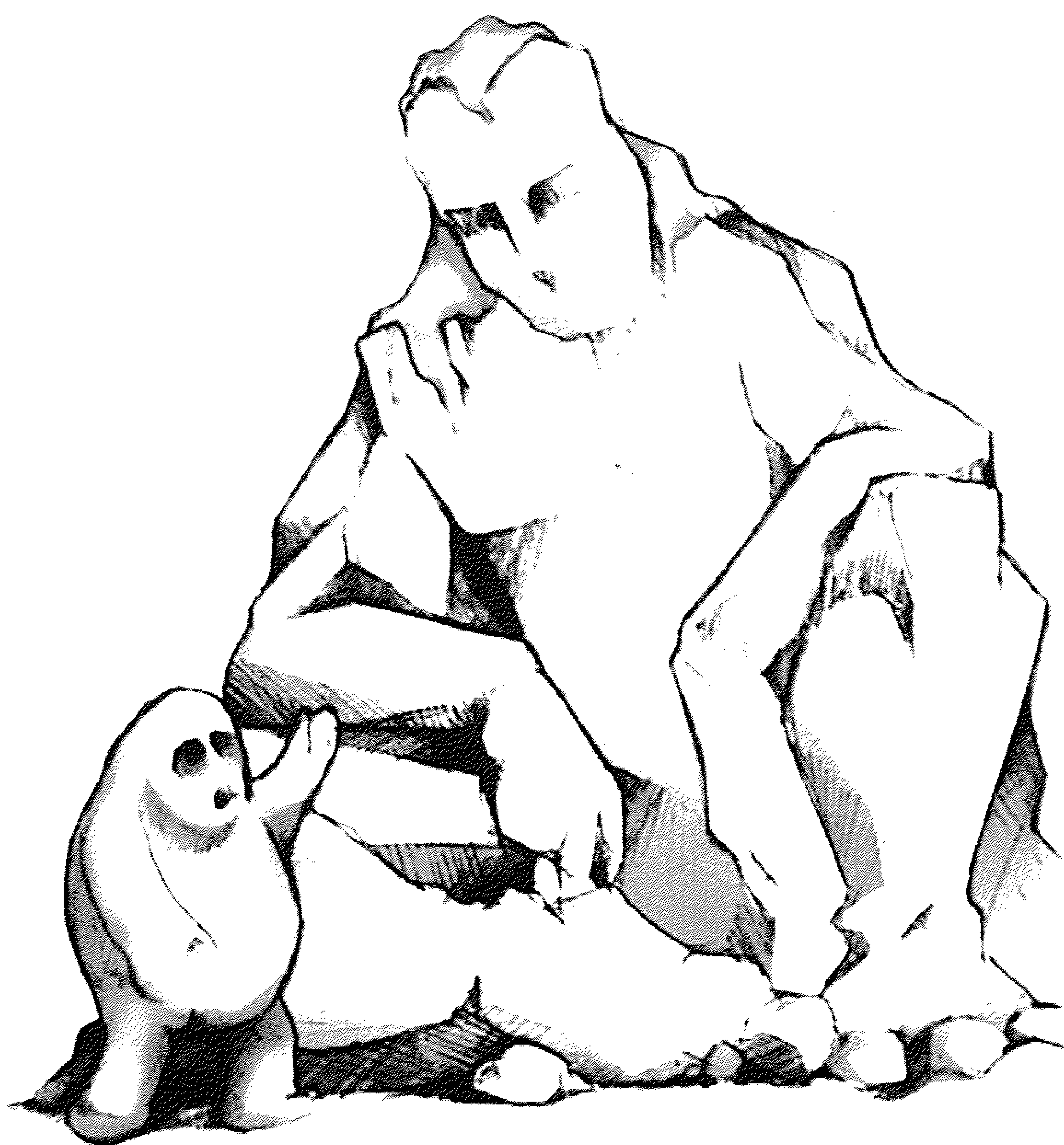
التي وصلتني فتبينه على شكل لؤلؤة بنفسجية كبيرة تشـــع بالضوء!"

قال الكلب المرشد ضاحكاً :

"إن وادي الموسيقى هو وادي العلماء يا مولانا. أنه يضـــم مجموعة كبرى من العلماء في شتى المجالات، يندر وجودهـــم – حقاً – في مدينة أخرى. فهناك الفيل الأبيض عالم الفلك، وأبو قِردان عالم الحشرات، وطائر أبو مِنْجَل الأبيض عـــالم الميـــاه العذبة، والبَبْغَاء المتخصص في اللغة والصوتيات لمقدرته علـــى تقليد أصوات البشر والحيوانات والأصـــوات الميكانيكيـــة. وهناك عالم الموسيقى البُلبُل، الذي يعدُّ من أفضل طيور العـــالم تغريداً، والزرافة أطول حيوان يعيش على الأرض الآن وهـــي متبحرة في علم النبات، والسَّمَّام عالم الجغرافيا، الذي لا يقـــع على الأرض أبداً ويمكنه أن ينام في أثناء الطيران، والحِصـــان الأشْهَب المتخصص في علم الوراثة وتطور السلوك، والحصـــان القرمزي عالم الأخلاق، والأرنب البرى عالم الفيزياء .. "

قال الحاكم متململاً :

"كفى كفى، لقد أسهبت في الحديث"



قال الكلب المستشار :

"غايتي أن أوضح لمولانا أن هؤلاء العلماء يسيطرون على الطبيعة تماماً، بالمحبة والأُلْفة والصداقة والعَطَاء المتبادَل. فهم يسمحون للرياح مثلاً بأن تنام في قلاعهم البيضاء عندما يحل بها التعب، ويسمحون للشمس بأن تمارس لعبتها المفضلة بأن تسلط ضوءها على الحجر الفلورى فيتألق ويطلق ضوءاً أزرق بنفسجياً جميلاً وتضحك هي طرباً وسروراً.. يا مولاي إنهم يستطيعون في وادي الموسيقى تضليل الأقمار الصناعية باستخدام الرياح والشمس وضوء النجوم، فإذا اكتشفت الشمس قمراً صناعياً يتجسس على الوادي فإنها تمزج أشعتها بالألوان الثلاثة الرئيسية الأحمر والأزرق والأصفر بنسب مختلفة لتغطي وجه الوادي بألوان مختلفة من الأشعة فتضلل كاميرات التصوير في القمر الصناعي"

كان الحاكم يستمع إلى مستشاره الجديد بإعجاب واهتمام، حتى دخل أحد الحراس قائلاً :

"عفواً يا مولاي! إنني أحمل أنباءً سيئةً. لقد ساعدت الأميرة نشوى المستشار العجوز والطفلين سهيل ونهاد والموسيقيين والشعراء والرسامين على الهروب من السجن،

ويسرت سبيل الفرار لطيور الفردوس والصعو والضفادع الطائرة "

لم تبد أية بادرة للانزعاج على وجه الحاكم الذي أمر الحارس بالانصراف في هدوء، ثم قال للكلب المستشار ضاحكاً :

"لقد بدأت خُطَّتك الماكرة لغزو وادي الموسيقى في التحقق. فلنتبعهم الآن، وسوف يساعدوننا في غزوه، بدون أن يدركوا ذلك"

(١٧)

اكتست ملايين القطرات من الندى المتطايرة على جبل المَرْو الشفاف بجميع ألوان قوس قُزَح؛ حينما تلألأت أشعة الشمس .

قال جبل المرْو الشفاف متململا للأشعة فوق البنفسجية التي كانت تدلّك جسده كي تطهره من البكتريا والجراثيم

الضارة :

" هذا يكفي .. لقد نلت جرعة كافية، ولا احتمل المزيد"

ثم مد ذراعيه وأضاف :

" انظري لهذا الاحمرار! أن جلدي يكاد يلتهب " .

قالت الأشعة فوق البنفسجية وهي تتصبب عرقا :

" ألا تخجل من نفسك – أيها الجبل الناكر للجميل – فلو أنني امتنعت عن زيارتك يوماً واحدا لغزت البكتيريا جسدك البلوري ولصرت هشا مثل عيدان القش " .

تمطّت فيتامينات الجو وقالت :

" ولن يقف الأمر عند هذا الحد فسوف تنتشر في وادي الموسيقى شتى الأمراض، ولن أستطيع أن أمارس دوري اليومي في القضاء على الأحياء الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة، وتنتشر أمراض القلب والرئتين بين حيوانات وطيور الوادي لأن هذه الأحياء سوف تلتهم نسبة كبيرة من أكسجين الجو"

قالت الأشعة فوق البنفسجية لصديقتها :

" وسوف تتسمَّم مياه النهر وسيهلك كل ما هـو حـي فيها"

انتفض جبل المرْو الشفاف غضبا، حتى كادت تقع مـن كتِفه الأيسر الأشعة فوق البنفسجية، ومـن كتفـه الأيمـن فيتامينات الجو وقال لهما :

" لقد جعلتما بدني يقشعر لهذا الكلام الخطـير، فأنتمـا تشككان في إخلاصي لهذا الوادي الذي عشت في رحابه منـذ آلاف السنين، لكنني أفكر قليلا في كلامكمـا، فـأجد أنـه يتضمن قدرا كبيرا من المبالغة؛ فالبكتريا النافعة تقوم بتنظيـف مياه النهر يوميا بدون كلل أو ملل ".

قالت فيتامينات الجو :

" الجهل لا يعفي من المسـئولية؛ فالبكتيريـا النافعـة لا تستطيع أن تستمر في تنظيف الماء بدون أن تكون فيه كميـة كبيرة من الأكسجين الحر "

تدحرجت قطرة ندى على وجه الجبل الذي احمرَّ خجـلا

وقالت : " كفاكما توبيخاً ولَوْمًا "

وقبلت قطرة الندى الجبل في وجنتيه ومرت على ذراعــه الملتهبة وقالت له :

" إن البكتريا الضارة هي التي تسببت في إصابة ذراعــك واحمرارها . ولقد قامت صديقتك الأشعة فــوق البنفســجية بالقضاء عليها " .

أحس جبل المرْو بالخزي وأخذ يفرك يديه خجلا. وقــال للأشعة معتذرا : " سوف أُكفّر عن ذنبي بأن أجعلك ترقصــين على جسدي كما تشائين "

قالت قطرة ندى :

" فلتكفّا عن الكـــلام الآن، ولتنصتــا معــي إلى هــذا الصوت".

أرهف جبل المرْو الشفاف السمع وقال :

" إنه وقع أقدام بشرية فلنحذر سكان الوادي من هــــذا الخطر فورا !! "

سمحت الصخور للرياح بأن تسرى فيها وتدافعت بقوة وسرعة محدثة أنغاما موسيقية هائلة أيقظت سكان الوادي من نومهم فاندفعوا نحو السور ليتبينوا ما حدث .

(١٨)

طار الضفدع العجوز حول الأمير ة نشوى، إذ لاحظ الدموع المنهمرة من عينيها، ووجهها الذي يشوبه الاصفرار وسألها في إشفاق:

" لم تبكين يا أختاه ؟ "

حاولت نشوى أن تتمالك نفسها بدون جدوى، وانخرطت في البكاء. التَفَّ الموسيقيون والرسامون و الشعراء حولها، يحاولون معرفة سر بكائها لكنها أشاحت بوجهها، وقالت :

" دعوني بمفردي ... لا أريد أن أتحدث مع أحد ! "

وسألها طائر من طيور الصَّعْو :

" هل أنت حزينة لأنك غادرت مدينة السكون، أم لأنك افترقت عن أبيك ؟ "

وأخيرا، حطٌّ أحد الطيور الفِرْدَوْس على كتِفها، وهمس في أذنها قائلا :

" شتَّان الفارق – أيتها الأميرة – بين القصر المنيف، والفراش الوثير، والطعام الفاخر الذي يقدمه الخدم إليك في السرير، وما تلقينه الآن من عناء السير في الصحراء والجوع والعطش .. إن كنت نادمة على ما فعلت؛ فارجعي من حيث أتيت " .

رمقه الضفدع العجوز بازدراء وقال له :

" لا تكن فظا غليظ القلب، واتركها لحالها " .

مشى الضفدع العجوز صامتاً، يداه إلى ظهره يتفحص الأميرة صامتا مليًّا. بين الحين والآخر كانت الأميرة تمشي بتثاقل وقد بدا عليها الإعياء والوهن ثم قالت بصوت خفيض:

"أكاد أموت من العطش"

طار الضفدع نحو المستشار، وأخذ زمزميته وأعطاه لهـــا، فشربت قدراً قليلاً من الماء، وأعادت إليه الزمزميـــة، وحيتـــه بإيماءة من رأسها، وسألها الضفدع العجوز مرتاباً :

"هل ارتويت أيتها الأمير ة ؟"

قالت نشوى :

"لقد اكتفيت بأن بللت حلقي، فالماء شحيح ولابد من أن نقتسمه سوياً بالعدل"

قال الضفدع العجوز :

"ولكنك مريضه، ويجب أن تنالي ما يحتاج إليه جســـدك العليل من الماء"

صرخت نشوى في وجه الضفدع العجوز :

"لست بمريضه ... لست بمريضه!!"

وبينما هي تصرخ بانفعال، أخذت عيناها تزوغ، ثم بدأت تترنح يمنه ويسره حتى سقطت على الرمال الملتهبـــة فـــاقدة

الوعي.

أسرع المستشار يحمل الأميرة على ذراعيه، وحاول أن يسقيها لكنها ضمت شفتيها، وتشنجت عضلات وجهها وأخذت تزوم وتئن، وغمغمت قائلة :

"ابتعد عني أيها الممرض الآلي :فأنا لا أريد أن تلمسني بيديك المعدنية الباردة"

قال المستشار دامع العينين للضفدع:

"لقد قاست هذه الطفلة المسكينة الكثير "

قال الضفدع العجوز : "إن الهموم التي تمر بها أكبر من سنها، ولا شك في أن موقفها من أبيها يعذبها"

وأجاب المستشار :

"الطاعة للوالدين واجب في الحق، وليس في الباطل. فكيف تطيع نشوى أباً ظالماً، وقع ظلمه عليها مثلما وقع على غيرها ؟ "

تلفت الضفدع العجوز حوله، وقال للمستشار بقلق :

"أين سهيل ونهاد ؟"

اقترب طائر الفردوس الذي كاد يفشي أسرار الوادي إلى حاكم مدينة السكون ورد قائلا :

"كنت ظمآنا، فأعطيتهما دلوا، وأرشدهما إلى بئر قريبة، لكنهما تأخرا كثيرا، ولقد جف حلقي، وأريد أن أشرب" .

قال الضفدع العجوز ساخطا :

"إنك طائر أناني لا تحب إلا نفسك! ألا تدرك أنهما طفلان صغيران وقد يضلان الطريق في هذه الصحراء الشاسعة. وربما يسقطان من الإعياء أو العطش أو يصابان بضربة شمس تودي بحياتهما"

قال طائر الفردوس بغيظ وعدم لياقة :

" أنا لم أرتكب جريمة! لقد أردت أن أشرب ولقد تطوعا بإحضار الماء لي فلم تدس أنفك فيما لا يعنيك ؟! أرانا لم نعينك قاضيا علينا لتتحكم في مصائرنا !"

أفاقت الأميرة نشوى على صوت ثرثرة طيور الصعو، ونقيق الضفادع، وصياح الرسامين والموسيقيين والشعراء

الذين كانوا يحاولون الإمساك بطائر الفردوس الأناني، الـذي طار مذعوراً نحو رفاقه محتمياً بهم لكنهم رفضوا حمايته، وقـالوا له :

"لابد من أن تنال عقابك العادل لما فعلته بسهيل ونهاد "

قالت الأمير ة نشوى للمستشار الذي يحملها فوق ذراعيه ويضمها إلى صدره : "ماذا حدث لسهيل ونهاد ؟"

وقبل أن يهم بالإجابة، كان سهيل ونهاد قـادمين وهمـا يصيحان من الفرح :

"لقد رأينا وادي الموسيقى، وطفنا حوله، ورأينا جبل المرو الشفاف، واللؤلؤة البنفسجية، واللؤلؤة الزرقاء، والصخـور الفضية المكعبة الشكل، والقلاع البيضاء والأهرامات الصغيرة التي تشع بالضوء. إنها الجنة التي طالما حلمنا بها"

نكس الضفدع العجوز رأسه وقال للشعراء والرسـامين والموسيقيين في قلق :

"أرجو أن يسمحوا لكم بـالدخول !! فـهم لا يثقـون بالبشر على الإطلاق" .

(١٩)

لدى سماعه صوت الأبواق النحاسية، قفز الأرنب البرى عالم الفيزياء وتبوَّأ سور الوادي، وظل جاثماً في موضعه، حتى رأى الغرباء قادمين. فتطلع إلى السماء وطلب إلى الشمس أن تمزج أشعتها بنسب معينة؛ لتغطي الوادي باللون الأزرق. وسألته الشمس :

"لماذا اخترت هذا اللون بالذات؟"

فأجابها الأرنب البري العالم وهو يهز ذيله القصير :

"إنه يؤدي إلى خفض ضغط الدم، وإبطاء إيقاع القلب والتنفس، فيجعل الغرباء يشعرون بالسلبية والوَهَن " .

وإلى الرياح تضرَّع الأرنب البرى قائلاً :

"أرجوك أن تسرعي بالمرور عبر ثقوب صخور الضجيج، كي تبدأ في العويل والصرير والدق والصفير؛ لنرهق الجهاز

العصبي للغرباء "

اقترب سهيل ونهاد من سور الوادي، واعترتهما الدهشة فتقهقرَا إلى الخلف. كان اللون الأزرق يصبغ كل شيء شاهداه من قبل. قال سهيل للأميرة نشوى مشيراً إلى الأشجار المنتشرة في الوادي :

"هل رأيت من قبل أشجاراً زرقاء ؟"

وقالت نهاد و هي تشير إلى الأرنب البرى الذي يتبوأ السور :

"إن هذا الوادي عجيب حقاً! إنني لم أرَ في الكتب المصورة أو في أفلام الفيديو أرنباً يتلون باللون الأزرق ؟!"

وتدخل الضفدع العجوز مفسراً :

"إن ما تَرَوْنه الآن يعنى أن وادي الموسيقى غاضب من زيارتنا، وهذا اللون الأزرق سوف يجعلنا ضعفاء مسلوبي الإرادة بعد وقت قصير. وما يشغلني الآن هو أمر الأميرة نشوى فقد يجعلها هذا اللون تسقط من الإعياء بين لحظة وأخرى" .

قالت نهاد بقلق :

"وما العمل الآن ؟! "

قال طائر الفردوس الأناني :

"فلنذهب إلى وادٍ آخر، ما داموا لا يرحبون بقدومنا"

واعترضت الأميرة نشوى بصوت ضعيف :

"لقد جئنا من أجل تحذير سكان الوادي من خطر الغزو، وعلينا أن نؤدي مهمتنا" .

قال طائر الفردوس الأناني ضاحكاً :

"لن يصدقوكم أيتها الأميرة ويكفي أن يعلموا أنك ابنة الحاكم الذي يعد العدة لغزوهم"

قال الضفدع العجوز : "ومن سيخبرهم بذلك؟"

أجابه طائر الفردوس :

" أنا سأفعل وسوف أقول لهم - أيضاً - كيف يقبلون في واديهم طفله تمردت ضد أبيها ؟ "

قال المستشار :

"يبدو أنك تُكِنُّ كرهاً عميقاً لوادي الموسـيقى؛ حتى تساعد في تعرضه للغزو "

قال طائر الفردوس مغتاظاً :

"لقد توسلت إليهم ألا يطردوني، لكنهم أصمُّوا آذانهم، والآن يستقبلوننا بالعداوة والبغضاء، وينشرون لونهم الأزرق الكريه حتى نفقد إرادتنا ونستسلم لهم. إنهم لا يستحقون إلا الغدر والخديعة، وسوف أعود إلى مدينة السكون، وأدلي إلى الحاكم بأسرار هذا الوادي اللعين؛ حتى يستطيع أن يقهرهم في وقت قصير "

قال المستشار :

"أتخون وطنك أيها الطائر الجبان "

لم يعره طائر الفردوس اهتماما، وعندما حاول المستشار الإمساك به طار بعيداً وهو يقول :

"سوف أعود إليكم غازياً منتصراً، وسوف ألقاكم تتأوهون من الألم أمام جبل المغناطيس أيها السُّذّج البلهاء"

(٢٠)

استشبَّت الصخرة المسماة بيضة الأوزة على وتديها وقالت لجبل المرو الشفاف : "احكي لي عن ما يحدث في الخارج؛ فأنني قصيرة القامة ولا أرى ما تراه"

قال جبل المرو :

"لو استيقظت مبكراً لسمعت كل شيء. وأنت تعلمين أنه إذا همس أحد بالقرب من السور فسيسمعه كل سكان الوادي؛ لأن صديقتنا الأمواج الصوتية تتحرك بخفة ونشاط عبر الهواء، وتنقل للكافة بوضوح أي صوت أياً كان ضعيفاً. لكنك صخرة كسولة تعشقين النوم أكثر من أي شيء آخر، وتسدين أذنيك ليلاً حتى لا يزعجك أحد"

قالت بيضة الأوزة مداعبة :

"قد أنمو وأصير جبلاً مثلك، بعد قرن أو قرنين من الزمان وأستطيع عندئذ أن أرى ما تراه أيها الجبل المغرور" .



مدَّ جبل المرو ذراعيه الطويلتين وحمل بيضة الأوزة من أذنيها وقال لها : "نحن منشغلين بأمر الغرباء – أيتها المشاكسة الصغيرة – وليس لدينا متسع من الوقت لهذه المشاحنات التافهة "

قالت بيضة الأوزة و هي تتأوه :

"أرجوك أن تنْزلني؛ فإن ضلوعي تكاد تتهشم"

أنزل الجبل صخرة بيضة الأوزة ببطء والتفتت نحو الضفدع العجوز الذي كان مقبلاً عليه وبادره قائلاً :

"أنت!! ما الذي أتى بك مره أخرى إلى وادي الموسيقى؟ لقد دفعك الفضول وحب الاستطلاع إلى الرحيل إلى مدينة السكون فماذا جنيت من رؤية المخلوقات الآلية والأجهزة الإلكترونية؟ وهل ركب شعبك من الضفادع السيارات الكهربائية، أم أخذوا حماماً بارداً في النافورات الصناعية التي تُضْبط بالكومبيوتر ؟ "

أجاب الضفدع العجوز مؤنباً إياه :

"لا تسخر مني أيها الجبل لقد أخبرت شعبي – كعالم في

التاريخ– بأن مدينة السكون كانت جزءاً عزيزاً من وطننـــا، وقد أجمع على رؤيتها. وهذا من حقه !"

وردَّ جبل المرو الشفاف متجهماً :

"ماذا تريد منا الآن؟ "

واستدرك الضفدع العجوز : "بل نريـــد الدخـول إلى وادينا"

اقترب الأرنب البرى من الغرباء بدون أن يـترك ســور الوادي. وقال للضفدع العجوز :

"هكذا ببساطة تريد الدخول إلى الوادي بعد أن رحلـت عنه باختيارك؟"

قال الضفدع العجوز :

"إنه وطني، ولا يستطيع أحد أن يمنعني من دخوله "

قال الأرنب البرى في حدة :

"مجلس العلماء سيعقد اليوم اجتماعا وسوف نبحث فيـه أمر الضفادع الطائرة، وطيور الصعو وطيور الفردوس "

وعلق الضفدع العجوز :

"لقد تجاهلت أصدقاءنا من البشر"

أجاب الأرنب البرى متأففاً :

"أنت تعلم يا سيدي أننا لا نسمح بدخول الحيوانات المفترسة والغرباء من البشر"

قال الضفدع العجوز :

"إنهم ليسوا بغرباء وادي الموسيقى، هو واديهم ووطنهم. لقد ساروا في الصحراء الجرداء وتحملوا عناء الجوع والعطش، لكي يحذروكم من خطر الغزو"

قال له الأرنب البرى :

" من هو ذلك المجنون الذي يفكر في غزونا"

قال الضفدع العجوز : "إنه حاكم مدينة السكون"

نب البرى وقد استنفرته الكلمات :

وأجاب الضفدع العجوز :

"لا تكن مغروراً يا صديقي فحاكم مدينة السكون يملك ترسانة من الأسلحة الحديثة، وجيشاً من المخلوقات الآلية المسلحة بأشعة الليزر، ولا يمكنك أن تستهين بقوته "

قال الأرنب البرى ساخراً:

"نشكرهم على شهامتهم، ويرحلون محملين بالهدايا "

نظر الضفدع العجوز خلفه، وتفحص وجه نشوى الذي يزداد شحوباً واصفرارا فقال للأرنب :

"معي طفلة مريضة، وقد تسقط بين لحظة وأخرى، ومن الضروري أن تدخل الوادي لتكون بين أيدي أطبائنا المهرة"

احمرت عينا الأرنب البرى وقال للضفدع العجوز :

"أتريد أن تدخل هذه الطفلة المريضة في وادينا لتنشر الأمراض بين سكانه من الحيوانات والطيور؟!" وأطرق الأرنب البرى، ثم أضاف "حدث لأولادي من قبل، عندما سمحنا بدخول أحد الغرباء، لقد نقل إليهم مرضه اللعين، فأصبحوا أرانب واهنة عمياء، تزحف وآذانها متهدلة، ثم

انتفخت كل فتحات جسدها وماتت بعد ذلك بقليل"

قالت الصخرة بيضة الأوزة لجبل المرو الشفاف الـــذي كان يمسح دموعه ويكتم نشيجه:

"أتبكي من أجل الأرانب الصغيرة التي ماتت، أم من أجل الطفلة المريضة التي قد تموت"

أجابها جبل المرو الشفاف، وقد تمالك نفسه :

"إن وجه هذه الطفلة الصغيرة يشع حزناً لم أعهده من قبل وبرغم مرضها فإنها تبدو قويه الشكيمة "

ربتت الصخرة على خد جبل المرو الشفاف وقالت :

"لابد من أن نسمح بدخولها فوراً يا عزيزي ولتطمئن!"

قال لها جبل المرو الشفاف :

"سيكون ذلك من الحكمة أيتها الصخرة الصغيرة، لكنـني لا أستطيع أن آخذ قراراً منفرداً "

لمح جبل المرو الشفاف الحِصانَ القِرْمِزيَّ عالم الأخـــلاق فتهللت أساريره وأخبر الحِصان القرمزي الجبل قائلاً :

"لقد استشرت أعضاء مجلس العلماء في هذه المســـألة الأخلاقية العاجلة. لقد وافقوا على دخول الطفلة المريضـــة؛ بشرط أن تدلكها الأشعة فوق البنفسجية، وتطـــهرها مـــن البكتيريا، وأن تبحث فيتامينات الجو في جسدها العليل عـــن الجسيم المسبب لمرضها وتحاول أن تقضي عليه "

تطلع جبل المرو إلى السماء وتضرع إلى الشمس قائلاً :

"أرجوك أن تستبدلي باللون الأزرق الأحمر والأصفر؛ حتى تبعثي الحيوية والنشاط في جسد هذه الطفلة المسكينة، وتزيدي الكرات الحمراء في دمها" .

خرجت الشمس من خلف السحابات وقالت :

"لقد بدأت بالفعل – أيها الجبل الطيـــب – في مـــزج أشعتي لأنني أحببت هذه الطفلة وأحسست بأنها مثل ابنتي "

وفي وقت قصير، قامت الأشعة فوق البنفسجية بتدليـــك جسد نشوى من البَكْتِيريا الضارة، ثم دخلت فيتامينات الجـــو حرباً ضارية مع الميكروب اللعين الذي ينتشـــر في جســـدها واستطاعت أن تقهره .

وعندئذ فتح جبل المرو بوابته البَلُّورية لنشوى، واطمـأن قلبه حينما وجد ظلها أبيض كالحليب، وتـــألقت الأحجـــار الفلورية بضوء بنفسجي جميل، أما الصخور الفِضِّية المكعبـــة الشكل فلقد رحبت بقدومها؛ بأن أصدرت بريقاً فضياً علـــى وجهها المتورد ووجنتيها الحمراوين، وبسطت لهـــا الأعمـــدة المدورة عند النهر بساطاً أخضر من الأشعة التي تنطلق مـــن بلورها الخضراء. قالت الأشعة فوق البنفسجية لجبل المـــرو الذي كان مستغرقاً في نشوته :

"لقد نسيتَ أن تقفل بوابتك"

شرع الجبل بإغلاق بوابته البلُّورية، فإذا ببعض الموسيقيين يندفعون عبرها ويدخلون إلى الوادي عنوة، كان ظلهم أســود مثل جبل الفحم، فاسودت الصخور الفضية المكعبة، وكذلـك البلورات الخضراء في الأعمدة عند النهر، واندفع سهيل ونهاد خلفهم وقد سمعا صراخ الأميرة نشوى.

أسرعت الرياح نحو صخور الإنذار فـــانطلقت الأبـــواق النحاسية لتحذر سكان الوادي من الخطر، بينما فتـــح أحـــد الموسيقيين الآليين الذين اقتحموا الوادي جهازه اللاســـلكي وقال :

"لقد دخلنا وادي الموسيقى"

وعلى الناحية الأخرى؛ كان هناك من يترقب هذه الرسالة، وهو جالس في سيارته الفاخرة على مقربه من الوادي وإلى جواره كلبه المستشار !

صرخ الأرنب البرى في وجه جبل المرو الشفاف :

"لقد تسببت بسذاجتك في هذا الغزو ماذا سنفعل الآن لصد هذه المخلوقات الآلية المسلحة بأشعة الليزر ؟"

وفي تلك اللحظة، رفرف طائر الفردوس الأناني الخائن حول جبل المرو وقال له ساخراً:

"لقد خدعتكم هذه الطفلة الصغيرة. إنها الأمير ة نشوى ابنة حاكم مدينة السكون الذي سيحتل واديكم ويهدر دماءكم، ويحطم أشجاركم ويردم نهركم. إن طفلة تمردت ضد أبيها قد تتمرد ضدكم أيضاً، وقد تطعنكم في ظهركم حينما يعذبها الحنين إلى أبيها، ويؤرقها الاشتياق إلى وطنها، وإلى القصر الفاخر الذي كانت تعيش فيه كأميرة مدللة، وأشهد أني قد حذرتكم وما يحدث الآن يؤكد لكم صدق قولي "

(٢١)

تَمَلْمَلَ الكلبُ المستشار على مقعده الوثير في سيارة الحاكم، وعلى الشاشة التليفزيونية ظهرت المخلوقات الآلية التي تترنح أمام جبل المغناطيس، وتطيش حزمها التي تطلقها من مسدسات الليزر بعيداً عن أهدافها. بيد أن أحد المخلوقات الآلية استطاع أن يصوب حزمه من الليزر اخترقت الجسد الشفاف لجبل المرو، فصرخ من الألم. وبينما كان يسعى جاهداً ليسد الثقب بيديه، شاهد أحد المخلوقات الآلية يوجه مسدسه نحو بيضة الأوزة فزعق بجبل المغناطيس :

"أرجوك أن تفعل شيئاً يا صديقي! أنها صخرة صغيرة ولن تحتمل حُزْمَة واحدة من الليزر"

استمد جبل المغناطيس قوته من حقل الأرض المغناطيسي، فأخذت المخلوقات الآلية المصنوعة من المعدن تدور في مجاله ويصطدم بعضها بالبعض. أطلق أحدهم مسدسه نحو صخرة بيضة الإوزة فارتجفت أوصالها، وأغمضت عينيها، وبعد

لحظات فتحت عينيها نصف فتحة، ففوجئت بحُزمَة الليزر تنتفخ كالبالونة وتنحني بعيداً عنها بتأثير المجال المغناطيسي، وتضيع في الفضاء هباء. وفقدت المخلوقات الآلية قدرتها على الحركة بعد أن اجتذبها جبل المغناطيس نحوه وأمسك بها بقوة وأخذت تَهْذِي بكلام غير مفهوم!

انتفض الكلبُ المستشار واقفاً في ذعر على صرخات الحاكم في وجهه : "لقد فشلت خطتك في الغزو أيها الكلب الغبي"

قال الكلب وهو يرتجف :

"لقد استقيت معلوماتي عن الوادي من ثرثرة طيور الصعو. إنها لم تذكر شيئاً عن جبل المغناطيس هذا الذي أفسد كل شيء "

أمسك الحاكم مستشاره من ذيله وأطاح به قائلاً :

"كلب محتال! لقد قلت لي إنك زرت الوادي مرات عديدة"

تكور الكلب المستشار في مكانه وأجاب متلعثماً :

"لم أكذب يا مولانا. لكن يبدو أن زيـــاراتي المتعـــددة لم تكن كافية للتعرف على كل أسراره"

وقال الحاكم مخاطباً نفسه :

"ما زلت لا أفهم حتى الآن كيف يستطيع جبل تافه حقير أن يقهر مخلوقاتي الآلية المسلحة بأشعة الليزر التي يمكنـــها أن تخترق أي شيء بسرعة الضوء "

(٢٢)

رفرف طائر الفردوس الخائن حـــول الحـــاكم، وقـــال ضاحكاً:

"مشكلتك يا مولانا أنك لا تدرك أن الطبيعة هي أســـاس كل شيء! فقصركم الفـــاخر تقليـــد لنســـيج العنكبـــوت، ومكبرات الصوت استلهمها العلماء مـــن خلايـــا النمـــل، والطائرات تقليد لحركة أجنحة الطيور، والمخلوق الآلي الـذي تطلق عليه الدودة والذي تلهو معه بضع ساعات كـــل يـــوم

يقلد دودة الأرض في حركتها وتنقلاتها. كل المخترعـــات العلمية مستمدة من الطبيعة" .

نهض الحاكم من مَقْعَدِه ثائرا وحاول أن يمســك بطــائر الفردوس، لكنه طار بعيدا، ثم عاد من جديد يرفرف حولــه وقال :

" أرجو ألا تغضب فلقد أتيت إليك كي أســدي إليــك النصح وأعاونك في غزو وادي الموسيقى "

ضرب الحاكم كفا بكف وقال مستنكرا :

" أيقدم طائر حقير مثلك نصحا لحاكم مثلي أنا؟! "

قال الطائر الخائن : "لقد أديت إليك خدمة جليلة منـــذ ساعات معدودة بأن أخبرت سكان الوادي بأن ابنتك الأمير ة نشوى قد تمردت ضدَّك "

وتساءل الكلب المستشار بخبث :

" ولم فعلت ذلك ؟ انهم قد يؤذونها! "

قال له الطائر الخائن وهو يبتسم ابتسامة ماكرة :

" انهم قوم مسالمون – يا عزيزي – لا يميلون إلى الأذى، ولديهم قانون أخلاقي صارم يقضي بإعادة الابنة المتمردة إلى أبيها بشرط .. "

قاطعه الكلب المستشار قائلا : " وإنْ كانَ أباً ظالمً ؟! "

وإذ تبين الكلب المستشار خطأه، أردف معتذرا :

" ألْتَمس العفو يا مولاي .. إنما قصدت أن أتحقق من صدق قوله" .

واستدرك الطائر قائلاً :

" إن مجلس العلماء في الوادي يعلم تماما أن الآباء لديهم حُجَجَهُم القوية التي يبرهنون بها على عقوق الأبناء و عصيانهم، ولذلك فقد استن دستوراً لحقوق الطفل ينص على حق الطفل في إبداء الرأي في القضايا التي تخصه، وحقه في التَنَزُّه والاستمتاع بالطبيعة وفي اختيار لعبه، والمأكل والملبس الذي يناسبه، وحقه في الإبداع والابتكار وممارسة هواياته المفضلة، وحقه في قراءة الكتب التي تناسب سنه، وحق العلاج و ... " .

قاطعه الحاكم قائلا :

" انه دستور هدام يعطى الطفل كل شيء، ويحرم الأب كل شيء" .

وواصل طائر الفردوس موضحا :

" إن لم يعطى الأب للطفل حقوقه المشروعة؛ يكون من حق مجلس العلماء أن يحتفظ بالطفل لديه ويرعاه حتى يثوب الأب إلى رشده . وإن كان الأب عادلا وأعطى طفله حقوقه؛ وبرغم ذلك تمرد ضده، يعاد الطفل إلى أبيه مع تحديد العقاب الملائم لسنه، كحرمانه التَنَزه لفترة معينة أو اللعب. ولقد حرموني أنا طفلي بحجة أنني سلبته حقه في الإبداع و الابتكار و ... " .

قاطعه الحاكم للمرة الثانية :

" إن ابنتي عنيدة متكبرة مثل أمها، لقد وفرت لها كل شيء : الملبس الفاخر واللعب الإلكترونية والمخلوقات الآلية التي تقدم إليها الطعام و الدواء وتنظف لها حجرها والكتاب - الفيديو الذي يتضمن كل المعلومات عن أحدث موضة في ملابس الأطفال، وأجمل تسريحة شعر في العالم ؛ لكنها برغم



كل ذلك تمردت ضدي، وانضمت إلى معسكر الأعـــداء في وادي الموسيقى، و هي كأميرة لن تفلت من العقـــاب طبقـــا للقانون الذي يحكم مدينة السكون " .

سأل طائر الفردوس الحاكم : أتعـــني أنهـــا ســـتحاكم مرتين؟!

واستفسر الحاكم متعجبا : وكيف يكون ذلك ؟!

أجاب طائر الفردوس :

" إن الأمير ة ستحاكم غدا في وادي الموســـيقى بتهمـــة مساعدة المخلوقات الآلية علـــى غـــزو الـــوادي بـــالكذب والخداع... وسوف تحضر جلالتكم المحاكمة " .

قال الحاكم محتدا : " من الذي جرؤ على تقرير ذلك ؟ "

وأوضح الطائر : " تلك هي خُطَّتي أيها الحاكم ! فســوف تذهب أنت إلى الوادي هناك، وتخبرهم بـــأنك مســـتاء مـــن تصرف ابنتك الطائش، وبأنك لا تعلم شيئا من محاولة غـــزو الوادي " .

قال الحاكم : " وما الذي سأجنيه من ذلك ؟ "

واسترسل طائر الفردوس :

" انهم سيقيمون الاحتفال بالعيد الوطني للوادي بعد المحاكمة مباشرة. وفي هذا الاحتفال ستقدم الأفيال البيضاء عرضاً راقصاً على صفحة النهر مصحوبة بالإيقاعات الموسيقية الكلاسيكية لبيتهوفن وموزار وباخ، وستؤدي النعامات الطائرة بعض الألعاب البهلوانية في الهواء عند سقوط المطر " .

قال الحاكم متعجبا :

النعامةُ تطيرُ، والمطر يسقط وَفْقَ إرادهم !! .

ومضى الطائر يقول :

" ليس في الأمر سحر يا مولانا، إنما هي تدريبات بدنية شاقة قامت بها النعامة حتى تعلمت الصعود الذاتي في الهواء لمدة قصيرة، ثم تعلمت الطيران. وبالنسبة إلى سقوط المطر فإن السَّاحَبات تشاركهم في الاحتفال؛ بأن تأتي في مثل هذا اليوم من كل عام، وتسقط من أجلهم .

تكلم الحاكم مُتَمَلْمِلا :

" لقد بدأت أشعر بالضجر. ِل الحديث عن خطتك ".

وانطلق الطائر يشرح خُطَّتَهُ الماكرة :

" عندما يكونون مشغولين بمحاكمة الأميرة نشوى، سوف أتسلل أنا وبعض الطيور التي طردت من الوادي، وبعض الثعابين التي تسكن وادي الثعابين المجاور، وسنلوث النهر ببعض المواد الكيماوية التي تجعله يتبخر؛ فتتطاير جزيئات الماء في الفضاء وينتهي أمر النهر وأمر الوادي في الوقت نفسه. فعندئذ ستموت النباتات والحيوانات والطيور من العطش وبذلك تستطيع – يا مولانا – أن تدخل الوادي دخول الفاتحين سيرا على الأقدام بدون جيش أو أسلحة حيث ستكون أبوابه مشرعة على مصراعيها لمن يشاء واستدرك الطائر: وإذا نجحت خطتي؛ فسوف تصدر قراراً بتعييني حاكماً لوادي الموسيقى"

(٢٣)

أحست نشوَى بآلام في رأسها وقلبها وفي عظام يديـــها هي مشدودة الوثاق مع سهيل ونهاد إلى جبل المغناطيس تمهيداً لمحاكمتهم، وقالت لسهيل ونهاد :

"أحس بإجهادٍ شديد لم أشعر به من قبـــل، وأخـــشى أن يستمر الأمر طويلاً وافقد قدرتي على الاحتمال"

قالت لها نهاد :

"إن وقوعنا في المجال المغناطيسي للجبل هو الســـــبب في هذا الإحساس"

وقال سهيل : "إن جبل المرو الشفاف ينظر إلينا بتعاطف، ويبدو ذلك ملامحه بوضوح"

وعلقت نشوى :

"إنه جبل طيب القلب؛ لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من

دون الرجوع إلى مجلس العلماء "

صرخ جبل المرو الشفاف من الألم، وأخذ يحاول أن يسدَّ الثقب الذي أحدثته أشعة الليزر في جسده بيديه بلا جدوى.

قالت الصخرة المسماة باللؤلؤة البَنَفْسَجيَّة للصخرة الخضراء :

"يجبُ أن نفعل شيئاً من أجلِ صديقنا الطيب"

وردّت الصخرةُ الخضراءُ في مرارةٍ :

"وماذا عسانا أنْ نفعل ؟!"

واقترحت اللؤلؤة البنفسَجية :

"نقتطعُ من أجسادِنا ونسدُّ له الثقبَ"

قالت الصخرةُ الخضراء بدهشةٍ :

"وكيف يمكننا أن نفعل ذلك؟ "

قالت اللؤلؤة البنفسَجية :

"يمكنك أن تمدّي يديكِ المُسنَّنتَيْنِ وتقتطعي جزءاً من

جسدي"

اقْشَعرَّ بدنُ الصخرةِ الخضراء وقالت لها :

"كيف يطاوعني قلبي على فعل ذلك ؟!"

صرخت اللؤلؤة البنفسَجية في وجهها قائلة :

"لم أعرف أنك رخوة وضعيفة إلى هذا الحد. إنَّ جبل المرو الشفاف لم يبخل بالعطاء على كلّ سكان الــوادي، فكيــف نضنّ عليه الآن بعطائنا؟"

أشاحت الصخرة الخضراء بوجهها، ومدت يديها الحادتين إلى جسد اللؤلؤة البنفسجية، واقتطعت منه جزءاً يكفي بالكاد المرو الشفاف يتلوى من الألم .

"سأكون في حاجه إلى مادة لاصقة!"

أحسَّت اللؤلؤة البنفسجية بالإحباط، لكن الرياح أردفت تقول لها :

"لقد وجدت الحل!"

وسألتها اللؤلؤة البنفسجية بلهفة :

"ما هو؟"

قالت الرياح : "أشعة الليزر"

وتعجبت اللؤلؤة البنفسجية، وقالت في تردُّد :

"أتسدينَ الثقبَ بالسلاحِ الذي كاد يقتله ؟"

قالت الرياح :

"لقد أرسل حاكم مدينة السكون – ضمن جيشه من المخلوقات الآلية – مخلوقاً آلياً لحَّاماً لمواجهة أي عطل في يحدث لجيشه الآلي "

دفعت الرياح قولها، ولم تنتظر رداً، وإنما اتجهت ناحية

جبل المِغْنَاطيس، وحملت المخلوق الآلي اللحَّام من ياقة قميصه، وصعدت به إلى جبل المرو الشفاف، وأمرته بأن يسد الثقب باستخدام أشعة الليزر وإلا ألقت به من علٍ ليتحطم جسده تحطيماً، ففعل ذلك راضخاً.

بكى جبل المرو الشفاف من شدة تأثره، وحمل اللؤلؤة البنفسجية وقبلها في وجنتيها. قالت اللؤلؤة في تأثر :

"ولِمَ تبكِ الآن يا صديقي "

مسح الجبل دموعه وقال لها وهو ينظر إلى نشوى وسهيل ونهاد :

"إن المحنه تختبرنا، كما تختبر هؤلاء الأطفال الثلاثة الأبرياء"

قالت اللؤلؤة البنفسجية بدهشة : "أبرياء"

وأوضح الجبل بصوت متهدج :

"هل تصدقين أن أطفالاً حرموا الأشجار والأزهار والطيور والحيوانات في مدينتهم، يساعدون حاكماً بلا عاطفة أو قلب في غزو وادينا ؟!"

قالت اللؤلؤة البنفسجية :

"وهل تصدق – أنت – أيها الجبل الطيب أنّ الأميرة نشوى تتمرد ضد أبيها حاكم المدينة، وتأتي إلينا تحذرنا من الغزو ؟!"

أجاب الجبل منفعلاً :

"لم تُسَمِّين ذلك تمرداً ؟! إنها تساند الحقّ ضد الباطل، وهذا ما تعلّمَتْهُ من أمها راقصة الباليه التي ماتت حزناً وكمداً لما فعله زوجها بالمدينة التي كانت في يوم من الأيام جزءاً من وادي الموسيقى ؛ أي أنها تدافع عن وطنها"

قال جبل المغناطيس :

"لا تكن سَاذَجاً – يا جبل المرو – وانظر إلى جرحك الذي لم يندمل بعد. إنها طفلة شريرة جاءت إلى وادينا لتتلاعب بنا "

انخرطت نشوى في البكاء، فاهتز جبل المرو الشفاف من فرط حزنه وامتقع وجهه، وقال لجبل المغناطيس :

"لقد قسوت عليها من دون مبرر، وإن تمادَيْتَ في ذلك

فسوف أعرض الأمر على مجلس العلماء"

قال جبل المغناطيس ساخراً :

"لا وقت لذلك يا صديقي الطيب، فلقد حضر طائر الجنة ذو الريشة الحمراء ليفك وثاقهم، ويصحبهم إلى مجلس العلماء لمحاكمتهم و ... "

وقبل أن يتم جبل المغناطيس جملته فوجـــئ بالمخلوقـــات الآلية تتساقط على الأرض، وتتفكك أجزاؤها، وتتناثر أذرعها وأرجلها ورءوسها، ثم أخذت تهذي وتقول :

"مهمتنا أن نستغل فرصة دخول الأميرة نشـــوى وادي الموسيقى كي نقوم بغزوه وقتل حيواناته وطيـــوره وجبالـــه وصخوره وردم نهره وتقطيع أشجاره، ثم نســـلم الأمـــيرة المتمردة إلى أبيها حتى تحاكم وفقاً لقانون المدينة ... "

كررت المخلوقات الآلية تلك العبارات بدون توقف كأنها أصيبت بمس من الجنون .

قال جبل المرو الشفاف لجبل المغناطيس :

"لقد رأيت الحقيقة بقلبي قبل أن تنطق بها هذه المخلوقات

الآلية"

احمرَّ وجهُ جبلِ المِغْناطيس خجلاً وقال له :

"لقد كدت أرتكب جريمة لا تغتفر في حق هؤلاء الأطفال الأبرياء، ولا أعرف كيف أكفِّر عن ذنبي ؟"

طلب جبل المغناطيس من طائر الجنة ذي الريشة الحمـــراء أن يطير إلى مجلس العلماء ويحضرهم فوراً من أجل أن يسمعوا الحقيقة التي تنطق بها المخلوقات الآلية وقبل أن يكفّـــوا عــــن الكلام، ففرد ريشه على شكل مروحة وطار إليهم في عُجَالة .

(٢٤)

قامت النعامات التي تطير بتدريب نشوى وسهيل ونهــــاد تدريبا بدنيا قاسيا، ليحققوا حلمهم في الرَّكضِ على سطح الماء مع الأفيال البيضاء، خلال الاحتفال بالعيد الوطني "

قال سهيل الذي كان يتصبب عرقاً :

" كم أتمنى أن أتعلَّم الطيران أيضاً ! "

قالت الأميرة نشوى :

" مهلاً يا سهيل، لا تكن متسرعاً ! فلنختبر قدرتنا على تنفيذ ما تعلمناه أولاً، فالأمر ليس هيناً "

قالت نهاد مستنكرة :

" إنَّ الحشرات تستطيع أن تعدو على سطح الماء، فكيف نفشل نحن في تحقيق ذلك ؟"

وأجابت نشوى : "إنَّ سطح استناد الأرجل عند هذه الحشرات صغيرٌ جدّاً، وسرعتها تعادل سرعة الإنسان في العدو ألف مرة ".

أضاف سهيل : " وعلى الرغم من أن هذه الحشرات صغيرة الوزن، إلا أن عددها يكون كبيراً، وبذلك تمثل ضغطاً كبيراً على سطح الماء " .

وعلَّقت نهاد :

" لقد اكتسبنا الآن سرعتها تقريبا، ويمكننا العدو على

الماء مثلها".

قالت نشوى :

" لقد وصلنا إلى النهر، فلنكف عن الثرثرة، ولنحاول أن نتذكر ما تعلمناه من النعامات لكيلا نتعرض إلى الفشل ".

على جانبي النهر شاهد الأصدقاء أشكالاً غريبةً بهرَتْهُم ! كانت صفوف الأعمدة المدورة والمستوية عند القمة تبثُّ وميضاً فسفورياً بتأثير أشعة الشمس، وتنتشر فيما بينها أهرامات صغيرة من الزمرد الأخضر الذي لا ينحل بالماء وقد نقشت عليها الشمس بأشعتها: "النهر يرحب بالأصدقاء الثلاثة " .

شَهَقَ الأصدقاءُ إعجاباً، وأحسوا بالنشوة والفرح، وانطلقوا نحو النهر لكي يحققوا حلمهم بالعدو على سطحه كالأفيال البيضاء التي سبقتهم وبدأت في تقديم عروض راقصة على إيقاعات الموسيقى التي تعبر عن نور الصباح والشمس المتألقة، بينما أهرامات الزمرد والأعمدة المدورة تتمايل طربا .

تراجع الأصدقاء عندما سمعوا صوتا حادا ينطلق من النهر قائلا :

" انتظروا قليلا حتى أفرغ من أداء مهمتي اليومية. إنـــي أخشى أن يكون الأكسجين غير كافٍ لكي تقـــوم البكتريـــا بتنقية المياه من النُّفايات والرواسب ".

أمْعَنَ الأصدقاءُ النظرَ في النهر، وتلفتوا يمنة ويسرة، فلـــم يروا شيئاً وقال سهيل مستغرباً : " من الذي يحدثنا ؟ "

أجاب الصوت الحاد ضاحكا:

" أنا الأعشاب المائية الصغيرة التي لا يمكنكم أن تروهـــا بعيونكم المجردة " .

قال سهيل ساخراً :

" أعشابٌ مائيةٌ صغيرة ! وتمنعنا من دخول النهر ! "

قالتِ الأعشابُ المائيةِ الصغيرة :

" لا تَسْتَهِن بي – أيها الطفل المغرور – فأنت لا تعلـــــم حدود قدرتي " .

قالت لها نهاد بتهكُّمٍ :

" وما هي حدود قدرتك أيتها الصغيرة ؟!"

قالتِ الأعشابُ المائية :

" أنا أذوّدُ أجواء هذا الوادي بالكمية الأساسية التي يحتاج إليها من الأكسجين النقي".

ردّت نشوى التي كانت تنصت بإمعان :

" أنت تكذبين ! فالكمية الأساسية من الأكسجين النقي تنطلق إلى الجو من هذه الأشجار الضخمة التي تنتشر في الوادي".

قال لهم النهر بصوت صارم :

" الأعشاب المائية لا تكذب مطلقا، وهذا الوادي لا مكان فيه للكذب والخداع "

خيم الصمت على الأصدقاء الثلاثة وأحسوا بالخجل، لكن الأميرة نشوى التي كانت أكثرهم تلهفا إلى العدو على سطح الماء بادرت تقول :

" لا نعرف كيف نعتذر إليكِ أيتها الأعشاب! كيف نبدي إليك تقديرنا لدورك العظيم ؟

ولقد كنا نتمنى أن نراك حتى نصافحك !".

تجمعت الأعشاب المائية الصغيرة التي لا تُعَدُّ ولا تحصَى، وتشكلت على هيئة يدٍ صغيرة امتدت نحو الأصدقاء وشدت على أيديهم قائلة :

مرحبا بكم في وادي الموسيقى!

هَمَّ الأصدقاء بالانطلاق نحو النهر، لكن الصوت تكلم من جديد وكان أكثر حلاوة وخشونة :

"اصبروا قليلا حتى أنقي النهر."

قالت نشوى بدهشة :

" لقد سمحت لنا بالدخول أيتها الأعشاب المائية !"

قال الصوت الحاد:

" أنا الكائنات الدقيقة التي تطلقون عليها البكتيريا، وأقوم منذ آلاف السنين بمهمة تنظيف الماء وتنقيته من الرواسب والنفايات " .

قال سهيل :

"آه لقد فهمت الآن، فأنت لا تستطيعين أن تقومي بمهمتك إلا في وجود كمية كبيرة من الأكسجين الحُرّ "

وقالتْ نهاد : "والأعشابُ المائيةُ الصغيرةُ توفّره لكَ "

قالت البكتيريا و هي تضحك في وقار:

"إنكم تتعلمونَ بسرعةٍ هذه ميزةٌ كبرى ستجعلكم تستطيعون تحقيق أحلامكم"

مر وقت قصير وسمحت البكتيريا الطيبة للأصدقاء بالركض على سطح الماء.

انطلقت نشوى في البداية وكادت تتعثر لولا أن تذكرت الدروس التي تعلمتها من النعامات، وحافظت على توازنها وانطلقت نحو الأفيال البيضاء لتشاركهم في عروضهم الراقصة .

قالت نهاد لأخيها سهيل بتردد : "إنني أخشى الفشل"

وطمأنها سهيل قائلاً :

"لقد تدربنا تدريباً كافياً، ولا ينقصنا الذكاء حتى ننفذ ما

تعلمناه، فلننطلق سوياً إلى النهر بدون تردد"

رحبت الأفيال البيضاء بأصدقائها الجُدد وبثت الثقة في قلوبهم وقالت :

"النهر صديقنا، فإن تعثّر أحدُنا ساعده على النهوض. والماء مثل قطعة الَماس ترتبط كل جزيئاته في شبكه واحدة متماسكة، يمكنها أن تحمل الكثير والكثير".

قالها وهو يخبط على بطنه بينما الأطفال يضحكون ويركضون، وما هي إلا دقائق معدودة حتى توقفت الأفيال البيضاء عن الرقص .

واستغرب النهر قائلاً :

"لم توقفتم ؟"

قالت الأفيال البيضاء :

"موجات لاسلكية غريبة تنطلق إليكَ من الفضاء . إن السحب الفضية تحذرنا من خطر ما "

قال النهر في قلق : "وما هو نوع هذا الخطر ؟!"

قالت الأفيال :

"لا نعلم حتى الآن، ولكن لابد من أن نطلق صفـــارات الإنذار ونخبر مجلس العلماء بذلك"

وتساءلت نشوى : "ما هي السحب الفضية ؟"

وأجابت الأفيال و هي تسرع نحو الشاطئ :

"إنها غيوم ضخمة تقع في برجي الجوزاء والثُّرَيَّـا، تحتـل مساحة هائلة في الفضاء"

وقال سهيل : "هل سنغادر النهر الآن ؟"

قالت الأفيال : "نعم، نعم، سنفعل ذلك من الفور "

قالت نهاد دامعة العينين :

"فلتنتظروا قليلاً، لم أستمتع بَعْدُ بالركض علـــى ســطح النهر!"

ربت النهر على خدِّ نهاد بمائه الرَّقْرَاق، وقال لها :

"لا تحزني يا بُنَيَّتي ..فسوف تأتين كثيراً في الأيام المقبلة"

سمع الأصدقاء قرقعة خفيفة، وأنيناً هادئاً ينطلق من النهر، أخذ الأنين يشتد تدريجياً حتى بكى النهر، ثم أخذ يئن ويزمجر ويرتفع صوته تدريجياً إلى أن أصبح كأنغام آله الأرغن الموسيقية .

قالت نهاد بتأثر :

"أتبكي من أجلى أيها النهر العظيم "

أجاب النهر صارخاً :

"فلتسرعوا إلى الشاطئ قبل فوات الأوان. لقد فقدت قدرتي على تشكيل جزيئات متماسكة في شبكه واحدة؛ وهذا يعنى أنني سوف أبدأ بالتبخر فوراً، وبمعدلات سريعة !"

ردت نشوى بانزعاج :

"كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ إن الماء يغلى عند مائة درجة مئوية، وعندئذ يبدأ في التبخر السريع "

قال النهر :

"هذا عندما تكون كل جزيئاته مرتبطة مع بعضها في

شبكة واحدة، لكنني حينما أفقد القدرة على ذلك يمكنني أن أتبخر عند ثمانين درجه تحت الصفر .. أسرعوا إلى الشـــاطئ أرجوكم !!"

وفي صوت واحد تكلمت ملايين الكائنـــات البكتيريـــة الطيبة ليسمعها النهر :

"لقد ألقَى طائر الفردوس الخائن، وبعض الطيور والثعابين المتحالفة معه، بمواد كيماوية غريبة لا أستطيع مقاومتها وهـــي التي أدَّت إلى حدوث ذلك "

حملت الأفيالُ الأصدقاءَ الثلاثةَ وأسرعت إلى الشـــاطئ، وحينما اقتربت من الأعمدة المدورة وأهرامات الزمرد لمحـــت "طائر السكرتير" ينقض على بعض الثعابين التي تســـللت إلى الوادي. وكان الطائر يحمى نفسه من لدغاتها بأحد جناحيـــه الذي يستعمله كالدرع ويضربها بالجناح الآخر، ويقضى علـــى فريسته بإلقائها في الهواء، حتى أسقط عدداً كبيراً من الثعـــابين صرعى قبل أن تقترب من النهر .

نظر الأصدقاء بحسرة إلى النهر الذي بدأ يتبخر ومعـــه أحلامهم، وإذا بطائر الفردوس الخائن يرفرف حولهم قــــائلاً بسخرية :

"لقد انتهى أمر وادي الموسيقى وسوف أعود إليه وأحكمه بقبضه من حديد"

(٢٥)

للنهر ولدانِ وبنت . الابن الأكبر هو "الماء الثقيل" وهو راجح العقل حصَيف اللسان، أما شقيقه "الماء الخفيف" فهو متهور طائش لكنه طيب القلب. وأما البنت "المياه المشعة" فلقد سمح لها أبوها بالرحيل لتسكن السحب الفضية في برجي الجوزاء والثُّريَّا لئلا تضر سكان الوادي بأشعتها المهلكة، وإن كانت تزوره بين الحين والآخر تحملها الرياح في بعض قطرات المطر .

صرخ الماء الخفيف مستنجداً بأبيه :

"فلتفعل شيئاً يا أبي! إن جسدي يتفكك رويداً رويداً وسوف أضيع في الفضاء ! ؟

مدَّ النهر يده إلى ولده الذي بدأ يتبخر أمام عينيه،

وحاول أن يجذبه ويضمه إلى صدره، ولكن هيهات، فلقد أخذت قبضته تتراخى شيئاً فشيئاً !

انخرط "النهر الوالد" في النحيب، واستسلم ولده "الماء الخفيف" لليأس، وناجى أمه قائلاً :

"أين أنتِ يا أمَّاه يا بحيرة السعد ؟!"

قال أبوه باكياً :

"لقد ماتت أمك يا ولدى! خنقها البترين والكيروسين والنُّفَايات التي ألقى بها بعض الأشرار من البشر فوق صدرها الرقيق"

تقدم الماء الثقيل وحاول أن يشد أخيه بحزام مجدول من الأعشاب المائية، لكنه انْسَرَب منها، وتبخر في الفضاء وهو يشير إليهم مودعاً!

احتضن النهر ولده الأكبر بشدَّة حتى كاد يحطم ضلوعه، وأستنجد بأبيه – النهر المقدس – الذي ينبع من الجبال البعيدة وقال له متضرعاً :

"لقد فقدت ولدى الصغر – يا أبي – ومن قبل فقدت

ابنتي المياه المشعة، التي اضطُرت إلى الرحيل ولم يتبــقَ لي إلا ولدى هذا، ولا أريد أن أفقده هو الآخر. أرجوك أن تمد لي يد العون وترسل إليّ إخوتي " الشلالات الكبرى والصغرى" لكي يشدوا من أزرى ! "

ظل النهر يفور كأن تحته مِرْجَل أو بُرْكَــان هــائج. وانتشر الذعر بين الأسماك الفضية الصغيرة، فأخذت تتقــافز على سطح الماء، تختفي في سحابات البخار ثم تغطــس مــرة أخرى، وبدا أنها أصيبت بانهيار عصبي .

أما سمكه السِّلَّوْر العمياء التي تعيش في القاع، فلقــد أصيبت بالهلع، حيث ترامى إلى أسماعها صراخ الأسماك ونحيب النهر، فحاولت الصعود إلى سطح الماء. وقريباً منه اصطدمـت بسمكة الفراشة التي كانت ترفرف بزعانفها استعداداً للطيران فقالت لها مستنكرة :

"لما كنت لا تبصرين فلم تحاولين الصعود فقــد كــدت تقتلينني بدروعك العظمية "

قالت سمكة السِّلَّوْر في أَناة :

"لا تتعجلين الموت! فكُلنا سنموت بعد وقت قصير "

تعجبت سمكة الفراشة لسمكة القَشْقُوش التي لا تزال في قمة حيويتها ونشاطها، تبعث الدائرة تلو الأخرى من فمــها؛ لأنها اعتادت أن تصعد إلى السطح وتبتلع أكســجين الهــواء بنهَمٍ شديد !

قالت "سمكة القشقوش" للسمكتين :

"لا يليق بكما أن تتعاركَا في مثل هذا الوقــت الحــرج! فالنهر يحتضر، وإن لم نشد أزره الآن فسوف نموت كلنا "

قالت "سمكة الفراشة" :

"وماذا نستطيع أن نفعل للنهر يا صاحبة الدوائر"

ردت سمكة القشقوش بغضب :

"أهتمين بمصيرك الفردي وتتجاهلين ما يحدث لإخوتــك وأصدقائك! إن صديقتنا الأعشاب المائية الصغيرة التي تمدنــا بالأكسجين النقي تتكوم الآن في كومة واحدة ويحتضن كــل منها الآخر منتظرة الموت بين لحظة وأخرى، وهذا يعنى أننـــا جميعاً سنموت من الاختناق ؟"

قالت سمكة السِّلَّور العمياء :

"فلنجدل مِرْوَحَة كبيرة من الأعشاب الخضراء نحرك بها الماء بشدة حول الأعشاب المائية الصغيرة، فتغنى حبات الماء المتطايرة بأكسجين الهواء النقي، وتتعرض للأشعة فوق البنفسَجية، وهذا يعجل بعملية التمثيل الضوئي، وهكذا تستطيع الأعشاب المائية الصغيرة أن تصنع غذائها مرة أخرى وتنتج الأكسجين، فتصحو من جديد وتستعيد حيويتها وقدرتها على البقاء "

قالت سمكة القشقوش بإعجاب :

"إنها فكره ذكية – يا صديقتي – فلننفذها في الحال "

ثم التفتت مخاطبة سمكة الفراشة :

"انظري إن ذكاء السمكة العمياء جعلها ترى ما لم نستطع نحن المبصرين أن نراه"

استعادت الأعشاب المائية الصغيرة حيويتها وبدأت تمارس نشاطها الحيوي في الماء والسمكات الثلاث تحرك مراوحها بدون كلل أو ملل لكنها سرعان ما صرخت قائلة:

"إن صديقتنا البكتيريا الطيبة تحتضر ولن تستطيع أن تنقى

النهر"

قالت سمكة الفراشة للأعشاب :

"إن البكتيريا الشريرة تنتشر حولنا وتلتهم بشراهة أكسجين الهواء النقي الذي تطلقينه"

غطست سمكة السلور العمياء بسرعة إلى القاع، وبعد برهة صعدت تنتحب قائلة :

"لقد تراكمت رواسب سوداء لزجة في القاع، وهذا يعني أن النهر سوف يبدأ في التعفن، و بعد قليل ستنطلق منه الغازات الكريهة الرائحة التي ستقتل كل ما هو حي فيه"

(٢٦)

تجمعت البلورات الجليدية الفضية حول أمها وقالت لها :

"لم تبْكينَ يا أمَّاه"

قالت السحب الفضية :

"إن صديقنا النهر في وادي الموسيقى شَارفَه الموتُ. ولقد حاولت أن أحذره، لكن الأوان كان قد فات. ولست أدرى كيف أخبر ابنته "المياه المشعة" التي تلهو بين برجي الجوزاء والثُّريا ولا تعلم ما حدث لأبيها"

قالت البلورة الجليدية "زُمُرُّدة" :

"الماء موجود في جميع أرجاء هذا الكون العجيب، فلنرسل موجاتنا اللاسلكية إلى كافة الكواكب حولنا: للمرِّيخ والزُّهرة والمُشْتَرِي، فهم لن يبخلوا بالعطاء، وسوف يتخلَّوْن عن طيب خاطر عن بعض ما لديهم من ماء، ونهبط سويّاً فوق النهر الذي يتبخر، ونعيد إليه الحياة من جديد "

وقال البلورة الجليدية "لؤلؤة" :

"ولابد من أن نخبر "المياه المشعة" – أختنا في الرضاعة – بما حدث لأبيها لكي نهبط معنا وتقضى بنفسها على المواد الكيماوية التي تبخر النهر "

وهزَّ المُذنَّبُ الفيلسوف رأسه وقال لهم :

"عندي حلٌّ عبقريٌّ – يا أصدقائي– ينهي هذه المشكلة فوراً"

قالت السحب الفضية بلهفة :

"ما هو يا مُذنَّب ؟"

– "نجفف النهر!"

تجمهرت البلورات الجليدية وقالت غاضبة :

"هل جُننِت ؟!"

وردَّ المُذنَّبُ بهدوءٍ :

"صبراً – أيتها البنات الصغيرات الطائشات – فالحماسة وحدها لا تكفي لحل المشكلات. انتم تعلمون أن جسدي يمتلئ بمادة السليكون، وإن اختلطت هذه المادة بماء النهر يصبح جافاً وحبيباً، ويمكن عندئذٍ نقله في أكياس صغيرة. وحينما تنتهي الأزمة يمكننا تمييعه بآلات خاصة، ليعود إلى طبيعته"

قالت السُّحُبُ الفضية :

"لاشك في أن فكرتك ذكية، لكن حاكم مدينة السكون يمكن أن يغزو وادي الموسيقى ويسرق هذه الأكياس ونفقد النهر إلى الأبد"

قطعت "المياه المشعة" حديث السحب الفضية وبناها مع المذنب الفيلسوف وهبطت دامعة العينين تقول :

"أتتركون أبي يموت، وأنتم مستغرقون في هذا الجدل الذي لا طائل من ورائه ؟!"

قالت لها البلورة الجليدية زمردة :

"من قال لك ؟"

أجابت المياه المشعة :

"لقد سمعت القمر يبكي وينتحب، فسألته عن سر بكائه فقال لي إنه حزين لأنه لا يوجد على سطحه الماء الذي يمكنه أن يعطيه لأبي! أخبروني – بالله عليكم – ما الذي أصاب أبي النهر؟!"

قالت البلورة الجليدية لؤلؤة :

"فلنكفَّ عن الحديث، ولنهبطِ الآن إلى النهر، وسوف تعلمين منه كل شيء . لقد سبقتنا السحابات البرتقالية من كوكب المريخ والزهرة والمشتري إلى هناك"

قال المذنَّب الفيلسوف :

"من الممكن أن نجعل هذا النهر نقياً تماماً من أية شوائب غريبة مثل الأملاح وثاني أكسيد الكربون والنيتروجين وأكاسيد الحديد"

قالت السحابة الفضية بدهشة :

"لا يوجد ماء نقى تماماً في هذا العالم، أيها الفيلسوف!"

قال المذنَّب :

"سأطير إلى الشمس وأتضرع إليها أن تبخر كل قطوات الماء التي تحمل الشوائب الغريبة، فيصبح النهر صافياً رَقْرَاقاً "

قالت لؤلؤة :

"فلتفعل ولكن حذارِ من الاقتراب كثيراً من الشمس، لكيلا تتبخر !"

وردّ المذنّب الفيلسوف متأثراً :

"هذا هو مصيري المحتوم يا لؤلؤة ! ويجب أن أفعل شـــيئاً من أجل صديقنا النهر قبل أن أموت "

طار المذنب الفيلسوف نحو الشمس بعد أن ودع الجميـــع قائلاً :

"فلتسرعوا بالهبوط قبل فوات الأوان "

(٢٧)

تهلّل وجه النهر فرحا بالسحابات البرتقالية وهي تهبط من السماء في مشهد جليل، حاملة على ذراعيها "الماء الخفيـــف" فاحتضنه وغمره بالقبلات، وقال للسحابات البرتقالية باكياً :

" لقد تعلمت منكم جميعا درساً في العطاء، واستيقنت بأن الصداقة الحق هي أن نعطى ما لدينا وقت الشدة "

لم يكمل النهر فرحته بعـــودة ولـــده الأصغـــر، وإذا بالسحابات الفضية تتلألأ في الفضاء ومن بين جناحيها تنفلـت ابنته "المياه المشعة" مندفعة كالسهم بين لؤلؤة وزمردة، تحتضنه وتقبل يديه وتقول له :

" حمدا لله يا أبي أنك ما زالت على قيد الحياة"

بلغت فرحة النهر ذروتها، وفاضت. وحمل المياه المشـــعة فوق ذراعيه ثم قال لها :

" إنني اشتاق إليك كثيراً يا ابنتي، لكنني أخشـــى علـــى الأسماك من أشعتك المهلكة ".

قالت المياه المشعة :

" لقد أتيت لكي أقضي على المواد الكيماوية التي لوَّثـــت جسدك يا أبي "

اقتربت منها عمتها "الشلالات الكـــبرى" وقـــالت لهـــا باندفاع :

" انتهى الأمر يا بنيتي! لقد أزحنا هذه الكيماويات وقمنـا بمعالجتها منذ دقائق معدودة، واســـتعادت البكتريـــا الطيبـــة

حيويتها ونشاطها من جديد "

وعادت المياه المشعة تقول برجاء :

" أريد أن أبقَى بينكم قليلا من الوقت! إنني أموت اشتياقا إلى أبي وأخي "الماء الثقيل" وأخي "الماء الخفيف"، وسوف أصعد إلى الفضاء بعد ذلك مع السحابة الفضية "

تطلع الجميع إلى السماء وهم يشاهدون المذنب الفيلسوف يقترب من الشمس ويبدأ في التبخر رويدا رويدا مكونا ذيلا طويلا، حتى تناثر إلى جزيئات صغيرة في الفضاء، وسقط من جسده حجر نَيْزَكيّ فَجَّرَ ينبوعاً من الماء الصافي بين أهرامات الزمرد الخضراء .

انخرطت المياه المشعَّة في البكاء وقالت لأبيها :

" لقد مات المذنَّب النبيل من أجل أن تصبح نهراً نقيا يا أبي "

وفي غضون ذلك تعالى صراخ الأعشاب المائية الصغيرة، حيث كان عدد كبير من الحشرات الضارة يلتف حولها، ويحاول التهامها، إلا أن حشرة الرعاش الزرقاء لم تمكنها من

ذلك، وطارت نحوها بسرعة فائقة وافترستها في لمح البصـــر، ثم التفتت نحو المياه المشعة وقالت :

" لا تحزني على صديقك المذنب! لقد مات من أجـــل أن يحقق حلمه وحلمنا. وكل واحد منا يقدم ما يقدر عليه مـــن أجل أن يبقى وادي الموسيقى جنة الله على أرضه. ولتســـألي نفسك يا أختاه هل يمكن لهذا العالم أن يعيش بدون هدف نبيل نسعى جميعا إلى تحقيقه "

(٢٨)

تدافعت جماعات كبيرة من البشر نحو وادي الموســـيقى، وتوجهوا حول أسواره يصرخون وينتحبون !

شهقَ جبل المرْو الشفاف لهذا المشهد المهيب، واهـــتزت أوتادُهُ بعنف، ومال يسأل الضفدع العجــوز الــذي بـــادره بالقول :

" هل ستسمحون لهم بالدخول أم ستتركونها يـــهيمون حول أسواركم مثلنا ؟ "

- "من يكونون ؟!"

-" انهم هاربون من مدينة السكون "

اعتدل جبل المرْو الشفاف يسأل الضفدع العجوز :

" ولم يهربون من وطنهم ؟ "

وأجاب الضفدع العجوز :

" لقد اندلعت حرب أهلية بين المخلوقات الآلية "

قال جبل المرو مندهشا :

" ماذا تقول! أنا لا أصدق ذلك! "

قال الضفدع العجوز :

" لقد أنتج مصنعُ الوزراءِ عدداً من الحكام الآليين، الذين يشبهون حاكم المدينة تماما، بعد أن تضعضع مكانه، ففكــر في حماية نفسه بهذه الطريقة . لكن الحكــــام الأشـــباه أخـــذوا

يتصارعون على الحكم فقتل بعضهم البعض، واختلطت الأمور، وطُرِدَ الحاكم الأصلي من قصره، ونشبت الحرب بين المخلوقات الآلية التي دمر خلالها مصنع الوزراء، ومصنع الفواكه الصناعية، حتى مصانع المخلوقات الآلية التي اشتعل القتال فيما بينها. ولم يبقَ في المدينة شيء يمكن أن يؤكل أو يشرب أو يلبس، وكاد الناس يموتون من الجوع والعطش والعُرْي .

تساءلَ جبلُ المَرْو :

" وماذا حدث لحاكم المدينة الأصلي ؟! "

قال الضفدع العجوز :

يهيم الآن في الشوارع، ويهذي بكلام غير مفهوم، ويبدو أنه قد فقد عقله تماماً .

نقلت الأمواج الصوتية ما قاله الضفدع العجوز بوضوح إلى أرجاء الوادي كافة. وفي ذلك الحين كانت نشوى تعدو على سطح النهر مع سهيل ونهاد والأفيال البيضاء والنعامات الطائرة والبط والبلبول والبط الغطاس، ولما تناهت إلى أسماعها الكلمات، سالت دموعها على خدِّ النهر الذي قال مُسَرِّياً :

" دموعك الحارة هذي تكاد تلهب فؤادي "

لم تلتفت نشوى إلى دعابته، وانطلقت نحو الشاطئ تتخبط، فحملها النهر على كفَّيْهِ وأسلمها إلى النَعَامَات الطائرة التي طارت بها إلى جبل المرو الشفاف. أما سهيل ونهاد فقد ركضا خلفهم وهما يلهثان .

قالت نشوى للضفدع العجوز بلهفة :

" هل حدث مكروه لأبي ؟ "

لم يتكلم الضفدع العجوز، وقال الجبل مترددا :

" يبدو أنه بخير "

وتطوع أحد الهاربين من مدينة السكون بالقول ساخراً :

" لقد سرق منه كلبه المستشار ما كان يخزنه من طعام وشراب وهرب. وضبطنا حاكمنا المبجل وهو يستجدي نملة فِطر، من أجل أن تعطيه بعضا من طعامها، لكنها رفضت وأصرت أن ينتج غذاءه بنفسِهِ وأعطته بعض الحبوب؛ كي يزرع أشجار الفواكه والخَضْرَاوات.

وقال لها آخر في استهزاء :

" لقد حطَّم الأشجار الصناعية بنفسه؛ ليفسح مكاناً للأشجار الطبيعية "

قال ثالث متهكماً :

" لقد فعل ذلك لأنه عَرَف طَعْمَ الجوعِ لأوَّل مرة "

وقال رابع موبخاً :

" أظنُّ أن المستشار العجوز الذي قاسَى منه الكثير أحضرَ له قطعةَ خبزٍ وزمزميةَ ماءٍ ... يَالَهُ مِن شخص سَاذَج!"

ارتمت نشوى على صدر جبل المرو وبكت بكاءً مرًّا، فانتفض الجبل غاضباً، وأسقط بعضاً من أحجاره، وقال :

" تسخرون من هذه الطفلة الشجاعة التي ضحت بكثير من أجل أن تنقذ وطنكم الحقيقي – وادي الموسيقى ! إنها افضل منكم جميعا لأنها ملكت زِمَام أمرها، وتصرفت وَفْقَ إرادتها الحرة. وأنتم لا تزالون إلى هذه اللحظة، غارقين حتى آذانكم في عجزكم . لقد فشلتم حتى في خلع خوذاتكم الآلية، ولم تستطيعوا أن تنتصروا بكلمة "لا" : للنهر الذي

رُدِم وللأشجار التي حُطِمت، إلى أن باتت مدينتكم مدينة الموت بحق !"

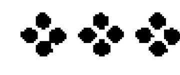
نفخ سهيل في الصخرة البوق وبيضة الإوزة والصخرة الناي ذات الثقوب الستة . وهمست هاد في أذن الرياح لتساعده، فعزفت الصخور : أجراس الخلخال والتروبيت والأرغن والفلوت وصفارة ريش النعام و الإكسليفون – السلام الوطني لوادي الموسيقى، وشاركها في العزف الموسيقيون المتجمهرون حول أسوار الوادي بآلاتهم .

وقف الناس في خشوعٍ مَهِيب وكفَّت الطيور على الرَّفْرَفَة والأشجار على الخَشْخَشَة . وسكن النهر تماماً، وأوقف هديره وتماوجه.

انتهَى السلام الوطني للوادي، فانطلق الحِصان القِرمِزي نحو جبل المرو الشفاف. وبعد أن التقط أنفاسه قال للضفدع العجوز على مسمع منه ومن البشر المتجمهرين :

" إنني قادم توًّا من اجتماع لمجلس العلماء . ولقد قرر المجلس أن يشقّ النهر مجراه عبرِ الصحراء إلى ما كان يسمى مدينة السكون، باعتبارها جزءاً لا يتجزَّأ من الوطن الأمّ – وادي الموسيقَى .

ووَسْط صيحات وهليل الجميع واصل الحِصَان القِرمِزي قائلاً : " وقرر المجلس – أيضاً – أن يذهب الجميع إلى هنـاك، وبصحبتهم نشوى وسهيل ونهاد وفيتامينات الجـــو والأشِـــعَّة فوق البنفسَجية ومجموعة من العلماء والحيوانات والطيـــــور. ويوصى المجلس بأن يقوم كل واحد من العائدين بغرس شجرة واحدة، حتى تعود هذه الأرض إلى سابق عهدها، وبأن يجـــريَ انتخاب مجلس يتولى مقاليد الحكم فيها، من العلماء والشـعراء والأدباء والموسيقيين، وكل من يمتلئ قلبه بحُبٍّ الطبيعة".



المحتويات


فراشة الأميرة الحمراء
الرجل الغراب في غابة الضباب
تأليف: نبيل خلف
ثورة الأطفال
نبيل خلف
الأم الخشبية
نبيل خلف